

Princeton University Library



32101 072239724

٢٥١٥

الفقه الارفي

في شرح

العروة الوثقى

تأليف

آية الله العظمى وحجة الاسلام الكبرى

و المرجع الديني الاعلم الاورع الاعلى

الشيخ عبد الكريم النجاشي النجفي

• دام ظله •

الجزء الاول - الطبعة الثانية

الناشر

الوجيه الكبير الفاضل السيد محمد سعيد آل ثابت

١٣٨٠ - ١٩٦١

مطبعة الغري الحديثة : النجف ت ٦٨٢

١٣٨١ / ١٩٦١

السيد محمد سعيد آل ثابت

كتاب

الفقه الارفي

في شرح العروة الوثقى

al-Zanjānī, Abd al-Karīm
ibn Muḥammad Rīzā

تأليف

الإمام حجة الإسلام آية الله العظمى

الشيخ عبد الكريم النجفاني

al-Fiqh al-argā

دام ظله

الجزء الأول

« الطبعة الثانية »

الناشر

الفاضل الوجيه الكبير السيد محمد سعيد آل ثابت

١٣٨٠ - ١٩٦١



2276
.15
.992
.1961

v.1

طبقة الفري الحديثة - النجف



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله والصلوة والسلام على خير خلقه محمد وآله
يسرنا ان نقدم الى جمهور الفقهاء والعلماء الأعلام الطبعة الثانية
للجزء الأول من كتاب (الفقه الأرقى في شرح العروة الوثقى) بعد أن
مضت مدة بعيدة على نفاذ نسخ طبعته الأولى .

ومن الجدير القول بأن هذا الكتاب هو الأول من نوعه في ما
أخرجته دور الطباعة من أسفار في علم الفقه الاسلامى . وذلك لأن مؤلفه
الإمام آية الله العظمى « الشيخ عبد الكريم الزنجاني » هو أول من بحث صريحاً
من دون تقيّة في ما يتضمنه الفقه الاسلامى من حقايق علوم الحياة وإهتم
متجهاً الى الحقايق الفقهية الراهنة من تعاليم الاسلام الخالد العام في هذا
الكتاب على سياق برهاني دقيق واضح للحس والعيان في أسلوب سلس يفهمه
حتى القارئ العادى ، وبذلك خدم الإسلام وعلم الفقه خدمة خالدة ،
وليس هذا عليه بكثير فانه الوحيد في أقداره العلمية الفذة التي قد هيأت
له الإحاطة بالعلوم العقلية والنقلية بأسرها ، وبدقايق اسرار التشريع الوارد
في كتاب الله المعجز الخالد وسنة رسوله وخلفائه الائمة الكرام عليهم السلام .

كما هيأت له أن يظهر هذا الكتاب الممتاز بإحكام الوضع وإتقان البحث
وحسن الترتيب والتعرض بما كان متروكاً في كتب علم الفقه في محيط الجود

4-20-66 1945

قبل نصف قرن في حلة بديعة شملت من علم الفقه كل حقيقة ونأت عن كل
نقيصة ، وقد أورد في المقدمة من هذا الكتاب اثنا عشر مطلباً من أهم المباحث
الدينية والمبادئ الفقهية التي توجهت في هذا القرن همهم الكثيرين من علماء
المسلمين في الافطار العربية والاسلامية الى الاشتغال بتفاصيلها والاهتمام
بالسنن الإسلامية الصحيحة وصور هذه المطالب على صورة مبتكرة
رائعة جمعت اليها حقايق دينية وعلمية فيها ما يقنع المطالع بأن هذا
الكتاب هو عصارة دراسات التشريع الإسلامي وأسراره المخزونة عند
الراشخين في العلم ، وخلاصة التجارب والآداب والحقايق التاريخية المنتثرة
في مختلف الكتب المعتمدة من سيرة الرسول الأعظم وسنته والمأثورة عن
وصيه المعظم وآله الأئمة الأبرار عليهم السلام ويتيسر له أن يدرك أن علم الفقه قد
تزعزع عن موقفه الجامد المحاط بظروف التقية والتقليد والمجاملة والبيشة
القاهرة ، الذي جعله هدفاً للانتقاد في القرون الأخيرة وأوجب انحطاط
المسلمين .

مع العلم بأنه لا يدعوا الى جديد أو تجديد ولكنه يرجع بالمسلمين عامة
وفقهاءهم خاصة الى الوراثة ثلاثية عشر قرناً لا رغبة في التأخير والارتجاع
ولكن ليتمتعوا بانوار الفقه الكامل والمدنية الإسلامية الزاهرة التي شعت
فترة من الزمن في صدر الإسلام فأضاءت الكون بسراج وهاج .

وهو لا يدعوهم الى التسامح في دينهم بل يصرح بأن التسامح في الدين
هو الذي أخفى جوهره اللامع وأوجب تخلل البدع في تعاليمه التي عند بعض
المسلمين ، وسبب الانتقاد والاختلاف والتفرق شيعاً وأحزاباً ، ويدعوا
المسلمين الى التصلب في الدين الصحيح ورفض التسامح فيه وما تركه من
الآراء المفرقة ، ويحثهم على معرفة حقايق الإسلام على صورة ما أنزله الله

على رسوله محمد ﷺ لكي يصدقها العقل والعلم ، وهو يبرهن أيضاً على أن الاجتهاد في زمن الغيبة من لوازم الدين الإسلامي العام الخالد ، ولا يجوز سد بابه لأنه رمز لخلود تعاليم الإسلام الثابتة بجوهرها التي لن تتغير أبداً ، وهذا الخلود قائم على التجديد والتطور في ملابساتها وأساليب أشكال تطبيقها على أساس العلم الصحيح بالكتاب والسنة ، والتفكير البرهاني الحر المرتكز على ملكة الاجتهاد في إستنباط الأحكام الشرعية للحوادث المستجدة في العالم الى آخر الدنيا عن أدلتها الإلهية .

وينبغي التنبيه على انه لم يمكن أن يطلب من الامام الزنجاني أن يعيد النظر في مباحث هذا الكتاب الذي ألفه قبل نصف قرن ، لا لأنه يكره الرجوع الى ما ألف أو أملى سابقاً فحسب ، بل لأنه من ضيق الوقت وكثرة العمل وإزدحام الواجبات من الدرس والبحث والتأليف والقضاء والإفتاء وأجوبة المسائل وقضاء الحوائج والسهر على المصلحة العامة وشؤون المسلمين كافة بحيث يشفق عليه منها عارفوه من قريب ويتمنون أن يهي الله له بعض الراحة والهدوء حيث لا راحة له في غير الاستزادة من العمل ومن النجاح الذي يلزم العمل ، مضافا الى انه مدفوع الى الامام لا يستطيع أن يقف أو يستقر فضلا من أن يلتفت الى ما مضى أو يعيد النظر في كلام مضى عليه عشرات الأعوام ، وهو لا يجد وقتاً يمكنه من أداء واجباته اليومية الكثيرة التي يقتضيها مركزه الديني الأعلى ويتطلبها مقامه العلي السامي على وجهها .

ومن الجدير بالذكر أن بعض الأعلام أرادوا أن يظهر الإمام الزنجاني من الحرص على آثاره ومبتكرات آرائه ومؤلفاته أكثر مما أظهر الى الآن لأن مؤلفاته وآرائه وكلماته قد أستغلت عند بعض الباحثين والمؤلفين

والكتاب إستغلالا يتفاوت في الأمانة والخيانة دون أن يشير المستغلون الى ما إستغلوا منها فآظفروا أنهم مبتكرون ، فآجاب الإمام الزنجاني قائلا :

« إني أزهد الناس في أن يعرف لي السبق الى رأى من الآراء أو عمل من الأعمال ، ويدفعني إخلاصى في العلم والعمل الى أن أيسح للناس أن يأخذوا وأن يستغلوا ، بل أجد سعادة لا تعد لها سعادة حين أراهم يأخذون ويستغلون آرائى ، وليس يعنينى أن يشيروا الى انها الى وانما يعنينى أن أكون نافعا لهم وللجميع وللإسلام والانسانية . »

وصفوة المقال ان هذا الكتاب يكشف من سمو الفقه الإسلامى ما لا يكشفه كتاب غيره ، ولا نظن ان الفقه الإسلامى وجد مدافعا عنه اكثر غيره عليه وادق نظرا فيه من الإمام الزنجاني اثابه الحق على عمله الطيب ، وان مباحث هذا الكتاب منتخبات جواهر ثمينة من علوم الدين ، قدمت في أنسب الظروف والأحوال لعامة العرب والمسلمين ، بل الناس اجمعين ، فان نفعت فذاك ما نبتغى وتتمنى ، (والمنة لله تعالى) وإلا فما هى بأعظم من كتاب الله العظيم الذى نبذه الناس ظهريا ، وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا ، وما يضررون إلا انفسهم لو يعقلون .

(فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه اوائك الذين هديهم الله واوائك هم اولوا الألباب) .

« الناشر »

كلية

ناشر الطبعة الاولى

في سنة ١٣٣٢ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مرت عدة اعوام بالمسلمين حافلة بأحداث جسيمة من إجتماعية ودينية وسياسية اوجبت تحولا عظيما في تاريخ الشرق الاسلامي ، وظهرت خلالها فتنة عمياء اوجدها وحى الكفار وعمت الافطار الإسلامية وكانت من ضحاياها عدة من اعلام المسلمين .

وبينما كان الإسلام يصرخ في وجه كل مسلم ويندبه للجهاد في سبيله والمسلمون بين مستسلم للحوادث ، وبين متحفز بهم ويحاذر ان يخفق ، ولم يظفر بناصر قوى الايمان والارادة كامل العقل والتجارب لا تأخذه في الله لومة لائم ، إذ دوى هذا الشرق بأسم عظيم قيضه الله في هذه الغمرة القائمة مصباحاً لآلاء يبعث بنور عليه الى جميع الجهات فتتفد اشعتها الى القلوب فتثيرها والى النفوس فتجعل آفاقها وضائة ، وانحصرت فيه الرئاسة الإسلامية العامة الكبرى ، فاستنقذ الاسلام من براثن البدع المستحدثة واحتفظ برمقه الأخير ، وهو الامام المجاهد آية الله العظمى ، السيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي ، المرجع الديني الأعلى في هذا العصر ، ومؤلف كتاب (العروة الوثقى فيما تعم به البلوى) الذي هو كنز جواهر علومه ، ومستودع

أسرار فقهه ، وسجل إستنباطه وآرائه ، وأهم المصادر الفقهية ، ومرجع
المجتهدين المستنبطين .

وازدهرت في عهده معاهد النجف الأشرف العلمية التي كانت منذ
قرون ولا تزال تذكى في علماء الدين وطلاب علومه الشعلة المقدسة الخالدة
وترسل أشعة العلوم الى مشارق الأرض ومغاربها ، والتي تغص بالآلوف
من طلاب العلوم الدينية والفلسفية العالية من جميع القارات ، وبمئات
الأعلام الفحول من أكابر الفقهاء والعلماء والاساتذة الكبار وأعظم المجتهدين
الجاهزين للناصب العليا والمستعدين لتربيع منصة المرجعية العظمى ؛ يتقدمهم
حجة الإسلام آية الله الإمام « الشيخ عبد الكريم الزنجاني ، الذي هو الساعد
الأيمن لرئيس المجتهدين (السيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي) وتثنى للحجة
الزنجاني وسادة بين يدي رئيس المجتهدين ، وأصبح الزنجاني هو المرجع
الثاني في العلوم الدينية والفلسفية والأحكام الشرعية والفتاوى الفقهية ،
فان الإمام اليزدي يرجع المشكلات اليه ، ويدل عليه الخاصة والعامة
ليسترشدوا برأيه ويهتدوا بهديه .
ولقد نوه بهذا في إجازته المكتوبة بخط يده وتوقيعه وختمه ، وهذا
نصها :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أكرم العلماء ، وجعلهم ورثة الأنبياء ، والصلاة
والسلام على سيد الرسل والأولياء ، وعلى آله البررة الأزكياء (وبعد)
فان أفضل أعمال أهل العلم مدارسته وذكره ، وتعميمه ونشره ، وإعلاء
شأن حملته ، وتنزيل كل في منزلته ، ولما كان العالم الفاضل والمجتهد التقى

العاقل ، جامع المعقول والمنقول ، الشيخ ميرزا عبد الكريم الزنجاني ،
 ادام الله بركات وجوده ، ممن طالت معه المعاشرة ، وكثرت المحاورة
 والمذاكرة ؛ فائقفتنا منه على علم كثير ، وفضل غزير ، وإحاطة بالأحكام
 وإجتهاد في مسائل الحلال والحرام ، واقفاً على دليلها ، مستنبطاً فروعها
 من اصولها ، وقد إستجاز منا ان يروي عنا ما يرويه نحن عن علمائنا الأعلام
 واساتذتنا الكرام ، فأجزناه اجازة علمية قضاء لحقه ، وإعترافاً بعلمه وفضله
 مؤكداً عليه وعلى انفسنا مهما امكن العمل بالإحتياط ، وتجنب طرفي
 التفريط والإفراط ، سائلين من الله تعالى ان يوفقه للإرشاد والهداية كما
 هو شأن امثاله ، وان يوفق المؤمنين للأخذ عن جنابه والمراجعة اليه
 (سلبه الله تعالى) في الأحكام الشرعية والحمد لله رب العالمين ١٣٣٢ هـ

محمد كاظم الطباطبائي

وكان من نتائج معاشرتهم الطويلة ، ومذاكرتهما الكثيرة تأليف هذا
 الشرح المسمى بكتاب «الفقه الأرقى في شرح العروة الوثقى» الذي يعتبر
 جزءاً راقياً من تاريخ الفقه الإسلامي وكماله وتطوره الكائن في جوهر عنصر
 هذا القانون السماوي الإنساني الدائم الشامل الكامل ، ومفتاحاً لتجديد
 أسلوب التأليف في هذا الفقه ، فإن هذا الكتاب يرينا ألواناً جديدة من
 طرائق الإفصاح عن أسرار التشريع الإسلامي تحتل القلوب والارواح ويوجد
 في مواضعه آراء جديدة برهانية في فهم الكتاب والسنة ، وافكار ابكار في
 تصوير الحقائق الإسلامية على لوحة التشريح والتحليل في ضوء الأدلة الشرعية

والعقلية لم يسبقه إليها سابق فيما نعلم ، مصوغة في أسلوب جميل جذاب
بإيجاز يفوق في وضوحه كل إطناب ، وكثير منها تحف لم تفتقر ريق سمع ،
ولم يدرس مثلها في جمع ، وفي بعضها يحس القارئ ان ضوءاً جديداً منبثقاً
عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ قد سطع على موضوعات قديمة مألوفة فإذا
الحقائق الفقهية والأسرار التشريعية المحتجبة وراء ستار من الأساليب الملتوية
المعقدة قد تجلت واضحة جليلة .

ولنكتف بهذا الإجمال ، ونتفادى من تفصيل المقال ، لكى يتسنى
للقارئ الكريم التأمل الصامت فيما تقع عليه العين من روائع هذا الكتاب
فإن الأجدى عليه ان يتملاها نظراً من أن يترواها خبراً والله ولى التوفيق .

(الناشر)

صورة زنگرافية

لسند الإجازة العالية الصادرة من آية الله اليزدى الطباطبائي

في سنة ١٣٣٢ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أكرم العلماء وجعلهم ورثة الأنبياء والصلاة والسلام على
سيد المرسلين والأولياء وعلى آله البهرة الأركاناء وبعد فان افضل علم
اهل العلم ارسنه وفكره وتعليمه ونشره واعلا شأنه وتزليل كل في منته
ولما كان العالم الفاضل والمجتهد الفقيه العادل جامع المقول والمنقول
الشيخ ميرزا محمد الكريم الزنجاني ادام الله بركات وجوده وعن طاعتيه
بمعاشرته وكثرت المحاورات والمذاكرات فاقفتنا منه على علم كثير وفضل كثير
واساطيرها لأحكام واجتهاد في مسائل الخلاف والمواهم واقفا على دليلها
مستنبطاً فروعها من اصولها وقد استجابتنا ان يروي عنا ما نريد
فمن عن علمنا الاعلام واساتذتنا الكرام فاجزناه إجازة عليته قضاء
لحقه واعترافا بعلمه وفضله مؤكداً عليه وعلى انفسنا هما أكن العلم الأخي
وتجنب طري القريب والأفراط سائس من الله تعالى ان يوفق للاشت
والهداية كما هو شأن امثاله وان يوفق المؤمنين للاخذ عن جناب
والماجدة اليه سبيل الله في الأحكام الشرعية والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أكرم العلماء ، وجعلهم ورثة الأنبياء ، والصلوة والسلام
على سيد الرسل والأولياء ، وعلى آله البررة الأذكىاء . وبعد فإن أفضل
أعمال أهل العلم مدارسته وذكره ، وتعميمه ونشره ، وإعلاء شأن حملته
وتنزيل كل في منزلته ، ولما كان العالم الفاضل والمجتهد التقى العادل ، جامع
المعقول والمنقول الشيخ ميرزا عبد الكريم الزنجاني أدام الله بركات وجوده
من طالت معه المعاشرة ، وكثرت المحاورة والمذاكرة ، فأوقفنا منه على
علم كثير وفضل غزير وإحاطة بالاحكام وإجتهاد في مسائل الحلال والحرام واقفاً
على دليلها مستنبطاً فروعها من اصولها ، وقد إستجاز منا أن يروى عنا ما
نرويه نحن عن علمائنا الاعلام وأساتذتنا الكرام فأجزناه إجازة عليّة قضاء
لحقه ، وإعترافاً بعلمه وفضله مؤكداً عليه وعلى أنفسنا ممهاً أمكن العمل
بالإحتياط وتجنب طر في التفريط والإفراط سائلين من الله تعالى أن يوفقه
للإرشاد والهداية كما هو شأن أمثاله ، وأن يوفق المؤمنين للأخذ عن جنابه
والمراجعة اليه (سلمه الله تعالى) في الأحكام الشرعية ، والحمد لله رب العالمين .

محمد كاظم الطباطبائي

١٣٣٢ هـ

صورة زنگنه افية

لسند التصديق الصادر من آية الله الفيروز آبادي

في سنة ١٣٤٥ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أكرم العلماء وجعل مدادهم أفضل من دماء الشهداء
والصلوة والسلام على شرف الأنبياء محمد وآله البررة الأذكىاء أما بعد
فإن العالم المتبحر الجليل للعامل والمجاهد الموعز النقي العادل جامع
المفكر والمفكر عظيم أعيان العلماء الفحول قدوة الفقهاء الأعلام
محجة الإسلام الشيخ العظيم حفظة الآفاق الميرزا عبد الكريم الزنجاني
دام ظله حري بأن يحيز فأجل شأننا من أن يستحيز كيف
وهو دام ظله قد تربع منصة الافتاء والقضاء وصار مرجعاً للتقليد
منذ زمن بعيد بأجالة عليّة من سيدنا الأستاذ الأكبر
آية الله العظمى حفظة السيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي قدس سره
لكنني أردت أداء بعض التكليف الواجبة بالتنويه لمراتبه
السامية في درجات العلم والاجتهاد والتفريع بلياقته الكامنة
وأهليته التامة للافتاء والإرشاد فللناس أن يفطنوا
من جلوه الباهرة النافعة ويتبعوا فتاويه وادائه الساطعة
فإنه دام ظله من أدلة الرشاد والمجده رب العالمين
مناجس اليزدي الفيروز آبادي

٤ صفر الخير ١٣٤٥



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذى أكرم العلماء ، وجعل مدادهم أفضل من دماء الشهداء
والصلوة والسلام على أشرف الأنبياء محمد وآله البررة الأذكىاء . (أما بعد)
فإن العالم المتبحر الجليل العامل ، والمجتهد الورع التقى العادل جامع المعقول
والمنقول عين أعيان العلماء الفحول قدوة الفقهاء الأعلام حجة الإسلام الشيخ
العظيم حضرة الآقا الميرزا عبد الكريم الزنجانى دام ظله حرى بأن يميز ؛
وأجل شأناً من أن يستجيز كيف ؟ وهو دام ظله قد تربع منصة الإفتاء والقضاء
وصار مرجعاً للتقليد منذ زمن بعيد باجازه عليّة من سيدنا الاستاذ الأكبر
آية الله العظمى حضرة السيد محمد كاظم الطباطبائى اليزدى قدس سره لكنى
أردت أداء بعض التكاليف الواجبة بالتنويه بمراتبه السامية فى درجات العلم
والإجتهد والتصريح بلياقته الكاملة وأهليته التامة للإفتاء والإرشاد ، فللناس
أن يقلدوه ويقتبسوا من علومه الباهرة النافعة ، ويتبعوا فتاويه وآرائه
الساطعة فإنه دام ظله من أدلة الرشاد . والحمد لله رب العالمين .

٤ صفر الخير ١٣٤٥ هـ

محمد الحسينى اليزدى الفيروز آبادى

كتاب
(الفقه الارفي)
في شرح
(المروة الوثقى)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلوة والسلام على اشرف انبيائه وخاتم
رسله محمد وآله الطاهرين ، ، اما بعد ، فيقول المفتقر الى رحمة ربه الغني
« عبد الكريم الزنجاني ، ختم الله له بالحسنى : إن من نعم الله عز وجل على »
ان يخصني في عنفوان شبابي السيد السند ، والفقيه الأواحد المرجع الديني
الأعلى للمسلمين ، استاذ الفقهاء والمجتهدين الأعظم « السيد محمد كاظم ،
الطباطبائي اليزدي (مد ظله) برغبته السامية المؤيدة لإقتراح جماعة من عيون
العلماء الأعلام وثلة من فحول الفقهاء العظام ، على أن اعلق على مؤلفه
الشهير كتاب (العروة الوثقى في ما تعم به البلوى) تعليقات توضيح مداركه
ومقاصده وتكمل أهدافه وفوائده ، بعد ان طالعت ببعض آرائه فيه وإستأنس
برأي القاصر وإستورى زندي القاتر وهو مع ذلك صاحب الرأي الذي
إنتهت اليه الإصالة ، والقول الذي اندمجت فيه الدقة مع الجلالة ، فحمدت
الله تعالى على ما أنعم نعمة لا نحصى شكرها ولا ننسى ذكرها ولم أجد من
إجابتهم مفيداً ، فشرعت في التأليف في مطلع العقد الرابع من القرن
الرابع عشر الهجري حامداً لله جل شأنه ومصلياً على نبيه الخاتم (صلى الله
عليه وآله وسلم) ومسلماً على وليه الذي نلوا بجوار قدس روضته في النجف
الأشرف زادها الله شرفاً ، وعلى أولاده الأئمة الأطهار ، ومبتهدلاً الى الله
عز وجل أن ينفع به الإسلام والمسلمين ، ويجعله ذخراً لي يوم الدين
ويوفقني لإتمامه إنه خير موفق ومعين والحمد لله رب العالمين .

مقدمة

في بيان مقصد أساسي أهم ، يلزم أن يعرفه طالب علم الفقه قبل الشروع في دراسة مباحثه ، نضع صورة موجزة منه أمام المقصود - في أسلوب مشرق مقتبس من كتاب الله المعجز الخالد وسنة خاتم رسله (صلى الله عليه وآله وسلم) - تسموا الى سوامق من الصور الصحيحة ، وتوجز الحقيقة الراهنة عن فقه الإسلام ونطاقه الأوسع المحيط بعالم الإنسان وعظمة أهدافه العامة الشاملة الخالدة الدائمة المتكفلة لنوع البشر سعادة الدارين الدنيا والآخرة - عسى أن يتبصر بها الطالب ويعرف أن علم الفقه ثرى جداً الى حد الإعجاز (وإن كان الوضع القديم القائم في تأليف الكتب الفقهية الذى هو من بقايا آثار عصور التقيّة يجعل من الصعب إبرازه في جميع تفاصيله على أسلوب يرضى جميع مطامع العقول في هذا العصر) ، ويهتدى بنورها في ظلمات الشكوك التى نشأت عن خطاء الفكرة من شرقية وغربية في فهم الفقه الإسلامى وأساليبه الإعجازية في جميع الشئون الأخروية والدينية ، وطمت في هذا الزمن الأخير حتى أياست أهل الثقافة من كفاية هذا الفقه لمنح نوع الإنسان حياته الكاملة الأبدية فى آخرته ودنياه ، وحملتهم على حصر دين الإسلام فى المعابد والمساجد على غرار ساير الأديان ، بل نبذه فى أحسن معاقله والمضى فى أغراضهم الدنيوية .

وإن المؤلفين من فقهائنا الأعلام (قدس الله أسرارهم) الذين من بحرهم نفترف ، وبكل الفضل لهم نعترف ، ولهم سابقة التأسيس وفضيلة

التقدم ، ومنهم التعليم ووظيفة منهم التعلم ، قد أوسعوه بحثاً ودرساً وتأليفاً حسبما سمح لهم عصرهم ، وإقتضاه زمنهم ، وإضطروا بحكم التقية إلى اقتفاء أساليب فقه العامة الذي سيطر على العالم الإسلامي منذ أوائل القرن الثاني الهجري ، وعنى بقشور الفقه الإسلامي الجامدة أكثر من لبابه الأصيل الطرى الممتد العام الخالد ، لغرض فصله عن أغراض السلطة الزمنية التي كانت للخلافة الانتخابية القائمة على أساس تأويل آية المشورة ، من دون إلتفات الى صريح قوله تعالى : « وشاورهم في الأمر ، لا في ولي الأمر ، وقوله تعالى (وأمرهم شورى بينهم) لا أميرهم .

ثم صارت تلك السلطة لسلطين الجور ، فكان إستنباط فقهاءهم مقصوراً على ما ينزل من الحوادث في العبادات والمعاملات وبعض العقائد المذهبية فقط . لتجنبهم عن البحث في شئون المسلمين الدنيوية وسائر شئون الدولة الإسلامية حذراً من السلطة المسيطرة ، ولم يكونوا يتخيلون مسائل لم تقع ويقدرّون وقوعها ويبحثون عن أحكامها كما فعل المتأخرون ، وكان من بعض آثار هذا الجمود ظهور الضعف العام في إنتاج الفكر الإجتهادي حين إستنباط الأحكام الشرعية ، وإنتهى الأمر الى فصل الدين من الدنيا ، خلافاً لأغراض شارع الإسلام الشاملة للدين والدنيا جميعاً . فاضطر فقهاءنا الأعلام أيضاً بحكم التقية الى التأليف على طبق اسلوب فقهاءهم ، وإبتعدوا عن التصريح بل التعرض في مؤلفاتهم الفقهية بكثير مما له علاقة بشئون الحياة الدنيا من تعاليم الإسلام جرياً على رغبات السلطة الزمنية الجائرة ، واقتصروا في كتب الفقه على ذكر احكام العبادات والمعاملات بمعناها الأخص وإلتزموا بالتحذر الشديد في مباحث الجهاد والحدود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأمثالها ، ورغم ذلك التكتّم

والتحذر الشديد نال بعضهم سعادة الشهادة ، فقتل الشهيد الأول و صلب
 وأحرقت جثته الشريفة ، ثم قتل الشهيد الثانى والشهيد الثالث وأمثالهم
 قدس الله أسرارهم وجزاهم الله عن دين الإسلام خير جزاء المخلصين لدينهم .
 فلا غرو فى إستمرار طابع الكتب الفقهية على شكله القديم حتى
 القرون الأخيرة التى من الله تعالى فيها على أهل المذهب الحق بالكيان
 الثابت ، فحينئذ أخذت المؤلفات الفقهية فى تطور تدريجى كان يتقدر على
 مقدار تقلص السلطة الجائرة فى بعض البلاد الإسلامية ، وأخذ كل فقيه
 يؤلف فى ناحية من علم الفقه كانت مألوفة فى عصره ، أو ذات أهمية فى
 نظره ، والأحرى فى ناحية إختصاصه فى بعض أبواب علم الفقه الذى
 إشتهر تعريفه بأنه « هو العلم بالأحكام الشرعية الفرعية عن أدلتها التفصيلية ،
 ومرادهم من الفرعية ما يتعلق بكيفية العمل بلا واسطة ، والبحث فى علم
 الفقه عن الأحكام الخمسة وهى : الوجوب ، والندب ، والإباحة ،
 والكرهية ، والحرمة ، وعن الصحة والبطالان ، من حيث كونها عوارض
 لأفعال المكلفين من حيث الإقتضاء والتخيير ، وأفعال المكلفين من نوع
 الإنسان تعميم الأفعال الفردية والأفعال الإجتماعية ، من حيث هى خاضعة
 لأحكام الشرع الإسلامى القويم . فأصبح لعلم الفقه أبواب وأقسام وأجزاء
 حسب تنوع أفعال المكلفين من فردية وإجتماعية ، ودنيوية وأخروية ،
 ودينية وزمنية ، أو فردية فى منشأها وإجتماعية فى نتائجها ، فى التأليف ،
 والتعليم ، والإختصاص ، نظير علم الطب الباحث عن عوارض بدن
 الإنسان من حيث الصحة والمرض ، ولكنهم قسموه على أقسام وأنواع
 وأجزاء ، حسب تنوع الأمراض وتعدد أجزاء البدن ، لغرض سهولة
 التأليف والدراسة والتخصص فى كل قسم منها مستقلاً .

ومن المؤسف أن جوهر ذلك الطابع القديم المبني على فصل الدين وشئون الآخرة ، من شئون الدنيا والزمان لم يتغير في المؤلفات الفقهية ، ولم يفكر فقيه واحد في وضع كتاب جامع لجميع أجزاء الفقه وأبوابه من عبادات ومعاملات وحقوق وتربية وتعليم وأخلاق وإقتصاد وإجتماع وأمثالها من الأنظمة الزمنية على جانب الشئون الاخرية ، بغناوينها الصريحة المتمايزة .

ولكن بعض الأعلام الأفاضل من فقهاءنا العظام أمثال آية الله العلامة الحلي والخواجة نصير الدين الطوسي والشيخ بهاء الدين العاملي والمحقق الخونساري والمحقق القمي قدس الله أسرارهم جمعوا في العمل بين السلطتين الدينية والزمنية بأنهم أذنوا لمن توثقوا من عقيدته وعدله من ملوك الإمامية في أن يقوم بالحكم الزمني تحت رعاية علماء الدين وإشرافهم وتوجيههم عملا بقاعدة : (الميسور لا يسقط بالمعسور) وفي حماية تلك السلطة الزمنية المشروعة قاموا بواجبهم الديني في نشر الإسلام الصحيح والفقه الجامع لموجبات السعادة في النشأتين ، ولا ينقصه إلا التنظيم وتمييز المسائل الزمنية والدينية وتنسيق مباحث علوم الحياة المبعثرة في أبواب الفقه ، بوضع علائم عليها وجمعها وتنظيمها في أبواب مخصوصة في علم الفقه ، وكان السبب لهذا النقص أنهم (رضوان الله عليهم) إنصرفوا بجميع قواهم الى التأليف في علم الكلام وفي إثبات أصول الإيمان التي كانت محبوبة بسيطرة الظلم والطغيان عن العالم الإسلامي . لا اعتقادهم بأنها أهم من الفروع العائدة الى شئون الحياة الدنيا وأجدد بالنشر .

فليكن اسلوبنا في هذا الكتاب أن لا نكثر بالتقية ، ونبين حقائق فقه محمد وآل محمد عليهم السلام ونكسوها حلة من البيان تقر بها الى الأذهان ،

وتتقبلها القلوب قبل الآذان ، وتخرج بها عن التعقيد والإلتواء والمجود ، وقصر النظر ، لكي تنفسح هناك شبهات المشككين ، وترسخ في النفوس أسس أصول العقائد وفروع الدين ، ونختصر في ما أسهب فيه الفقهاء ، ونسهب في ما أوجزوا ، أو أهملوا ، مع إغذارهم في الإيجاز أو الإهمال حيث ألجأتهم اليه قساوة الظروف ، ومصالح الأوقات والأزمدة وضرورة الأوضاع الشاذة ، وصعوبة الأحوال ، وعلى الله الاتكال .

« إن هذه تذكرة فمن شاء إتخذ الى ربه سبيلا » .

و « إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » .

ويتطلب توضيح هذه المقدمة بيان مطالب : هي من أهم المبادئ .

(المطلب الاول)

إعلم أن الفقه الإسلامى أكمل التشريعات الإلهية وأفضلها ، وأتمها وأجلها وأعظمها وأشملها وأشرفها وأوسعها نطاقا فى الإحاطة بكل ما يحتاج إليه نوع الإنسان على إحتلاف عناصره الى آخر الدنيا من الأحكام التعبدية والشرايع الدينية والأنظمة الزمنية والدساتير العامة ، والقواعد الشاملة ، والنواميس الفطرية والحقوق الطبيعية والوضعية وقوانين الأخلاق والتربية والتعليم . وروح مناهج العلوم الاجتماعية والاقتصادية ولباب حقايق سائر العلوم التى يرجع الناس إليها فى تحقيق العناصر التى تتقوم بها الحياة كل ذلك على نهج فطرى مألوف ، واسلوب طبيعى سهل عملى يدور على محور المثل العليا للدين وللحقيقة الاجتماعية الكبرى من دون نزاحم بينها فى التطبيق ، بحيث يمكن أن يعتبر ما جاء فى هذا الفقه ببساطة فطرية وفى مصادره الإلهية التى فيها تبيان كل شئ من الحقايق الراهنة أصلا وأساساً للعلوم الحادثة فى الملة . التى جاءت بعده بقرون فى هذا العالم ، ولإتخذت من وضع الواضعين أو المترجمين صوراً وأشكالاً قديمة أو حديثة ، ومصطلحات علمية مخصوصة ، ووضعوا لها أسماء وأصولاً قررت لها هذه العلوم لا الحقيقة نفسها ، ولأجل ذلك تخالفت هذه العلوم الحديثة فى مرحلة التطبيق ، فعلم الاقتصاد الحديث مثلاً وهو علم المنفعة وزيادة الإنتاج ويحضى على الآثرة لا يجتمع مع علم الأخلاق الذى يحضى على الإيثار والتضحية والتأزر ، وعلم الأخلاق الحديث يقول على الإطلاق : (هذا حسن

فيجب أن تفعله ولا تفعل سواه) وأما علم النفس الحديث الذي يبين لنا
 كيف نفكر ، كما أن علم المنطق يبين كيف ينبغي أن نفكر ، فيقول لكل فرد
 عليه : (إن كان في مقدورك أن تفعله فأفعله ، وإن لم تفعل فأنت
 ملوم ، وإن لم يكن مقدوراً لك فأنت معذور) فيتنافيان ، وذلك لأن علم
 الاخلاق الحديث يعنى بالحكم على تصرفات الناس من ناحية الخير والشر ،
 ويحدد معنى الفضيلة والرذيلة حدّاً نافصاً ، ويحث الناس على إتباع الأولى
 وتجنب الثانية ، ويحملهم على نشد المثل العليا للسلوك من غير أدنى اعتبار
 لتعدد جوانب كيان الفرد البشرى تكويناً ، ولا لظروف الفرد التي تدفعه
 الى التصرف تصرفاً خاصاً قد لا يرضى هو بأن يقوم به إذا تغيرت الظروف
 وبدون أى تقدير لطبيعة البيئة وسلطانها على نفس الفرد ، وهو كذلك
 يتجاهل الفوارق بين عقلية الأفراد والجماعات والأجناس ونزعاتهم ، وسائر
 استعداداتهم التي تتحكم في سلوكهم ، وأما علم النفس الحديث فيرى أن
 الفضائل والرذائل هي مسائل إعتبارية تختلف قيمتها باختلاف ظروف
 الأفراد وطبيعة البيئات والدرجة التي وصلت اليها من العلم والثقافة والتهديب
 فسرقة الفرد الواحد شيئاً من ملك غيره رذيلة وجريمة يعاقب عليها القانون
 الوضعي في البلاد المتقدمة بهذه العلوم الحديثة ولكن إغتصاب دولة عظمى
 بلداً صغيراً والاعتداء على حريته يعد في نظرهم نصراً سياسياً يتغنون به ،
 فعلم النفس الحديث لا يدرس نتيجة التصرف في ذاتها ولا يحكم عليها من
 ناحية الفضيلة أو الرذيلة ، وإنما هو يدرس استعدادات الشخص التي توجه
 سلوكه ، والظروف التي تحيط به فتحدد تصرفاته وتتحكم فيها ، وهو يعتبر
 الرذائل أموراً اعتبارية نسبية ونقائص خلقية أو أمراضاً نفسية تجب
 معالجتها . فالتخالف موجود بين العلوم الوضعية أنفسها ، ومنشأ هذا

التخالف أنها علوم ناقصة مبتورة ضيقة مادية محضة وحالكة بل وبال على البشرية كما أن الاختراعات الحديثة محصورة في عالم الجماد ولا يتجاوزه الى عالم النبات فضلاً عن عالم الحياة .

وأما حقايق هذه العلوم ونتائجها وأغراضها المقررة في الاسلام فهي متوافقة جداً ولا يوجد أقل اختلاف بينها في مرحلة العمل ، فان الدين الاسلامي مؤسس على واقع الفطرة الانسانية وعلى أن حياة الانسان الجسدية لا تنفصل عن حياته الروحية والعقلية ، ومشاعره الروحية لا تنفصل عن واقعه المادى ما دامت النفس الناطقة المجردة ذاتاً والمفتقرة الى جوارح البدن في أفعالها متعلقة بالبدن في نشأة الدنيا ، وتفكيره العقلى مرتبط بالجميع ، فتشريعات الاسلام كلها من العبادات وأنظمة الحياة مفيدة للروح ومفيدة للجسد معاً ، ولأجل ذلك أصبحت تعاليمه في العبادات والمعاملات ، وأساليبه في التربية والتعليم والأخلاق ، وأنظمتيه في الاقتصاد والاجتماع والحقوق والسياسة والحرب والسلم ونحوها متناسقة ومتألفة لدرجة الانجاز ، فان الاسلام لا يفصل في تشريعاته بين الجسم والروح والعقل ، بل يأخذها مترابطة في واقع الحياة وفي المطالب والحاجات ويرسم لها دستوراً على ذلك المتحد ، ويجارى الفطرة في تركيبها المجموعى ، ويعالج بتشريعاته حاجات النفوس وحاجات العقول وحاجات الأبدان في وقت واحد وبعمل واحد ، ويستظهر هذا من الكلمة الماثورة : « صوموا تصحوا » ، يعنى أن الصوم الذى هو عبادة توقيفية وتعبدية محضة ويجب فعله إمتثالاً لأمر الله تعالى وللتقرب اليه ، ويبتل اذا قصد به الحمية أو الصحة ، فلهذا الصوم أثر وضعى وخاصية لازمة تتحقق بفعله من دون أن يقصد حصولها به ، وهى الصحة ، فالصوم مفيد للروح وللبدن معاً

وكذلك الصلوة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وهى عمود الدين ، ومعراج المؤمن ، وهى تشمل الروح والجسم فى آن واحد .

وهكذا يتمشى القول فى الاقتصاد الإسلامى ، فان الإسلام يحتم على الفرد المكلف أن يسعى الرزق وأن يفكر فى منفعة نفسه ويطلبها بشرط أن لا تضر غيره ، والمنفعة بهذا الشرط صورة عملية للعدل الذى هو رأس مكارم الأخلاق ، كما أن العدل صورة خلقية للمنفعة

والإقتصاد والأخلاق المقرران فى الإسلام متفقان فى مكافحة كل من يميل الى الإسراف والتبذير ، وفى تشجيع أنظمة التوفير لمكافحة الفقر الذى كاد أن يكون كلفراً ، فأن الدنيا مزرعة الآخرة ، وكل عمل للدنيا بقصد الخير يتجه به الإنسان الى الله ويقصد به التقرب الى الله تعالى فهو فى عرف الإسلام عبادة بالمعنى الأعم للعبادة ، وإنما الأعمال بالنيات ، ولكل امرئ ما نوى ، وإنه لحب الخير لشديد ، والمادة فى نظر الإسلام مقدمة تهذيب النفس وتقوية الروح ، وأما حب الدنيا المجردة من هذا القصد والنية فهو فى الإسلام رأس كل خطيئة ، وسبيل لن يؤدى إلا الى غايات منكورة من الجود فى العقل ، والخبث فى النفس ، والى التعسف والنكابة ، والفجور فى الحكم والمعاملة ، والفساد العريض ، والحرب الضروس .

ثم إن زيادة الانتاج لغرض الخير تساعد على نشر التربية الخلقية التى فيها تظهر الرابطة الاسلامية بين العالين (النفس والأخلاق) لأن معالجة مرضى الأخلاق وهدايتهم الى الطريق القويم والصراط المستقيم تحتاج الى معرفه طبائع نفوسهم ودراسة نزعاتهم وميولهم ، فالدواء لا بد أن يكون على قدر الداء وعلى مقدار إستعداد جسم المريض ومنزلته

في النمو ، والمريض مرضاً خلقياً مريض النفس فلا بد لمن يريد علاجها أن يعرف استعدادها ومنزاتها في القوة والضعف ، وليس من يقول ان علاج الطفل مثل علاج البالغ ، أو أن علاج الشاب مثل علاج الشيخ ، ومن الحق أن يصدر المعالج أحكاماً خلقية متساوية على الأطفال والبالغين والعقلاء ومضطربي الأعصاب .

وسنشير في المطالب الآتية الى بعض ما جاء الاسلام به في تشريعاته من حقائق علوم الحياة الدنيا على غرار آداب وكيفيات وأشكال وأساليب للأعمال والأفعال لا بعنوان الاسم الذي وضعه البشر لكل علم من هذه العلوم ، لأن هذا الاسم يناسب النظريات الناقصة ويسبب الاختلاف في الاعتبارات ويجلب التزاحم ، ويناسب الطبقة الراقية ولا يفهمه الجميع ، وأما حقائق هذه العلوم المقررة في الاسلام فانها تورث صلاح النفس وتكملها وتبلغ بالفرد الى المعارف الالهية والسعادة الدنيوية والأخروية ، فالعلوم الاسلامية كاملة ولكن العلوم الحديثة ناقصة والتنافي بين النقص والكمال سيزول اذا تكامل العلم الحاضر ، الناقص ، والله الأمر من قبل ومن بعد .

ويوضح ذلك أن الاسلام لغرض مكافحة الفقر جعل الفقراء والمساكين بمنزلة الشركاء مع الأغنياء في مقدار الزكاة ولكنه لم يطلق عليهم اسم الشركاء بل اعتبرهم موارد لصرفها فأمر مالك النصاب بدفع مقدار الزكاة عيناً أو قيمة الى الفقراء والمساكين وغيرهما من الموارد المبينة في القرآن الكريم ، والمفهوم منه أن شارع الاسلام قرر حقاً للفقراء متعلقاً بمالية المال الزكوى ، وهذا ليس من الاشتراكية البشرية المستحدثة كما زعمه الجاهلون بالحقائق الاسلامية .

ومن المعلوم أن الاسلام دين العدالة ومن لوازمها المساواة والحرية
بمدلولها المحدود في الاسلام ولكن لم ترد في القرآن الكريم ألفاظ المساواة
والحرية والوطن والأدب والراية والاستقلال ، ونحوها من الألفاظ
المتداولة بين الأمم المتقدمة والأمم المقلدة لها ، لكي لا ينتهي الناس الى
الفوضى في تفسيرها . وانما وردت مفاهيمها المحدودة المناسبة مع دين
الفطرة العام الخالد .

(عود الى بدء)

والحاصل أن الفقه الاسلامي ، قانون الهى جامع لجميع مناهج الحكمة
العملية الاسلامية العظمى ، وتشريع عام أبدي يرصل نوع الانسان
الى كماله الأعلى ، والى السعادة المزدوجة فى الآخرة والدنيا . وهو المظهر
الحسى للإسلام فى الأمة الاسلامية التى هى مجموعة شعوب العالم فى نظر
الشارع ، وهو خلاصة التعاليم الاسلامية المقررة فى كتاب الله المعجز
الخالد الذى فى أيدي الناس ولم تنله يد التحريف بالزيادة أو النقصان أصلاً
وفى سنة رسوله خاتم الأنبياء صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التى جعلها الله مرجعاً فى العقائد والتشريع
مثل كتابه المنزل ، ولذلك أجمع المسلمون على أن السنة مفتاح القرآن ،
والنبراس الذى يهتدون به الى كشف حقائقه ، والوقوف على دقائقه . فان
القرآن ينبوع الشريعة وعماد الدين ، والمصدر الأعلى للأحكام الدينية ،
وقد حوى علم كل شيء ، قال الله تعالى : « ما فرطنا فى الكتاب من شيء » ،
« ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء » ، اليوم اكملت لكم دينكم ، ومنصب
الرسالة منصب التبليغ عن الله تعالى والبيان لأوامره ونواهيه قال الله تعالى :

« يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته
والله يعصمك من الناس » ، « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما أنزل إليهم » ،
فمن ثم كانت السنة واجبة الاتباع ، ونحن إذ نستمسك بالسنة ونعمل بها
انما نعمل بكتاب الله ، ولم يكن النبي ﷺ في ما يصدر عنه من قول أو
فعل أو تقرير إلا صادراً عن الوحي . (ما ينطق عن الهوى إن هو إلا
وحي يوحى) إلا أن الوحي قسمان ، وحي متلو وهو القرآن ، وغير متلو
وهو السنة ، ومن أراد حقيقة الحكم من كتاب الله فليستضئ بسنة رسوله
ﷺ وقد ضل أقوام وأضلوا ، لأنهم نبذوا سنة الرسول ﷺ وقالوا :
في كتاب الله تبيان كل شيء فما حاجتنا بالسنة ؟ وظنوا خطأ أن نظرهم المجرد
يكفيهم في الوصول الى مقاصده ، والله تعالى يقول : « هو الذي أنزل عليك
الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في
قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ولا يعلم تأويله
إلا الله ، فلا مسوغ لهؤلاء القوم أن يقفوا عند ظواهر الكتاب ولا
يسترشدوا بنور النبوة وهدى الرسالة والقرآن يأمر بإتباعها ويتوعد على
مخالفتها ، قال الله تعالى : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وإحذروا ،
وقال تعالى : « ومن يطع الرسول فقد أطاع الله » ، وقال : « وما آتاكم
الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ، وقال جل شأنه : « فليحذر الذين
يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب عظيم » ، وهذه الآيات
أدلة كافية على حجية السنة ووجوب الرجوع إليها ، وقد تحدثت النبوة
عن ذلك بما أوتيت من الغيب ، ونعى رسول الله ﷺ على من رد سنة
صحيحة فقال : « يوشك رجل منكم متكئاً على أريكته يحدث بحديث عني
فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه من حرام حرمناه ، ألا وإن

ما حرمه رسول الله ﷺ مثل الذي حرم الله ، ثم لا خلاف لأحد من
يقام لرأيه وزن في أن السنة اذا ثبتت وصحت عن رسول الله ﷺ يجب
الأخذ بها والعمل على مقتضاها ولكن دون اثباتها خرط القتاد ، فإن
الامة العربية كانت أمة كما يشير اليه قوله تعالى : « هو الذي بعث في الاميين
رسولا منهم ، والاي بحكم اعتماده على قريحته وضعف تعويله على غيرها
أفدر على الحفظ وأقوى عليه من الكاتب ، ومن هنا اتكل الصحابة في
السنة على حفظهم وسيلان أذهانهم وتوقد قرائحهم فلم يكتبوها ، ولم يأمرهم
النبي ﷺ بكتابتها كما كان يأمرهم بكتابته القرآن ، بل على العكس من ذلك
كان ينهأهم عن كتابتها ، سيما كتاب وحيه الذين كانوا يكتبون القرآن
في صحف لتحفظ في بيت النبوة ، ففي بعض الصحاح أنه ﷺ قال لهم :
« لا تكتبوا عني غير القرآن ، فلو أنه أجاز لهم كتابة الحديث لم يؤمن أن
يختلط القرآن بغيره ، واستثنى من ذلك علياً ابن ابى طالب عليه السلام فأمره بأن
يخط في صحيفة كل ما أملاه رسول الله ﷺ من الحلال والحرام وتعاليم
الإسلام ، وكتب على عليه السلام أيضاً في صحيفة أخرى عن أملائه ﷺ
الديات والعقل وفكاك الأسير ، وروى النسائي انه كان مكتوباً فيها
« المؤمنون تتكافأ دمائهم وهم يد على من سواهم ويسعى بذمتهم ادناهم ألا لا
يقتل مسلم بكافر ولا ذو عهد في عهده ، من أحدث حدثاً فعلى نفسه أو
أوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » .

ومهما يكن من الأمر فإن الذي كتب على عهد رسول ﷺ من السنة
قليل جداً عند المسلمين وذلك لشيوع الامية ، وخوفهم اختلاط السنة
بالقرآن ، ولثلا ينصرف الناس بحفظ السنة عن حفظ القرآن ، وانضم
الى تلك الأسباب في العصرين التاليين اشتغال المسلمين بالفتوحات والشئون

العامة وما جد من الإضطرابات والفتن ، وظل الأمر كذلك حتى أوائل
 المائة الثانية حيث وفق علماء المسلمين الى تدوينها ، هذا مضافا الى ما سجله
 التاريخ في كتب الفريقين من ان رواية الحديث لم تكن شائعة في العصر
 الأول شيوعها فيما بعد وذلك لأن ابا بكر وعمر كرها للناس كثرة الرواية
 خشية الكذب على رسول الله ﷺ وخشية أن يصددهم ذلك عن القرآن .
 بل أخافهم عمر في ذلك ورهبهم منه ، وروى الحافظ الذهبي في (تذكرة
 الحفاظ) قال : ومن مراسيل ابن ابي مليكة أن الصديق جمع الناس بعد
 وفاة نبيهم فقال : (انكم تحدثون عن رسول الله ﷺ أحاديث تختلفون
 فيها والناس بعدكم أشد اختلافا فلا تحدثوا عن رسول الله ﷺ شيئا فمن
 سئلكم فقولوا : بيننا وبينكم كتاب الله فاستحلوا حلاله وحرموا حرامه)
 وسئل ابو هريرة ، أكنت تحدث في زمان عمر هكذا ؟ فقال : (لو
 كنت أحدث في زمان عمر مثل ما أحدثكم لضربني بمخفقتي) وروى عن
 قرظة ابن كعب قال : (خرجنا نريد العراق فمشى معنا عمر الى (حراء)
 فتوضأ فغسل اثنتين ثم قال : « أتدرون لم مشيت معكم ؟ » قالوا : نعم
 نحن أصحاب رسول الله مشيت معنا ، فقال : انكم تأتون أهل قرية لهم
 دوى بالقرآن كدوى النحل ، فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم ، جودوا
 القرآن وأقلوا الرواية عن رسول الله ﷺ امضوا وانا شريككم) .
 ولكن هذا التفريط أدى الى الإفراط في بدء العصر الأموي فشاع وضع
 الحديث عن النبي ﷺ وأوجب ذلك ان علياً كان يستحلف الراوى .
 والحاصل ان السنة لم تكن مدونة ، ولم يتيسر لفرد أو افراد ان
 يجمعوها كلها حفظاً وكيف يسهل ذلك ؟ وقد مكث النبي ﷺ من مبعثه
 الى وفاته ثلاثاً وعشرين سنة وهو يحدث ويفعل ويرى افعالا يقرها أو

ينكرها ، وأحوال الصحابة كانت مختلفة من حيث السبق الى الإسلام والتأخر ، وكثرة ملازمة النبي ﷺ وقلتها ، فنتج من ذلك ان علم السنة كان موزعا بينهم فمنهم المقل ومنهم المكثر ، وإيما كان فما يعلمه احدهم أقل مما يحمله لذلك كان يستل بعضهم بعضا ولكن تنوعت طرقهم واختلفت الطرق ولما توفي رسول الله ﷺ تفرق أصحابه في البلاد فأخذ اهل كل بلد عمن لديهم من الاصحاب وكان هذا من أهم اسباب الاختلاف بين المذاهب الإسلامية وأئمتها ، فأصبح من الواجب ان يفحص عن صحيحها ويؤخذ بأصحها .

نعم دون على ﷺ فقط بخط يده كل السنة عن املاء رسول الله ﷺ وكان اكثر ملازمة للنبي ﷺ من غيره ، وقد أشار ﷺ الى تعهد رسول الله ﷺ إياه بخطبته التي تسمى بالقاصعة وفيها يقول : « وقد علمتم موضعي من رسول الله ﷺ بالقرابة القريبة ، والمنزلة الخصیصة ، وضعني في حجره وأنا ولد يضمني الى صدره ويكفني في فراشه ، ويمسني جسده ، ويشمني عرفه ، وكان يمسح الشيء ثم يلقمنيه ، وما وجد لي كذبة في قول ولا خطلة في فعل ، ولقد قرن الله به ﷺ من لدن أن كان فطیما أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره ولقد كنت أتبعه إتباع الفصيل أثر أمه يرفع لي كل يوم من أخلاقه علما ويأمرني بالإقتداء به ، ولقد كان يجاور في كل سنة بحرأه فأراه ولا يراه غيري ، ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله ﷺ وخديجة وأنا ثالثهما أرى نور الوحي والرسالة ، وأشم ريح النبوة ولقد سمعت رنة الشيطان حين نزل الوحي عليه ﷺ فقلت يا رسول الله ﷺ ما هذه الرنة ؟ فقال : « هذا الشيطان أيس من عبادته ، إنك تسمع ما

أسمع وترى ما أرى إلا أنك لست بنبي ولكنك وزير وإنك لعل خير .
وفي كتب الفريقين أن علياً عليه السلام قال : « والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم نزلت وأين نزلت وعلى م نزلت ، إن ربي وهب لي قلباً عقولاً ولساناً ناطقاً ، وقيل ليعطاء : (أكان في أصحاب محمد عليه السلام أحد أعلم من علي قال : والله ما أعلمه . وقالت عائشة : « أما أنه (تعني علياً) لأعلم الناس بالسنة . » وقال رسول الله عليه السلام : « أنا مدينة العلم وعلى بابها . »
والحاصل أن سنة رسول الله عليه السلام قد رواها المسلمون بمختلف الطرق ولا شك في أن أصحابها ما وصل إلينا عنه عليه السلام بما صح لدينا من طريق أهل بيته الذين هم أدرى بما في البيت وأولاده الأئمة الهداة الذين هم سفن النجاة ، وهذا يظهر جلياً من الجمع بين الحديثين النبويين المستفيضين عند جميع المسلمين - على اختلاف مذاهبيهم - (أحدهما) قوله عليه السلام : « ستفترق أمتي من بعدى إلى ثلاث وسبعين فرقة ، فرقة منها ناجية . » وفي تفسير الرازي : الجزء الأول : الصفحة الثالثة : (أما الاعتقادات فقد جاء في الخبر المشهور قوله عليه السلام : « ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة ، كلهم في النار إلا فرقة واحدة . »
و (الثاني) قوله عليه السلام : « مثل أهل بيتي كمثل سفينة نوح من ركبها نجي ومن تخلف عنها هوى . »
ويدل عليه حديث الثقلين المشهور عند جميع المسلمين والمروى عن النبي عليه السلام بسند متواتر وهذا نصه : « إني تارك فيكم الثقلين إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي ، كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، وإنهما لن يفترقا حتى يردا على حوضي . »
ورواه أحمد في مسنده بهذه العبارة « إني تارك فيكم ما إن تمسكتم

به ان تضلوا ، كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، وانهما ان يفترقا حتى يردا
 على الحوض ، ولا يخفى أن افراد الضمير الراجع الى الموصول المفسر
 بالإثنين وهما كتاب الله وعترته رسوله ﷺ نص صريح في انهما في حكم
 الواحد في الحجية وفي لزوم التمسك بهما معا في احكام الإسلام ، وهذا نظير
 قوله تعالى : « وجعلنا ابن مريم وامه آية ، وكان حق العبارة ، آيتين ،
 لانهما اثنان ، ولكن القرآن عبر عنهما بلفظ مفرد لأن جهة الإعجاز فيهما
 واحدة ، اذ ولدت مريم من دون زوج وولد عيسى من دون أب ،
 فكذلك جهة الحجية واحدة في كتاب الله وفي العتره الطاهرة المحيطة بجميع
 السنة النبوية ﷺ ، والعالمه بأمرار كتاب الله المعجز الخالد ، والعارفة
 بأسرار التشريع الإسلامي ، والرابطة الحقيقية بيننا معاشر المسلمين وبين
 من خوطب بالقرآن الكريم ، ولأجل ذلك جعل الله عز وجل مودتهم
 أجراً لرسالته فقال تعالى شأنه : « قل لا أسئلكم عليه أجراً الا المودة في
 القربى ، وقد روى في الصحيحين واحمد في مسنده والثعلبي في تفسيره عن
 ابن عباس (رضي الله عنه) : « قالوا : يا رسول الله من قرابتك الذين
 وجبت علينا مودتهم ؟ قال ﷺ : علي وفاطمة وابنائهما ، وفي بعض
 الكتب وأبنائهما ، فيشمل الأئمة الإثني عشر الذين عززوا رسالته من بعده
 حتى تمكنت من هيمنتها على العالم ، وأقاموا معالم الوحي والهدى ومنائر
 الإخلاص ، وقاموا على رسالته تعزيزاً وحفظاً وحرصاً ، ودفعوا عنها
 كل غائلة تضطهرم للتضحية في سبيل تلك الرسالة بأعز ما عندهم من النفس
 والنفيس ، والإنحراف عن طريقتهم منشأ النقص والاختلاف الذي حدث
 في فهم الدين الاسلامي لا في صميم الدين ، وتتلخص النقائص في جهل بعض
 المسلمين بدينهم الإسلام وتاريخه الصحيح ، وإهمال بعض آخر العمل

بمقرراته وتبديلها بالنظم والتقاليد التي جاء الإسلام لتحطيمها وقلبها رأساً على عقب وهذا الإنحراف عن صراط الدين القويم أهم أسباب تدهور الأمم الإسلامية ، وليست أسباب تدهورها في تعاليم الإسلام نفسه كما زعمه الأجانب باعتبارهم أنها تصد عن الأخذ بكل جديد وتبث في ذويه مذاهب الجبر الى أبعد ما ترمى اليه من الإستسلام للقدر المحتوم فاتهموا الإسلام نفسه بإحداث هذا التحجير المستعصى في أئمة المسلمين ، فان هذا إقتراء على الإسلام ومنشأه جهل الأجانب بتلك التعاليم الإسلامية العامة الخالدة التي قررها الخالق العادل كقانون عمل عام شامل دائماً أبدي لجميع البشر الى آخر الدنيا ومتغلغل في جميع أعمال الإنسان وحركاته وسكناته فلا مندوحة من لزوم تطور أساليب تطبيقها بتطور الزمن طبق ما ورد في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لا يجعل مجرد المماثلة والمناسبة منشاء للقياس مع ملاحظة أن جمع الشارح بين المختلفات في الحكم وتفريقه بين المؤتلفات يكشف عن عدم العبرة بالإستحسان وأشباهه ، ولا في ما لا يستقل العقل بإدراك الحكمة والمصلحة والملاك القطعي للحكم الشرعي ، وقد ورد في الصحيح (ما لكم والقياس إن الله لا يستل كيف أحل وكيف حرم ؟) وأول من قاس إبليس (ولعل بعض ما ذكرناه هو السبب الذي دفع خواص المؤمنين الكاملين من المسلمين الى ان يقصدوا من الشهادة بكلمة التوحيد معناها الأتم الأكمل الجامع لجميع مراتب التوحيد ، أى التوحيد في الذات، والتوحيد في الصفات والتوحيد في الأفعال ، والتوحيد في الآثار ويعتقدون ان معناها ، (أشهد ان لا إله إلا الله الواحد في ذاته والواحد في صفاته ، والواحد في أفعاله . والواحد في آثاره ، من دون شريك له في ذلك كله .

وكذلك يقصدون من كلمة الشهادة بالرسالة ايضاً معناها الاتم الاكمل
الجامع ، أى اشهد ان محمداً رسول مبعوث من الله بالرسالة العامة الخالدة
وانه قد بلغ رسالته كاملة كما أمره الله وإستحق أجر الرسالة الذى جعله الله
تعالى منحصراً فى مودة على وفاطمة وابنائهما الأئمة الطاهرين (سلام
الله عليهم اجمعين) ويرمزون بذلك الى ان الشهادة بالرسالة متضمنة
للتنويه بالإمامة .

(توضيح المقال) ان من مقررات الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام ان
(التوحيد الذاتى) مدلول كلمة (لا إله إلا الله) وهو فى مصطلحهم (التوحيد
العام ، إذ يجب الاعتقاد به على جميع أفراد البشر ، وبانضمامه الى الشهادة
بالرسالة يتحقق الاسلام بشرط الاعتقاد بالمعاد والعمل بكل ما جاء به النبي
ﷺ ، و (توحيد الصفات مع الذات) هو (توحيد الخواص) وهو
مدلول كلمة (لا هو إلا هو) وبه يتحقق الايمان ، و (التوحيد الفعلى)
(توحيد خاص الخاص) ، وهو مفاد كلمة (لا حول ولا قوة إلا بالله) وبه
يكمل الايمان ، و (توحيد الآثار) (توحيد أخص الخواص) وهو مفاد
(لا مؤثر فى الوجود إلا الله) وبه يتحقق المثل الأعلى للإيمان والاسلام ،
فلو قال الموحد فى شهادته بالتوحيد ، أشهد ان لا اله الا الله ولا حول ولا
قوة الا بالله . مثلاً بقصد الشهادة على كمال الايمان ، لا ينكر عليه بأنه
بدعة لاضافته جملة على كلمة التوحيد التوقيفية بل يجزئ فعله ويمدح عليه ،
ويضاعف أجره وثوابه ، فهكذا يتمشى القول فى الشهادة بالرسالة اذا اداها
مسلم مفصلاً مدلول تركيبتها وقال : أشهد أن محمداً رسول مبعوث من الله
وانه بلغ رسالة ربه كاملة فاستحق أجرها المنصوص عليه فى كتاب الله وسنة

رسوله ، وهو المودة في القربى وهم على عليهما وفاطمة عليهما وأبنائهما ،
فلا وجه لإستنكاره .

فالشهادة الثالثة لهذا الغرض مكملّة وموضحة للشهادة الثانية وليست
بدعة كما زعمه النافسون ، ولا يخفى أن هذا لا يوجب تفريقاً بين المسلمين ،
لأن أمير المؤمنين على عليهما أوضح بسيرته وأعماله وأقواله ما ينبغي
إشيعته من الماشاة والمدارة مع كافة إخوانهم المسلمين وقال في
خطبته المعروفة بالمشقة : « ولكنى أسففت إذ أسفوا وطرت
إذ طاروا ، . . . »

المطلب الثاني

المثل العليا

الجمال المطلق لا يكون الا لله وحده — والله المثل الأعلى — واما المثل العليا للوجودات الامكانية ، وانواع الكائنات في عالم الوجود ، والمبادئ والعقائد ، والأديان والشرايع والعلوم والأنظمة وسائر المقررات العقلية فهي تتكون من كمالات نسبية ودرجات نهائية للجمال النوعي تضع الوجود المتصف بها في أعلى مستوى يمكن ان يصل اليه ، والمثل الأعلى ضرورى في كل نوع من انواع الموجودات ، اذ عليه يرتكز ناموس الارتقاء ويستهدفه الانتخاب الطبيعي بإذن الله وتتوخاه فلسفة بقاء الأصلح في معترك تنازع البقاء التي هي سنة الله في الكون ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً ، والمثل الأعلى غاية كل حركة ارادية ونهاية كل حركة طبيعية بمقتضى نظرية الحركة الجوهرية التي هي الأساس العلى الصحيح لنظرية النشوء والارتقاء المؤدى الى اثبات وجود صانع حكيم واجب الوجود للعالم من المبدعات والمخترعات والكائنات والمواليد الثلاثة التي اشرفها نوع الانسان المخصوص بالفس الناطقة والعقل الذى هو منبع شرفه وكرامته ، قال الله تعالى : (لقد خلقنا الانسان فى احسن تقويم) وقال : (فصوركم وأحسن صوركم) وقال : (ثم انشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) وقال تعالى : (ولقد كرّمنا بنى آدم) .

غريزة الشعور الديني

التدين مرتكز على اصل نفساني فطري قائم على اكرم ميول النفس الناطقة وأرقاها في الانسان ، والأديان الالهية كلها قد اعتمدت في الانسان على اصل راسخ من غريزة الشعور الديني — فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم — ودفعته الى الثقة بأن العالم بمجموعة متناسقة تسودها ذات مدبرة حكيمة ترقب النيات وتحكم الضمائر ؛ وان هذه الحياة صائرة الى غاية من المسؤولية والمجازاة ، ولقد صرح علماء تاريخ الأديان بأن الشعور الديني من الغرائز البشرية فانه فطر عليه منذ نشأته الأولى وانه من الخواص اللازمة لطبايعنا البشرية ، ومن المستحيل ان تصور ماهية الانسان دون ان تتبادر الى اذهاننا فكرة الدين ، وان غريزة الشعور الديني هي التي دفعت عقل الانسان الفطري السليم الى التفكير في مبدء حياته ومصيرها ، وساقته الى التعبد والخضوع للأديان الالهية المتوافقة في الجوهر الديني الثابت الخالد المتكون من الايمان بالمبدء والمعاد ، والمتخالفة في الصور والأشكال حسب اختلاف استعداد البشر لغرض تدرجه في مدارج الارتقاء الى كماله الممكن .

(المثل الاعلى للدين)

إن الله تعالى شأنه شرع دين الإسلام لعباده بعد تهيئتهم للكمال الدائم بواسطة الشرايع السماوية السابقة ، نعم ترقى الأقوام البشرية جيلا فجيلا

وكان لها في كل مرحلة من مراحل سيرها دين يناسب قوما منها ، حتى إذا
 بلغت الإنسانية رشدًا واستعدت لقبول أحسن الصور الدينية وأرقاها
 إقتضت حكمة الله عز وجل ضرورة لزوم التحول في وسائل ارتباط جميع
 الأقسام البشرية عامة أن يبعث الله خاتم أنبيائه عليه السلام في مركز الشرق المتوسط
 الذي كان بمثابة قلب العالم المعمور حينئذ بدين الإسلام العام الخالد الذي هو
 المثل الأعلى للدين ، لكي يجمع به مجموعة الأقسام البشرية كافة تحت راية
 إلهية واحدة ، فكان ديناً وسطاً عرف لكل من الجسم والروح حقه ،
 وبنت أحكامه على الاعتدال من غير إفراط ولا تفريط ، وكان نظاماً
 إلهياً كاملاً وكافياً لتحقيق السعادة المزدوجة لنوع الإنسان في الدارين والفوز
 في النشأتين ، وكان نشوء الإسلام وإرتقائه بسرعة خارقة هو المثل الأعلى
 لناموس النشوء والارتقاء ، قال الله عز وجل : « إن الدين عند الله
 الإسلام ، وقال تعالى : (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً) على
 نهج القضية الحقيقية الشاملة لجميع الأفراد المحققة وجودهم والمقدرة وجودهم
 إلى آخر الدنيا ، فالإسلام يمتاز عن سائر الأديان الإلهية بإستجماعه عناصر
 الخلود وعموم الدعوة وإستهدافه سعادة الدنيا والآخرة لنوع البشر ، فلقد
 أسست تعاليمه الأصلية - أي أصول الدين - على صرائح العقول الفطرية
 السليمة عن شوائب الأوهام ، فلا ينكر العقل أصلاً منها إلا إذا انحرف
 العقل عن الفطرة ، أو وقع تحريف في الأصل ، وقد ثبت في العلوم الطبيعية
 أن المحيط لا يمكن أن يحدث تغييراً في العقل نعم يمكن أن يحدث نضوجاً
 وكالاً فيه ، فلذلك إن يتغير حكم من الأحكام التي إستقل العقل بها ما
 دامت الدنيا باقية ، فليس من الممكن إلى الأبد تغيير في أصل من أصول دين
 الإسلام المقررة طبق حكم العقل السليم .

وكذلك أسست تعاليم الاسلام الفرعية على مقتضيات الفطرة والغرائز الطبيعية في الانسان التي تثبت في كل زمان وتصلح لكل قوم ، ولا شك في أن العقل والطبيعة لازمان ذاتيان لوجود كل فرد من الانسان على إختلاف عناصره ومن الممتنع زوال كل واحد منهما الى آخر الدنيا وهذا هو السر الالهي في كون الاسلام ديناً عاماً وخالداً وصالحاً لكل عصر وزمان وموافقاً لكل أمة ، ولا يقبل النسخ ما دامت الفطرة الانسانية موجودة وباقية في الدنيا وهو ناسخ ومكمل لما سبقه من الأديان ، ويؤيده أن في مرحلة إمتثال الأحكام الشرعية المقررة لأفعال المكلفين قد روعي إستلهاهم طبيعة المكلف ومزاجه والاكتفاء بما يلائمهما ، فشرب الشاي مثلاً مباح في نفسه ، وقد يحرم إذا كان مضرراً ، وقد يجب إذا انحصر فيه علاج مرض ، وقد يكره إذا كان مؤثراً في مناعة المزاج بحيث يعجز عن مكافحة جراثيم الامراض حين المصادفة ، وقد يستحب إذا كان مفيداً في علاج مرض ولم ينحصر العلاج فيه ، وكذلك الحال في العبادات ايضاً ، فقد جعل للصلوة التي هي عمود الدين ومعراج المؤمن كفيات متعددة تختلف بحسب اختلاف احوال المكلفين من القدرة والعجز والصحة والمرض والضرر والحضر والسفر وأمثالها ، وجاز افطار صوم رمضان إذا كان مضرراً ثم القضاء بعد زوال الضرر والمرض .

قال شيخنا الانصارى قدس سره في مسألة استحباب التفقه في مسائل التجارات ما نصه (ثم انه لا اشكال في ان كلا من طلب العلم وطلب الرزق ينقسم الى الاحكام الاربعة أو الخمسة ، ولا ريب أن المستحب منها لا يزاحم الواجب ، ولا الواجب الكفائي الواجب العيني الخ) ، ويناسب المقام توضيح الفرق بين أسرار تشريع الاحكام الشرعية وبين حكمة التشريع

وعلل الأحكام (وملخصه) أنه قد قرر أن الجهة الغير المطردة انما تصلح أن تكون حكمة لتشريع حكم مطرد اذا كانت نوعية فيكون اشتغال شيء في نوعه على تلك الجهة مقتضياً لتشريع حكم مطرد على ذلك النوع ، كما لو فرض كون النبيذ مسكراً في نوعه موجباً لتحريمه ، أو كان ما يشتمل على تلك الجهة بحيث لا يتميز عما لا يشتمل عليها في نفس الأمر ولا يضبط نوعه ويكون كالاختياط في موارد الشبهة مصادفاً تارة وغير مصادف أخرى من دون ضابط في البين ، كما في تداخل الأنساب بالنسبة الى تشريع العدة ، وحينئذ تصلح الجهة الغير المطردة أن تكون ملاكاً لتشريع حكم مطرد ويكون مناط الحكم في (الأول) هو الجهة النوعية المحفوظة في النبيذ مثلاً ولو مع عدم فعلية أسكارها ، و(في الثاني) . هو امكان الاشتغال على تلك الجهة بحسب العادة ، ويكون امتناع التوصل إليها الا باطراد الحكم هو مناط اطراده في الحقيقة ، فهذا القليل من العلل الشرعية التي ينقصها الاطراد والانعكاس مع الحكم يقال في مصطلح الفقه (حكمة التشريع) فما ورد من علل الأحكام اذا كان بياناً لحكمة تشريعية فلا تكون مطردة ولا منعكسة ، وأما اذا كان تعليلاً للحكم بمنطاه فهو في اصطلاح الفقهاء (علة الحكم الشرعي) فان كان ما علل به الحكم بعنوانه الشامل للمورد وغيره هو موضوع الحكم النفس الامري ، وكان وروده على المورد بتوسط انطباقه على ذلك العنوان ، والتعليل به للدلالة على ذلك ، كان من قبيل الواسطة في العروض ، وحينئذ تكون العلة المنصوصة في قوة الكبرى الكلية الشاملة للمورد وغيره بجامع واحد ، ويكون التعليل بها من قبيل الاحتجاج بالأوسط في ثبوت الأكبر للأصغر ، ومنحلاً الى قياس بصورة الشكل الأول ، وكان الحكم المعلل جارياً من القياس المذكور مجرى

النتيجة ، كما في (العالم حادث لأنه متغير) فيدور الحكم مداره وجوداً أو عدماً وتكون مطردة بعمومها ومنعكسة بمفهوم التعليل ، بخلاف ما اذا كان واسطة في الثبوت ، فإن مرجع التوسط في الثبوت الى كون الواسطة هي الجهة المقتضية لموضوعية الموضوع لحكمه ، ومقتضاه دخل خصوصية المورد اما في عليّة العلة ، أو في معلولها . أو فيهما جميعاً ، فلا يبقى مجال لأن تطرد وتكون واسطة للثبوت في غير المورد ايضاً الا بدليل آخر يدل على ذلك ، لا نفس هذا التعليل والا لزم الخلف ، وأما انعكاسها فينحصر فيما كان شمول الحكم لأحاد وجودات موضوعه تابعاً للإشتمال على علته ، وأما العنوان العام الشامل لجميع الأقسام فهو عبارة (أسرار التشريع الاسلامي) التي تندرج فيها الجهات المطردة والمنعكسة التي هي علل الأحكام الشرعية وغيرها التي هي حكمة التشريع .



(المطلب الثالث)

قال الله تعالى شأنه : (إني خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين) إعلم أن الإنسان إنما إمتاز من سائر انواع الحيوان بتركيبه التعلقى من البدن والروح أى النفس الناطقة المتعلقة بالبدن ، وهى باعتبار إدراكها الكليات عقل ، ولا يخفى أن النفس كالحياة عجز العلم الطبيعى عن فهمها ، ولا يعرفهما غير خالقهما (أفلا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) .

ويتجلى فى كيان تركيب الإنسان الإرتباطى صنع الله الدقيق المعجز فقد مزج بين الجسم المادى وبين النفس المجردة عن المادة ذاتاً المتعلقة بالبدن مزجاً إرتباطياً راسخاً نشأت منه صورة وحدانية قائمة على مجموع الروح والعقل والجسم من حيث هى مترابطة على نحو الإتحاد التعلقى ، وهى منبع خواص الإنسان ومزاياه الخارقة وإستعداده لبلوغ الكمال الأعلى ، وقد بلغ تعلق النفس بالبدن وإرتباطه بها الى درجة من الشدة والإستحكام تقضى بأن جسم الطفل ينمو ويزداد حجمه فكذلك يزداد معه النمو المعنوى التجردى لنفسه الناطقة ويزيد إدراكها العقلى فى ناحيتى النظر والعمل حسب المراحل المتناسبة متدرجاً من مرتبة الإستعداد والعقل الهولانى الى درجات العقل بالملكة ثم العقل بالفعل ثم العقل المستفاد ، وهذه هى الفطرة الإنسانية (فطرة الله التى فطر الناس عليها) فتكامل النفس الناطقة مرتبط بتكامل البدن لأنها وإن كانت مجردة عن المادة ذاتاً لكنها محتاجة فى العمل والتأثير الى

آلات مادية هي جوارح البدن الذى تعلقت به وقواه التى هي قوى النفس ، فانها فى وحدتها كل القوى ، ولا يمكن انفصال بعضها عن بعض آخر فى التكامل والأفعال والنتائج ، وكذلك لكل من الروح والبدن والعقل ، حاجات مترابطة لا يفصل بعضها من بعض فى واقع الحياة بل مجموع واحد فى كيانه ومطالبه ، وبهذا الاتحاد تتحقق للانسان خلافة الله فى الارض المشار اليها بقوله تعالى : (انى جاعل فى الارض خليفة) .

وهذا هو السر فى أن الاسلام الذى هو دين الفطرة لا يفصل فى تشريعاته بين الجسم والروح والعقل ، بل يأخذها مترابطة ، ويرسم لها دستوراً على ذلك المتحد ويجارى الفطرة فى تركيبها المجموعى ، ويعالج حاجات النفوس وحاجات العقول وحاجات الأبدان فى وقت واحد ، ويشمل تشريعه الكيان البشرى من جميع جوانبه المترابطة على نحو الاتحاد ، ويساير الفطرة الى أبعد الحدود ، وبهذه الميزة امتاز الاسلام بالتشريع الكامل للكيان المتكامل ، المسجل فى الفقه الاسلامى ، وكل ما يعالج به حاجات الجسد من أحكام أو قوانين أو أنظمة أو أعمال فهو مفيد فى علاج الروح أيضاً ، فتشريعاته الأرضية الخالصة من زواج وإرث وتنظيم اقتصادى وحرب وسلام وسياسة وإدارة ونحوها كلها تقوم على أساس العقيدة مرتبطة بها ارتباط الجسد بالروح والعقل ، وكلها جاءت فى القرآن ممتزجة بالنسبة الى الله عز وجل وخشيته وتقواه ، بل كل عمل صالح يتجه به الانسان الى الله ويقصد به التقرب الى الله فهو فى عرف الاسلام عبادة بمعناها الأعم ، وانما الأعمال بالنيات حتى أن الأكل والشرب بقصد التقوى لعبادة الله مقدمة لعبادة الله التى هي وسيلة لإصلاح النفوس وتهذيبها ، وكذلك كل ما قرره الاسلام لعلاج حاجات الروح من التوجيهات الروحية الخالصة والعبادات بالمعنى الأخص وهي التى

لا تصح الا بقصد التقرب بها الى الله تعالى كالصوم والصلوة ونحوهما فهي مفيدة في علاج حاجات الجسد ايضاً ، ففي الحديث (صوموا تصحوا) والصوم عبادة دينية تعبدية توقيفية يقصد بها التقرب الى الله تعالى بترويض النفس والجسد لرفع الانسان بروحه من حضيض الحيوانية الى ارفع مقام أدبي ومعنوى يليق بكرامته الانسانية ، وتبعث في المسلمين لغة الاحساس التي بها تنبعث من صميم نفس الصائم عاطفة ليست في طوق اللغة ولا يغني في تذوقها الوصف فتخلق في النفوس عناصر الشفقة والرحمة والرأفة والايشار الى جانب قوة الارادة ورباطة الجأش وعناصر الرجولة والتدريب على الخشونة والقدرة على مغالبة الشهوات ومكافحة الأهواء ، ومن خواص الصوم صحة البدن والمزاج وهي تحصل به من دون قصدها به ، فان الصوم بقصد الحمية لصحة البدن باطل ، فالعبادة الاسلامية التي تقع بقصد التقرب الى الله والاخلاص ليست فائدتها مختصة بالروح وانما هي انطلاقة روح وحركة عقل وحركة جسم ، وتظهر هذه الحقيقة بوضوح في الصلوة التي تقام للتقرب بها الى الله تعالى والاخلاص له فقط ، وهي معراج المؤمن وعود الدين ، والسرت في جميع ذلك أن الدين الإسلامي مؤسس على واقع الفطرة الإنسانية قال الله تعالى : (فطرة الله التي فطر الناس عليها ذلك الدين القيم) وأن حياة الإنسان الجسدية لا تنفصل من حياته الروحية والعقلية ، ومشاعره الروحية لا تنفصل عن واقعه المادى ، وتفكيره العقلى مرتبط بالجميع ، وتشريعات الإسلام كلها من العبادات والمعاملات وأنظمة الحياة مفيدة للروح ومفيدة للجسد ، ولذلك أصبحت تعاليمه في العبادات والمعاملات وأسالبيه في التربية والتعليم والأخلاق وأنظمته في الإقتصاد والحقوق والإجتماع وغيرها متناسقة ومتآلفة لدرجة الإعجاز ، وبهذا

إمتازت تعاليم الإسلام عن البحث العلني المتخصص بطبع الإنسان وجسمه ونفسه عليحدة مع إيهام الباحث أن البحث عن الإنسان ، والحال أن الإنسان مجموعها المترابط بلا انفصال .

وبهذا يمتاز التشريع الإسلامى أيضاً عن تشريعات الدين العيسوى المخصوصة بحاجات الروح فقط ، وعن تشريعات الدين الموسوى المحصور فى نطاق الجانب المادى فقط من كيان الإنسان .

فظهر من هذا البيان الموجز أن الإسلام (دين) إلهى عام خالد يصل الإنسان بربه ، و (شرع) قويم ينظم علاقات الناس بعضهم ببعض ، و (أخلاق) سامية ترفع الإنسان الى أسمى غاية من مراحل الكمال و(سياسة) سماوية تحدد صلات المسلمين بغيرهم من الأمم ، ويشمل كل شأن من الشؤون الدنيوية الخاصة والعامة والعالمية كما ينير أمام المسلم السبيل فى كل ما يتعلق بالأمور الدينية الأخروية ، ثم هو بعد ذلك عقيدة وعبادة يتقرب بها الى الله تعالى ، وهو لا يعرف الفوارق الاقليمية والشعوبية ، وهو يمزج بين السلطتين الدينية والدنيوية بحيث يشملهما الدين الاسلامى جميعاً ، وهو دين الفطرة ودين الطبيعة ، ولذلك قرر فى تعاليمه كل ما تتطلبه طبيعة الانسان بصفة أنه مدنى بالطبع ، من أنظمة إجتماعية ، وأخلاقية وتربوية وإقتصادية وحقوقية وجزائية وحرية وإدارية وسياسية ، كما قرر المثل العليا لأصول العقيدة والمبادئ والعبادات وسائر ما تتطلبه نفسه وروحه وعقله على جانب ما تتطلبه جسمه .

ولو أدرك الناس كافة روح الاسلام وفقهوا كنه ما يرمى اليه لما بقى على وجه الأرض من يدين بدين آخر ، لأنه مطلوب كل روح ، ومرمى

كل قابلية ، وأنشودة كل استعداد ، ومطمأن كل إحساس ، ومنتهى كل عقل من معنى الدين والايمان ، وهو لم يكلف الانسان من العقائد والمبادئ إلا بما لو ترك وشأنه لتعلق به من نفسه لأنه نتيجة قوى عقله وعواطفه وغرائزه وفطرته .

ولولا أن الاسلام دين ينطبق على كل قابلية واستعداد ويلائم كل عقل وعاطفة وإحساس لما كلف الخالق العادل به جميع خلقه ، ولما جعله ديناً خالداً لا ينسخه دين الى يوم الدين .

(•)

(المطلب الرابع)

للإسلام في أصول الدين مذهب واحد ، فإنه خوّل العقل الفطري السليم عن شوائب الأوهام كامل سلطانه ولم يشترط للنظر العقلي وجهة معينة ولم يحده حداً مخصوصاً مقررأ ، بل ترك العقول السليمة حرة لبلوغ الحقيقة المجردة في العقائد وفي عالم الوجود والتكوين من مبدء وجود العالم الى مصيره ونهايته (أى معرفة المبدء والمعاد) حسبما تتطلبه غريزة الشعور الديني في الانسان ، وهذا التخويل إن شوهده في الفلسفة والحكمة والعلم وكان من مقوماتها وهو الذى ضمن لها الاحترام العام والحظوة بالخلود ودوام الارتفاع ، فلم يشاهد قط في دين من الأديان ما عدى الاسلام فانها وضعت للنظر في أمور الدين والعقائد تقاليد لا يمكن تعديها بوجه من الوجوه ، حتى قال بعض الباحثين في الأديان : (تقرأ قاموس الكتاب المقدس فلا تجد فيه كلمة العقل ولا ما فى معناها من أسماء هذه الغريزة البشرية المميزة للإنسان عن سائر الحيوان كاللب والنهى ، لا لأن هذه المادة لم تذكر فى كتب المهديين مطلقاً بل لأنها لم ترد فيها أساساً لفهم الدين ولا دلائله والاعتبار به ، ولا أن الخطاب موجه اليه وقائم به وعليه ، وكذلك ألفاظ التفكير والتدبر والنظر فى العالم التى هى من أعظم وظائف العقل) .

وبهذا الامتياز المخصوص بالاسلام تندمج أصول هذا الدين الحنيف من طريق العقل فى روح الأمم من مختلف عناصر البشر فتتوحد ميولها الدينية الأصلية على جانب ميولها العلمية والفلسفية ، لأن مصدر الجميع هو العقل ، ويندفعون بذلك نحو الطاعة الحقيقية لأوامر الله ونواهيهِ فى جميع

حركاتهم وسكناتهم ؛ فتدوم الصلة بين دين الاسلام وبين العلم والفلسفة وتترسخ عقيدة الناس كافة بشريعة الاسلام في الاصول والفروع رغم جميع التطورات المقدره لهم والرقى الذى ينال عقولهم الى الابد ، ويشهد بذلك أن إعتقاد الاسلام على العقل هو الذى حفز المسلمين الى الجد فى تحصيل العلوم والتنقيب عن المعارف والى وضع الفلسفة الاسلامية وكثير من العلوم وإبداعها وإنشائها .

وأما فروع دين الاسلام فلها أساس واحد وهو ما جاء فى كتاب الله الكريم وسنة رسوله ﷺ ولها هدف واحد مقصود لشارع الاسلام فى جميع الأحكام الشرعية ، وهو تربية الفطرة الانسانية وإقامتها على طريق التكامل فى توحيد شعوبها فى الغرائز الفطرية والميول الجبلية ووصولها الى السعادة فى الدنيا والآخرة .

وأما الاختلاف فى الاجتهاد وفى طريق الاستنباط وتخريج الأحكام الشرعية عن أدلتها الدينية لغرض الوصول من أقرب الطرق وأوثقها الى واقعها لتحصيل الهدف الشرعى المقصود للشارع فلا بأس به ما لم يخرج عن حدود تعاليم الكتاب والسنة بالركون الى رأى البشرى والى القياس الوهمى والاستحسانات الفارغة التى تضييع الاسلام وتضييع المسلمين معه .

فمن الغريب ترحيب بعض المذاهب الإسلامية بالخلافات الخارجة عن حدود كتاب الله وسنة رسوله ﷺ حتى جعلوا الخلافات علماً أسموه (علم الخلاف) فكانوا يتدارسون كما يتدارس (أصول الفقه) لتحصيل

ملكه السريان العقل والوهى فى سرائر المسائل المعقدة ، وسرى
الترحيب بهذا الخلاف الى عوامهم أيضاً فقالوا : (إختلافهم رحمة)
فإنا لله وإنا اليه راجعون .

وهذا القسم من الخلاف هو الذى أراده أمير المؤمنين عليه السلام بقوله :
« ترد على أحدهم القضية فى حكم من الأحكام فيحكم فيها برأيه ، ثم
ترد تلك القضية بعينها على غيره فيحكم فيها بخلافه ، ثم يجتمع القضاة بذلك
عند الإمام الذى إستقضاهم فيصوب آرائهم جميعاً ، وإلهمم واحد ونيبهم
واحد وكتابهم واحد ، أفأمرهم الله تعالى بالإختلاف فأطاعوه ؟ أم نهاهم
عنه فعصوه ؟ أم أنزل الله ديناً ناقصاً فاستعان بهم على إتمامه ، أم كانوا
شركائه فلمهم أن يقولوا وعليه أن يرضى ؟ أم أنزل الله سبحانه ديناً تاماً
فقصر الرسول صلّى الله عليه وآله عن تبليغه وأدائه ؟ والله سبحانه يقول : (ما فرطنا
فى الكتاب من شيء) وقال : (فيه تبيان كل شيء) وذكر أن الكتاب
يصدق بعضه بعضاً ، وأنه لا إختلاف فيه فقال سبحانه : (ولو كان
من عند غير الله لوجدوا فيه إختلافاً كثيراً) وإن القرآن ظاهره أنيق
وباطنه عميق لا تنفى عجائبه ولا تكشف الظلمات إلا به .

وأما إختلاف الإجتihad عند الإمامية الإثنا عشرية القائلين بفتح باب
الإجتihad لزوماً فقائده تشخيص أقرب الطرق الشرعية الموصلة الى واقع
الحكم الشرعى والى أهداف الكتاب والسنة وواقع الغرض الشرعى ، ولقد
رحب الإسلام بهذا الإجتihad لثقته بأن ما أبهم على واحد فى أمر من

الأمور قد ينكشف لآخر ، وما إستعصى على ناظر من الباحثين قد ينقاد
لغيره ، فلا يحرمون من مزايا الإجتهد في تصيد الحقائق الدينية وهى من
السعة بحيث لو تجرد الناس كلهم للبحث عنها لما كانوا مغالين فى ذلك ، وشجع
الكافة على الحصول على هذه الدرجة ولم يسد على أحد مجال الجهاد فى ناحية
الإجتهد ، ولم يخص الاجتهاد بجنس أو صنف واحد ولكن فتح مجاله حتى
أمام الأرقاء والموالى ومن فى حكمهم ، وهذا ما لم يسجله دين لأهله من
سعة الصدر الى اليوم ، وبما يجب أن يدوّن لهذا الدين من المفاخر الخالدة
فى هذا الباب تقريره أن المجتهد يوجر وإن أخطأ ، فهذا الأصل الاسلامى
يعتبر من أفعل المنشطات لأعمال العقول وتبارى الروايات فى فهم الكتاب
والسنة اللذين اليهما ترجع سائر أدلة الفقه ، ويدل على أن مقصد هذا الدين
الوصول الى الحقائق العالية لا الانحصار فى دوائر ضيقة والجمود فيها فيجىء
ناموس الرقى فيدفعهم للخروج منها فيوقر فى نفوسهم أنهم خرجوا على
الدين ويكون التنازع فى صدورهم مثاراً لشبهات وشكوك لا تقف بهم
عند حد ثم يؤل أمرهم الى نبذ الدين ظهرياً .

(المطلب الخامس)

إعلم ان تاريخ الفقه الاسلامى مساوق لتاريخ التشريع الاسلامى ، ومبدئه بعثة خاتم الأنبياء عليه السلام ونزول القرآن والوحى عليه ، وكان تكامله تدريجياً حسبما تقتضيه سنة الله فى التكوين والتشريع من حكمة التدرج على ناموس الارتقاء حتى بلغ أقصى غاية الكمال فنزلت الآية الشريفة (اليوم أكملت لكم دينكم الخ) بيد أن الفتن والحوادث التى غيرت وجه التاريخ الاسلامى العام غيرت أيضاً وجه تاريخ الفقه الاسلامى ، وروعى فى التشريع الاسلامى ما قرره العقل المستقل من أن الانتقال من الافراط فى المادية التى هى روح الشرك الى التوسط والاعتدال اللذين بنى الاسلام عليهما يتطلب توسط التفريط لى يحصل التوازن ، فاهتم الاسلام فى بدء التشريع بالعبادات التوقيفية كالصلوة وسائر ما يختص بأمر الآخرة والروح لتثبيت عقيدة التوحيد التى هى أساس أركان الاسلام ، وهى المؤدية الى الاعتقاد بالمعاد ، وتأجلت التشريعات الزمنية وما يعود الى شئون الحياة وامور الدنيا التى هى مزرعة الآخرة ، الى حين اللزوم فيما بعد الهجرة الى المدينة ولذلك فى العصر الاول وفى صدر الاسلام كان يطلق إسم الفقه على علم الآخرة ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الأعمال ومصالحاتها وقوة الاحاطة بحقارة الدنيا وشدة التطلع على نعيم الآخرة واستيلاء الخوف من الله على القلب ، ومكارم الاخلاق ، نعم نشأ الفقه الاسلامى فى زمن صاحب الرسالة وهو الزمن الذى نشأت فيه الشريعة الاسلامية وأنشئت الأحكام الالهية ، مع العلم بأن شريعة الاسلام بنيت على رعاية مصالح العباد فالتشريع

المكي يحمل قلما يتعرض القرآن فيه لأحكام تفصيلية ، وأما التشريع المدني فقد عرض القرآن فيه لكثير من التفصيلات لا سيما ما يتعلق بالمعاملات وأمور الحياة وشئون الدولة الإسلامية ولذلك ترى أن معظم آيات الأحكام الفرعية مدنية ، وليس في المكي من الأحكام الا ما يقصد به حماية العقيدة كتحريم ما لم يذكر اسم الله عليه من الذبائح .

وأما تدوين علم الفقه فأوّل من دوّن علم الفقه الاسلامي هو علي بن ابي طالب عليه السلام أملاه رسول الله ﷺ وخطه على عليه السلام على صحيفة وفيها كل حلال وحرام وجميع تعاليم الاسلام ، واسمها (الجامعة) ففي اصول الكافي كتاب الحجة ، باب ذكر الصحيفة والجفر والجامعة ومصحف فاطمة عليها السلام عن بكر ابن كرب الصيرفي قال : سمعت ابا عبد الله عليه السلام يقول : (ان عندنا ما لا نحتاج معه الى الناس وان الناس ليحتاجون الينا وان عندنا كتاباً أملاه رسول الله ﷺ وخط على عليه السلام صحيفة فيها كل حلال وحرام .

وفي الحديث الأول من الباب المذكور عن ابي بصير قال : دخلت على ابي عبد الله عليه السلام فقلت له جعلت فداك اني استلك عن مسئلة هيمننا أحد يسمع كلامي ؟ قال : فرفع ابو عبد الله عليه السلام ستراً بينه وبين بيت آخر فاطلع فيه ثم قال : يا ابا محمد سل عما بدالك ، قال : قلت : جعلت فداك ان شيعتك يتحدثون ان رسول الله ﷺ علم علياً عليه السلام بابا يفتح منه ألف باب ، قال : فقال : يا ابا محمد ، علم رسول الله ﷺ علياً عليه السلام ألف باب يفتح من كل باب ألف باب ، قال : قلت : هذا والله العلم ، قال : فنكت ساعة في الأرض ثم قال : انه لعلم وما هو بذلك قال : ثم قال : (وعندنا الجامعة) وما يدريهم ما الجامعة ، قال : قلت : جعلت فداك

وما الجامعة ؟ قال : (صحيفة طولها سبعون ذراعاً بذراع رسول الله ﷺ وإملائه من فلق فيه وخط على ﷺ يمينه ، فيها كل حلال وحرام وكل شيء يحتاج الناس إليه حتى الأرض في الخدش ، وضرب بيده إلى فقال : تأذن لي يا أبا محمد ؟ قال : قلت : جعلت فداك إنما أنا لك فاصنع ما شئت قال : فغمزني بيده وقال حتى أرش هذا ، كأنه مغضب ؛ قال : قلت : هذا والله العلم الخ) .

وفي الحديث الرابع عشر من باب البدع والرأى والمقاييس من كتاب فضل العلم من الجزء الأول من أصول الكافي عن أبان عن أبي شيبه قال : سمعت أبا عبد الله ﷺ يقول : (ضلّ والله ابن شبرمة عند الجامعة إملاء رسول الله ﷺ وخط على ﷺ بيده ، أن الجامعة لم تدع لأحد كلاماً ، فيها علم الحلال والحرام ، أن أصحاب القياس طلبوا العلم بالقياس فلم يزدادوا من الحق إلا بعداً ، أن دين الله لا يصاب بالقياس) . ولعلّ ﷺ صحيفة أخرى في الديات كان يعلقها بقراب سيفه ، وقد نقل البخاري منه في كتابه (الجامع الصحيح . المجلد الأول . باب كتابة العلم ، وفي المجلد الرابع . باب أثم من تبرء من مواليه) .

ثم ألف أبو رافع القبطي مولى رسول الله ﷺ كتاب (السنن والأحكام والقضاء) واسمه إبراهيم ، وقيل : أسلم ، ثم ألف علي بن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ كتاباً في فنون الفقه ، الوضوء ، والصلاة وسائر الأبواب ، وتفقه على أمير المؤمنين علي ﷺ وجمعه في أيامه وكان من خواصه وكتبه ، وكانوا يعظمون هذا الكتاب ، ولثابت بن هرم (كتاب جامع في الفقه) جمعه عن إملاء الإمام زين العابدين ﷺ ، ثم انتشر علم الفقه وشاع تدوينه في الكتب في عهد الصادقين عليهما السلام (منها)

كتاب (جامع أبواب الفقه) لعلی بن ابی حمزة سالم البطائنی ، من تلاميذ
الامام الصادق عليه السلام و (منها) كتاب مبوب في الحلال والحرام ، لبراهيم
ابن ابی يحيى المدني الاسلمى المتوفى سنة (١٨٤) عن املاء الصادق عليه السلام ،
و (منها) كتاب (شرايع الايمان لمحمد بن معافى بن جعفر ، و (منها)
كتاب (الفقه والاحكام) لبراهيم بن محمد الثقفى ، و (منها) كتاب
(الجامع في أبواب الفقه) للحسن بن على بن محمد النجبال ، وكتب اخرى
مفهرسة في كتب الفهارس ، كتاب فهرست الشيخ ابی جعفر الطوسى ،
وفهرست ابی العباس النجاشى ، وفهرست ابی الفرج ابن النديم ، ورجال
العقيلي ، وابن الغضائرى ، وغيرهم . ولا يخفى ان الفقه نشأ على اسلوب
شنيه بمتون الروايات مرتب على أبواب بتقديم الأهم فالأهم مع ذكر
الأدلة الشرعية .

وينبغى التنبيه على أن الأحكام المنسوبة الى الشرع منها ما يتعلق بالعمل
من دون واسطة وتسمى فرعية ، ومنها ما يتعلق بالإعتقاد وتسمى أصلية ،
وإعتقادية ، وكانت الأوائل من العلماء ببركة حجة النبى ﷺ وقرب
العهد بزمانه وسماع الأحاديث والأخبار من الأئمة الأطهار عليهم السلام
ومشاهدة الآثار مع قلة الوقائع والإختلافات ، وسهولة المراجعة الى الثقات
مستغنين عن تدوين الأحكام وترتيبها أبواباً وفصولاً ، وتكثير المسائل فروعاً
وأصولاً ، الى أن اتسعت رقعة المملكة الإسلامية ودخلت أمم شتى من
مختلف عناصر البشر في حظيرة الإسلام وظهر اختلاف الآراء والميل الى
البدع والأهواء ، وكثرت الفتاوى والواقعات ومست الحاجة الى زيادة نظر
والثقات ، فأخذ أرباب النظر والاستدلال فى استنباط الأحكام وبذلوا
جهودهم فى تحقيق عقائد الإسلام ، وأقبلوا على تمهيد أصولها وقوانينها

وتلخيص حججها وبراهينها ، وتدوين المسائل بأداتها ، وأطلقوا على العلم بها اسم (الفقه الأكبر) لأن الفقه معرفة النفس ما لها وما عليها ، ولا يشتماله على جميع تعاليم الإسلام من أصلية وفرعية بأقسامها من عبادات وأحكام ومعاملات وأخلاق وحقوق واجتماع واقتصاد وتربية وتعليم ونحوها ، ثم انتشر الاسلام سريعاً واتسعت الأمصار وتفرقت الصحابة في الأقطار ، واختلط العرب بالعجم ، ففسدت فيهم ملكة اللسان ، وفشى اللحن وحدثت الفتن ، واختلفت الآراء وكثرت الفتاوى في مسائل الدين فخافوا على القرآن أن يستغلق فهمه ويصعب استنباط الدين منه فاضطروا الى تدوين شيء من العلوم اللسانية التي تساعد على حفظ اللغة وبقاء القرآن مفهوماً ويحفظون به لسانهم ودينهم ، ولم يتعد ذلك قواعد النحو والصرف ومتن اللغة والبلاغة وبعض الأحاديث وأقوال طائفة من فقهاء الصحابة في التفسير وجرت ريح العلم هكذا رخاءاً في صدر الاسلام ، ثم أخذت على ناموس الارتقاء فاشتد الاقبال على الدرس والتحصيل وراجت بضاعة التدوين والتأليف في العلوم الاسلامية وهي ، علوم ، التفسير ، والقراءات ، والحديث ، والفقه ، وأصول الفقه ، والفرائض ، والجدول الكلام ، وأفردوا العقائد الأصلية بالتأليف وخصّوه باسم (علم التوحيد والصفات) لغرض تسهيل التعليم والتعلم ، ثم أسمّوه باسم (علم الكلام) لأن مباحثه كانت مصدرة بقولهم : (الكلام في كذا) ولأنه يورث قدرة على الكلام في تحقيق الشرعيات كالمنطق في الفلسفيات وقالوا في تعريفه : (الكلام هو العلم بالعقائد الدينية عن أدلتها اليقينية ، ثم أطلقوا على معرفة الشرعيات الفرعية اسم (علم الفقه) وقالوا في تعريفه : (الفقه هو العلم بالأحكام الشرعية الفرعية عن أدلتها التفصيلية) ثم اتسع سلطان المسلمين في القارات

ودانت لهم الممالك العظيمة وفرغوا من وضع علوم الدين واللغة فتاقت
 نفوسهم الى الاشتغال بعلوم الامم المتمدنية قبلهم فنقلوا الى لسانهم معظم
 ما كان معروفا عند الامم الراقية في ذلك العهد ، ولم يغادروا لساناً من السنة
 تلك الامم من غير أن ينقلوا منه شيئاً وان كان اكثر نقلهم من اليونانية
 والفارسية والهندية ، فأخذوا من كل امة أحسن ما عندها ، فكان
 اعتمادهم في الفلسفة والطب والهندسة والمنطق والاخلاق والنجوم على
 اليونان ، وفي الطب والعقاقير والحساب والنجوم والافاصيص على الهنود
 وفي الفلاحة والزراعة والتنجيم والطلاسم على الأثياط والكلدان ، وفي
 الكيمياء والتشريح على الفرس ، فكانهم ورثوا أهم علوم الآشوريين
 والبابليين والفرس والهنود واليونان ، فأخذوا في النظر والتلخيص والشرح
 حتى إذا كسبوا ملكاتها أخذوا يتدبرون كل علم يدرسه منها ويحققون
 مسائله بكل ما أوتوه من قوة عقل وصحة فهم ، وثقافة اسلامية . وقد تمكنوا
 بذلك من اصلاح كثير من الأغاليط التي أحدثتها الترجمة ، وكذلك الأغلاط
 التي وقعت لليونان أنفسهم واستطاعوا أن يضيفوا الى هذه العلوم الدخيلة
 آراءاً مبتكرة جديدة وأفكاراً صالحة من عند أنفسهم ، وبذلك دخلوا في
 طور التأليف والتكميل والاختراع ، وقد مزجوا ذلك كله وعجنوه
 واستخرجوا منه على ضوء الثقافة الاسلامية علوم التمدن الاسلامي والفلسفة
 الاسلامية الخالدة التي تعتبر مثلاً علياً لتلك العلوم ، وقد نبغ في كل
 علم منها طائفة كبيرة من علماء المسلمين ، فن الذين نبغوا في الفلسفة
 ابو نصر الفارابي وابن سينا ونصير الدين الطوسي ، ويعقوب الكندي
 والغزالي وابن رشد ، وصدر المتألهين وغيرهم . .
 ومن أراد التفصيل فليراجع الى الجزء الاول من كتاب دروس

الفلسفة ، من تأليفنا .

وحينئذ أفرد بعض العلماء الاخلاق الاسلامية بالتأليف ، ولكن ما كان من مباحث الاخلاق مندجا في المسائل الفقهية أبقوه على شاكلة مسائل علم الفقه في بعض الكتب الفقهية ، مثل كتاب (النخبة) لمؤلفه الفقيه الشهير والمحدث الكبير صاحب كتاب (الوافي) الجامع للكتب الاربعة مع شرح أحاديثها المشكلة ، المحقق الفيض قدس سره وهذا نصه (كتاب الطهارة ، باب التعداد ، الطهارة طهارتان ، طهارة الباطن وطهارة الظاهر ، وطهارة الباطن اما من جريمة الجوارح ، أو ذميمة القلب ، أو شغل السر بما سوى الله ، ثم ان كانت من قبيح فقرض والا فنفل ، وطهارة الظاهر اما من الخبث أو التفث أو الحدث ، ثم ان كانت لواجب مشروط بها فقرض والا فنفل ، الخ) .

(المطلب السادس)

التربية الإسلامية

ولها مراحل :

(المرحلة الأولى)

عنى شارع الاسلام — الذى هو دين الفطرة والطبيعة — بقانون الوراثة الذى هو قانون فطرى وطبيعى تخضع له جميع قوى الانسان وغرائزه ومداركه المادية والعقلية والادبية ، ومآله الى انتقال الصفات النفسية التى للآباء الى المولود ، وانتقال أنواع الشعور التى تتأثر بها الأم الى الجنين ، واليه الإشارة فى قوله تعالى حكاية عن نوح الذى هو ابو البشر الثانى وقام على رأس النوع الإنسانى بعد الطوفان : « رب لا تذر على الارض من الكافرين دياراً إنك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً » ، وقال رسول الله ﷺ :

« تخيروا لنطفكم فان العرق دساس » وقال ﷺ : (إياكم وخضراء الدمن قالوا : وما خضراء الدمن يا رسول الله ﷺ قال : (المرأة الحسنة فى منبت السوء) . ويؤيد كلام أمير المؤمنين عليه السلام فى خطبته أم البنين قانون الوراثة ، وقرر فى الفقه الإسلامى ، أن على المسلم أن يتخير لنطفته وأن يختار البكر العفيفة العاقلة المعروفة بالطهر والعفاف المشهورة بالأخلاق الفاضلة والسجايا النبيلة ، السليمة البدن القوية العضلات المشغوفة بحب

الدين الخفيفة المهر ، وأن يحتنب العقرة الدنسة اللجوجة العاصية الذليلة
في قومها العزيزة في نفسها الحصان على زوجها الهلوك على غيره ، حتى لا
يتعرض لسوء أخلاق أولاده بمعاشرة أمهات خبيثات ، لأن الأم هي
المرية الطبيعية للطفل في سنواته الأولى بل وفي شهور الحمل ومن ساعة
الولادة ، وحتى لا يطغى سيل الشر فتجرح المخالطة الى محاكات الخاطئين ،
فإن قانون الوراثة ناموس طبيعي والوراثة كهربائية خفية تنتقل بتيارها في
مراحل النسل الممتد فيتكون من أثرها شيء في الدم ومعنى في الروح ، إذ
لا شك في أنه ليس في العالم أسلوب من أساليب التربية يستطيع أن يخلق
لفرد ينابيع جديدة لحياة جديدة ، وأن يصبه لوقته في أى القوالب أراد
لأن كل ما له من القوى الراهنة وما هو عليه من القابليات يرجع عهده الى
ميلاده وطفولته وما اكتسبه من ميراث أبويه بل آبائه ومن تقاليد أسرته
وتقاليد قومه ومقتضيات بيئته ، وما طبعته هذه التقاليد الموروثة في صميم
معناه من أسباب الترقى والانحطاط والبقاء والتلاشي ، وكذلك الأمة
المتكونة من هؤلاء الأفراد لا يمكن أن تقطع من ماضيها ويفترض انها
خلقت لساعتها ، لأن في ذلك الماضى مصادر كل القوى التي يراد
إستخدامها لترقيتها وإبلاغها الى غاية مرجوة .

ثم عزز الإسلام قانون الوراثة بأمور إكتشفت العلوم الحديثة أهميتها
في تكوين النسل المرغوب فيه (منها) أن يقول حين همه بالزواج : (اللهم
إني إريد أن أتزوج اللهم فقدر لي من النساء أحسنهن خلقاً وخلقاً وأعظمهن
فرجاً واحفظهن لي في نفسها ومالى وأوسعهن رزقا وأعظمهن بركة ، وقبض
لي منها ولداً طيباً تجعله لي خلفاً في حياتي وبعد موتي) يقولها بعد صلوة
ركعتين والتحميد (و) (منها) أنه يقول حين دخولها عليه : (اللهم على

كتابك تزوجتها وفي أمانتك أخذتها وبكلماتك استحللت فرجها ، فإن قضيت لى منها ولدأ فإجعله مباركاً سوياً ولا تجعل للشيطان فيه شركاً ولا نصيباً (يقول بعد أن يأخذ بناصيتها ويستقبل بها القبلة) و (منها) أنه ينبغي أن يصلى ركعتين ويأمرها ايضاً بذلك ويحمد الله ويصلى على النبي ﷺ ويقول : (اللهم ارزقنى إلفها وودها ورضاها وإجماع بيننا بأحسن إجماع وأيسر إئتلاف فإنك تحب الحلال وتكره الحرام) و (منها) أنه يقول وقت المباشرة : (بسم الله الرحمن الرحيم اللهم ارزقنى ولدأ واجعله تقياً زكياً ليس له فى خلقه زيادة ولا نقصان وإجعل عاقبته الى خير) (وللإنزال) يقول : (اللهم لا تجعل للشيطان فى ما رزقنى نصيباً) .

ولقد ثبت فى العلوم الحديثة أن لأحوال الوالدين وما ينعقد عليه ضميرهما فى حال المباشرة وأثنائها مدخلية عظيمة فى وضع خلقه الجنين وإخلاقه وطبعه ومزاجه ، ومن رزقه الله ذوق الفقاها لا يفوته ان الإسلام يعالج حاجات الجسد وحاجات الروح جميعاً فى آن واحد ، فساعة الجسد الخاصة لا يفصلها الإسلام عن الروح . ان كانت طعاماً أو شراباً فهى باسم الله تعالى وحمده وشكره ؛ والصلة بالله هى صلة روحية وتقرب اليه ، وان كانت متعة جنس حلال - فهى كذلك يأتى بها بأمر الله وبكيفية قررها الله ويقرأ عليها اسم الله ، ثم يثاب ويؤجر عليها لأنها بهذا القصد والنية عبادة بمعناها الأعم ومقربة الى الله تعالى ، وروى عن رسول الله ﷺ انه ﷺ قال : (ان فى بضع احدكم لأجراً . قالوا يا رسول الله ﷺ يأتى احدنا شهوته ثم يكون له عليها اجر ؟ قال ﷺ : (أرأيت لو وضعها فى حرام أكان عليه فيها وزر ؟ فكذلك اذ وضعها فى حلال فله

عليها اجر ، وكذلك ساعة العبادة ليست تهوية روح خالصة وانما هي انطلاقة روح وحركة جسم وحركة عقل وفكر ، وهكذا يتمشى القول في نظم الإقتصاد الإسلامى والإنتاج المادى والتنظيمات الأرضية البحتة لا يعالجها الإسلام منفصلة عن الكيان الروحى فى مجموعه ، فلا يعترف بأن هناك قوانين اقتصادية منقطعة عن الصلات الروحية والنفسية ، أو ان هناك قوانين مادية لا تتصل بقوانين الروح والاخلاق ، ولذا لا ينافى الإقتصاد الإسلامى مع الاخلاق الإسلامية ؛ وتشريعاته الأرضية الخالصة من زواج وطلاق وارث وتنظيم اقتصادى وسلام وحرب وسياسة ونحوها كلها تقوم على اساس العقيدة مرتبطة بها ارتباط الجسم بالروح والعقل ، وكلها تنجىء فى القرآن والسنة متميزة بالتوجيه الى الله وخشيته وتقواه ، وتوجيهاته الروحية الخالصة أى العقيدة والمعرفة والعبادة بمعناها الأخص التى هى غاية الخلق (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) كلها مفيدة لإصلاح الحياة وإن الله غنى عنها ، (ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه إن الله غنى عن العالمين) وإنما هو من كرم الله تعالى وفضله أن يجعل العبادة التى هى غاية الخلق هى الوسيلة لإصلاح النفوس وتهذيبها وإصلاح الحياة ثم من فضله تعالى وكرمه السابغ أن يثيب الناس على العبادة والأعمال وهى عمل يعمل به الإنسان لنفسه والله غنى عن العالمين .

(ومنها) أن يؤذن فى اذن المولود اليمنى بأذان الصلوة ويقم فى اليسرى

قال عليه السلام : أنها عصمة من الشيطان الرجيم .

وهذا الأذان وهذه الإقامة اعلام للروح المتعلقة بالطبيعة قبل أن يتناولها أشياء الحياة بأن الإيمان مبدئه وأن الإيمان أول لون انصبغت به ، وتنتقش صورة فصولها فى لوحة ذهن الطفل اللاشعورية مثلها تسجل الصور فى آلة التصوير ، فتظل أنشودة نفس الطفل اللاشعورية ويمتد أثرها الى

حين تكون شعور في ضميره يفيض بعد حين بأحاسيس الفضيلة ثم لا تختلف عليه ، وبعد الأذان والإقامة يده الوالد باختياره اسماً حسناً وجميلاً لولده ليكون عنواناً حسناً له طيلة حياته .

وبهذا كله مهد الاسلام لتربية الطفل قبل نشوئه وتكونه وميلاده ، وأعد جواً صالحاً وتربة صالحة لنشؤ الطفل وتربيته الصالحة وارتقائه على طبق الناموس الطبيعي الذي هو سنة الله في الكون وان تجد لسنة الله تبديلاً فيتدرج الجنين في السير الطبيعي والارتقاء في الدرجات تستهدفها المعدات التي أعدها الاسلام برعايته قانون الوراثة وتقريره الشرائط اللازمة التي هي مبادئ السعادة لتكميل استعداده اللاشعوري ليقبل بعد شعوره التربية المنزلية الصالحة والتعليم المدرسي والتخلق بمكارم الأخلاق الفاضلة ثم ينتهي الى الكمال الانساني والسعادة التامة الأبدية .

ولعل هذا هو المعنى من الكلام المشهور (السعيد سعيد في بطن أمه والشقي شقي في بطن امه) ولا دلالة فيه على الجبر كما قد يتوهم ، لوضوح أن الأثر الطبيعي للسعادة والشقاوة الطبيعيين لا يتجاوز عن مرحلة الخطور الذي هو أول مبادئ صدور الفعل الاختياري عن الانسان ، ومن ملامحة الخاطر في الذهن للطبع يتولد الميل والرغبة والشوق الى الخاطر بالطبع من دون ارادة واختيار ثم يؤدي الشوق بتقويته الاختيارية الى العزم به ومن اختياره تأكيد العزم يحصل الجزم الموجب لانبعاث العضلات المؤدى الى صدور الفعل الاختياري ، فان الجزئين الأخيرين من أجزاء العلة التامة الموجبة لصدور الفعل اختياريان وهما العزم ثم الجزم ، هذا في الفعل بالمباشرة ، وأما في الأفعال التوليدية فيحتاج أخيراً ايضاً الى أسباب غير اختيارية كالامطار بعد نثر البذر مثلاً ثم اشراق الشمس ونحوه ، ولا يسمع المقام لتفصيل الكلام .

(المرحلة الثانية)

تبتدئ التربية الإسلامية للأطفال من البيت والمنزل ويتصداها الأبوان فانهما مسئولان عن مستقبل طفلهما ، وانهما لعلهما بطبيعة الطفل الذي يربونه وقيمة المواد التي يدرّسان بها يتوقعان اكثر من غيرهما يا أحداث اكبر ما يمكن من التغيير والتهذيب في طبيعة الطفل الأولية حتى ينتفع منهما بما يجعله انساناً صالحاً للجمتمع ونافعاً لنفسه ، فالطفل عن طريق هذه التربية المنزلية يتدرب على النظام والآداب الصالحة ويحصل على اكبر قسط من المعلومات النافعة ، ويكتسب الكثير من المهارة العقلية والبدنية عن طريق التعليم والتقليد والارشاد ، فيحسن استثمار أفكاره واستخدام عضلاته ثم هو أخيراً يستبدل بأفكار الطفولة المشتتة ومطالبها الجارحة مثل الرجولة العليا ومبادئها الثابتة مستعينا بقواه ونزعاته الموروثة واستعداداته الطبيعية وتحصيلاته المنزلية والمدرسية ، ولا يخفى أن الطفل بعد معرفته وجوب طاعة الوالدين عليه واهتمام الاسلام في استنكار عقوق الوالدين لدرجة الشرك بالله (وقضى ربك ان لا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احساناً) يخضع لهما ويقبل تربيتهما الإسلامية ، فالعناية بالاولاد وتربيتهم تربية صالحة من اكبر واجبات الآباء والامهات التي يفرضها نظام الاجتماع والأديان عامة وتعاليم الاسلام خاصة كما أن اهمالهم والتفريط في تربيتهم من اكبر الجنايات الاجتماعية والدينية ، لأنهم المدرسة الطبيعية المسؤولة عن خطأ أبنائهم في المجتمع ، ولم تمنحهم العناية الالهية ليكونوا بمثابة زينة البيت يحرص عليها وتتلذذ النفس بالنظر اليها فقط وانما خلقوا ليقضوا زمن الصباوة في حجر

الأسرة ويقوم الآباء بواجباتهم في ما يختص بتربية اولادهم بالمباشرة أو
بإناابة غيرهم من رجال التربية والتعليم الاسلاميين في هذه المهمة السامية ،
ثم يخرجوا منها أحراراً مؤمنين ومستقلين ورجالا مهذبين ومنقذين
ومسلمين ويضافوا الى الرجال العاملين ، فالأسرة اذاً مكلفة بتربية الطفل
وتهيئته جسماً ونفساً وخلقاً وديناً للقيام بوظائفه المتنوعة في خدمة
المجتمع الاسلامى .

ولا يخفى أن الاسلام اختار من اساليب التربية للطفولة اسلوباً يأخذ
بالجسم والروح والعقل والنفس جميعاً بعمل مشترك من شأنه توزيع النماء على
هذه القوى ، فلا تضعف قوة بسبيل الأخرى ، وهو من وراء ذلك يغمره
بالحنان ليشعر بوجود ذاته وتتكون بذلك شخصيته الاستقلالية ، فيؤدبه
سبعاً مع فسح المجال له في اللعب البرىء لأنه خير عون على انماء جسمه ؛
ثم اذا وصل الطفل الى السابعة من عمره وجب على مربيه أن يأخذه بكثير
من الأعمال الجدية وأن يسارع الى تعليمه الكتابة والقراءة والقرآن بالتجويد
الصحيح وأحكام العبادات الشرعية وكيفياتها الصحيحة واللغات فانه يسهل
في الصغر على الحدث النطق الصحيح ويعينه على سرعة تعليق المفردات
والتركيب (كما ورد في الحديث) ، (عليكم بالأحداث) ويعلمه وجوه
المعاملات وآدابها الشرعية والأخلاق الفاضلة والسباحة والسبق والرمية
والفروسية فان الرياضة البدنية العامة جزء من منهج التربية الاسلامية في
نصوص الأحاديث النبوية (ﷺ) ويقصد به تقوية الجسم ورياضته
على احتمال المشاق وبذل الجهد كما يقصد بها قوة الأخذ بنصيب الإنسان
من سعادة الحياة ، لأن جهاد الحياة في حاجة الى جسم وثيق

متين البنيان .

وفي الحديث الموثق عن الباقر والصادق (عليهما السلام) : (إذا بلغ الغلام ثلاث سنين قل له سبع مرات لا إله إلا الله ، ثم يترك حتى يتم ثلاث سنين وسبعة أشهر وعشرين يوماً ، ثم يقال له : قل : محمد ^{وآل محمد} رسول الله سبع مرات ويترك حتى يتم له أربع سنين ثم يقال له سبع مرات قل : صلى الله على محمد وآل محمد ، ثم يترك حتى يتم له خمس سنين ثم يقال : أيهما يمينك وأيها شمالك ، فإذا عرف ذلك حول وجهه إلى القبلة ويقال له (أسجد) ثم يترك حتى يتم له ست سنين ، فإذا تم ست سنين علم الركوع والسجود حتى يتم له سبع سنين ، فإذا تم سبع سنين قل له : اغسل وجهك وكفيك فإذا غسلهما قيل له : صل ، ثم يترك حتى يتم له تسع سنين فإذا تمت له علم الوضوء وضرب عليه ، وأمر بالصلوة وضرب عليها ، فإذا تعلم الوضوء والصلوة غفر الله لوالديه إنشاء الله تعالى) .

فخلق بالآباء والمرين أن يتعهدوا اولادهم في ناحية التربية والتثقيف التي يتنازع فيها العاطفة والواجب وكثيراً ما تتلاشى فيها المصلحة أمام عاطفة الأمومة الجاهلة وتتلاشى شجاعة الرجل أمام عطف الأمومة ورغبة الولد البهيمية ، وخلق بأولئك أن ينشؤا اولادهم على الآداب الروحية كما أنشأوهم على الآداب المادية وأن يكونوا منهم رجالاً متزناً الجوانب لا تنطفي فيهم ناحية على ناحية حسبما يقضى به أسلوب الإسلام في التربية ، فذلك هو الأجدر بالعقلاء وأليق برحمة الآباء . ويجب أن يعنى كل العناية بالغرض الخلق من التربية وأن تنال التربية الدينية نصيباً وافراً من

عناية المرّين .

ويجب على ولي الطفل أن يعلمه أصول الدين الإسلامى وبراهيمها العقلية والحسية حين بلوغه عشر سنين من عمره ، لأن وجوب تعلم أصول الدين حكم عقلى لا يمكن إشتراطه بالبلوغ الشرعى ، بل لا بد أن يكون شرطه عقلياً والعقل يشترط فيه التمييز الذى يحصل غالباً فى العاشرة كما إختاره شيخ الطائفة قدس سره .

(المرحلة الثالثة)

يجب الالتفات الى ان الطفل يفتقر الى مراحل في تربيته يضطلع بها عقل القائم على تكوينه وتكوينه ، وأن الطفل إنما يفقه الصالح لحياته في كل مرحلة ويجهل الصالح لتربيته في المرحلة التي تليها ، وإنما يعرفه القائم على صهره وتصفيته وتخضعه لاتباع نظام التربية ودراسة العلوم الصالحة لإستعداده مرحلة مرحلة حتى ينتهي به خضوعه الى أوج الكمال ، فاذا تعهده المربي وهو طفل بما لا يصلح لحياته إلا وهو صبي أو مراهق ، أو عليه علماً لا يصلح لإستعداده ، أو أوكله الى معلم غير صالح تهذيبه فكان من الطبيعي أن يضطرب الطفل إذا وعى شيئاً من علم لم يخلق له اضطراباً نفسياً وعقلياً وروحياً .

وكذلك يجب الإنتباه على أن الأطفال ومن في مستواهم من ذوى العقليات البدائية التي تضعف عن الموازنة والتحكم تميل بل تسرع الى التصديق والإيمان في غير شك ولا ريب ، والمنطق الجازم هو الذى يأخذ سبيله الى عقولهم وقلوبهم ليملاً خلاها الساذج ، وهذه الرغبة فى الإنسان الناشئة من غريزة الشعور الدينى الفطرية لا تفتأ ساعية الى إرواء ظمئه الروحى وهى التى تجعل إستعداده للإيمان غير محدودة . .

وينبغى التنبيه على ما قرر فى العلوم من أن لمرحلة الطفولة خاصيتين (إحديهما) الغرور ، فيزعم الطفل أن جميع ما حوله وكل ما فى عالم الوجود خلق لأجله وحده ، (والثانية) الضعف فإن منع عن شيء يريده

بكى ، وبالتربية الإسلامية يتولد الضمير الدينى ، وبه يشرق نور المعرفة على عقل الطفل لأول مرة فى حياته ثم يرتقى إدراكه فيعلم أن كل ما فى عالم الوجود لم يخلق له وحده ، ثم يتدرج فى سلم الترقى حتى يصل الى أعلى درجات الشعور الإنسانى فيدرك أنه هو نفسه لم يخلق لذاته ، ومن هنا يبدأ بمعرفة الواجب تعالى شأنه فيؤمن بالمبدأ والمعاد والتعاليم الإلهية ، وإذا كانت التربية الحديثة تدعوا الى تهذيب الأذواق بفنون الجمال الحسى ، فإن التربية الإسلامية تدعوا الى تلطيف السر بمكارم الأخلاق وأنواع العبادات والأذكار والآداب والرياضات الروحية والبدنية أيضاً الى جانب ما أشير اليه بقوله تعالى : (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق) .

ولا يخفى أن أصعب أدوار التربية هو دور انتقال الطفل من عهد الصباوة الى الشباب حين تزول من نفسه عاطفة الطفولة وتزهوا نفسه بهذا العالم ومسرته ، ويشعر باستغناؤه واستقلاله ، فى هذا الدور حين تضعف فى فؤاده تلك العواطف الشريفة البريئة ويتسرب الى نفسه حب العالم ويلعب بقلبه مظاهره وتمتلك اليه مفسده وينسى كل المبادئ وينخدع قلبه بمناظره ومسرته ، فتناديه الدنيا بلسان حالها فلا يسع الطفل الشاب فى ذلك الدور حين تضعف فى نفسه عاطفة الطفولة وتدب فى صدره قوة الشباب وشهواته الا اجابة ذلك النداء والإقبال على الدنيا ، فتتبدل فضائل النفس وتموت ان لم يتدارك ولى أمره الأمر فينتشله فى هذا الموقف الحرج من السقوط ، وذلك لا يتم الا بتوجيه عواطف الطفل الشاب التى يشعر بها الى الخالق تعالى ، والى تعاليم دينه الحنيف بالقول والعمل ، وربط حلقة الإتصال بينه وبين الله تعالى امتثالاً لقوله تعالى : (قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها

الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم
ويفعلون ما يؤمرون) .

نعم يسعى عالم الدنيا بكل طرق الغواية لينتزع الطفل ، فإن لم يوجد
في هذا الوقت من يستطيع تغليب عواطفه الشريفة على شهواته فقد ضاع
الطفل ؛ فتصبح زخارف الدنيا والديه ، وشهوات الجسد والاستسلام
لحوى النفس معبوده وسيده ، فيجب على ولي أمره في مفترق هذين الطريقين
أن يطبق نظام التربية الإسلامية بحذافيره ويبدل أقصى جهوده لتحويل
عواطف الناشئ حتى تبقى الحياة الانسانية الإسلامية الأدبية والأخلاق
السامية الإسلامية ماثلة بينه وبين نفسه ، فالعالم الذي يتطلع اليه الشاب
اليوم بعين شبابه هو غير ذلك العالم الذي أوجده الخالق في فطرته الأولى
والذي وصفه الحكيم بقوله (ففي كل شيء له آية ، تدل على انه واحد) بل
هو عالم أفسدته يد الانسان وصيرته مفسدة لمشاعره الخارجية وعواطفه
الداخلية وهو عالم ملوئ بشباك الشر لاقتناص نفس الشاب ، فالشاب مع ما
فطر عليه تركيبه البدني ولرجاحة كفة البدن في هذا الدور من العمر على كل
قوة أخرى فيه نراه سريع الانقياد لشهوات الجسد تؤثر عليه وتتغلب على
نفسه المؤثرات المادية على اختلاف أنواعها وأشكالها ، فنراه يصبوا الى
ملذات الحياة يزهاون بها وينخدع بسرابها وينصرف عن الحقائق وينكر
ما لا يقع عليه الحس ، ويفقد الايمان بالله وبرسله وبتعاليم السماوية ، وفي
مثل هذا العالم الفاسد ظهر مذهب الأستاذ (نوردאו) في نظرية تنازع البقاء
وبقاء الأصلح ، حيث قرر (بقاء الأحيال) دون بقاء الأصلح ، قال :
(فإن الأصلح لا يدوم طويلا في دنيا الأباطيل) فيجب على ولي أمره أن
يميز أقصى جهوده في تقوية روحه ومعنوياته التي لا يتم لنفسه وعقله التغلب

على قوة بدنه وشهوات جسده الا بتدريبها وتهذيبها بتطبيق نظام التربية
الاسلامية عليها بكل عناية واهتمام ، لكي لا ينحدر الشاب في تيار هذا العالم
تلاعب به أمواج مطامعه ومفاسده ، وتجرفه آثامه ، وبذلك يقتضى على
نفسه وأخلاقه قضاء أمبراً فتزول من نفسه ملكة التعقل والتنبه الأخلاقى
وبزوالها يزول روح الله من قلبه ، فلا يبقى له ما يحفظه من السقوط ،
ويوصد في وجهه ابواب الفضائل ومكارم الأخلاق ، ويسير به شهوات
الجسد في طريق بعيد يقطع كل اتصال ويفصم كل رابطة بين العقل
والضمير ، وبانفصام عروة هذه الرابطة تنقطع كل علاقة بين الانسان
وخالقه ، وقطع هذه العلاقة الشريفة ضربة قاضية على نفسه الناطقة العاقلة
التي هي المميز الوحيد للإنسان عن الحيوان ، وبهذا يصير الانسان
حيواناً في عالم الفكر بل أضل من الحيوان . فيجب علينا ان تتبع سيرة
النبي ﷺ وأساليبه التربوية الخالصة فقد اعتمد عليها لا بلاغ الدين الى
الضماير في رموخ واستقرار مكين ، فأخذ المسلمين بالترغيب تارة
وبالترهيب اخرى وأخذهم أحياناً برياضات دينية من شأنها ان تبعث
الضمير الدينى المذهب وبذلك حقق الاختمار فى طبقة بقيت لها ميزتها فى
الدين والاعتقاد ما تبقى على الأرض مسلمون ، ويجب علينا ان نتخذ من
المغريات المدهشات فى هذا العالم اليوم ومن الآثار الحسية للعلم والاختراع
طرقاً جديدة وبراهين حسية سديدة ووسائل مبتكرة جديدة بأن يتقوى
بها إيماننا وعقائدنا وتوجيهاتنا لأولادنا ، فالجالس فى المشرق على مرآة
المذياع فى عصر الواحى سمعا وبصراً وهو يرى فيها ما يجرى فى أقصى
المغرب ويسمع ما يقال فيه كيف ينكر ما آمن به المسلمون الذين
سبقونا بأجيال يوم كان العالم فى ظلمة دامسة من الجهل بما لا يقع عليه
الحس ولا يهتدى اليه الفكر ؟

(نبذة من الآداب الشرعية)

(نذكرها بمناسبة لزوم رعايتها في التربية الإسلامية) .
(ونذكر الفرائض بصيغة الأمر لتمييز عن النوافل) ونحن نسوق
إليك هذه الآداب بنوع من الاختصار ملتزمين في التعبير بمتون الأخبار
لن تصل أيها الطالب إلى القيام بأوامر الله تعالى إلا بمراقبة قلبك
وجوارحك في لحظاتك وأنفاسك من حين تصبح إلى حين تمسي (فاعلم) أن
الله سبحانه وتعالى مطلع على ضميرك ومشرف على ظاهرك وباطنك ومحيط
بخطراتك وخطواتك وسائر حركاتك وسكناتك ولحظاتك ، وأنت في
خالطتك وخلواتك متردد بين يديه ، فلا يسكن في الملك والملوك
ساكن ولا يتحرك متحرك إلا وجبار السموات والأرض مطلع عليه ،
فعليك أن تتأدب ظاهراً وباطناً بين يدي الله تعالى تأدب العبد المذنب
الذليل في حضرة الجبار القاهر ، واجتهد أن لا يراك مولاك حيث
نهارك ، ولا يفقدك حيث أمرك ، ولن تقدر على ذلك إلا بأن توزع
أوقاتك ، وترتب أعمالك وأدوارك من صباحك إلى مساءك كما
سنذكر فهرسها لك .

(آداب التيقظ)

إذا استيقظت من النوم فينبغي أن تجتهد لأن تستيقظ قبل طلوع
الصبح وأن يكون أول ما يجري على قلبك ولسانك ذكر الله تعالى فتقول

عند ذلك : (الحمد لله الذى أحيانى بعد أن أمانتى واليه البعث والنشور)
وتسجد تأسياً بالنبي ﷺ فإذا تمكنت من الجلوس تقول : (حسبي الرب
من العباد حسبي الذى هو حسبي منذ كنت ، حسبي الله ونعم الوكيل)
فإذا قمت قلت : (اللهم أعنى على هول المأطلع ووسع على المضجع وارزقنى
خير ما قبل الموت وارزقنى خير ما بعد الموت) .

وإذا لبست ثيابك فتنوى بذلك إمتثال أمر الله تعالى فى ستر عورتك
وتقول : (الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى وأتجمل به فى الناس)
وإذا لبست نعلك تبدء باليمنى وتقول : (بسم الله اللهم صل على محمد وآل
محمد ووطئ قدمى فى الدنيا والآخرة وثبتهما على الصراط يوم تزل فيه
الأقدام) وإذا قصدت بيت الماء لقضاء الحاجة تقدم فى الدخول رجلك
اليسرى وتقول : (بسم الله أعوذ بالله من الرجس النجس الخبيث المخبث
الشيطان الرجيم) ولا تدخل حاسر الرأس وتقول عند الكشف (بسم الله)
وإستر عورتك عن الناظر وتتكئ على رجلك اليسرى وتقول للإستطلاق
(الحمد لله الذى أطعمنيه طيباً فى عافية وأخرجه خبيثاً فى عافية) وإذا وقع
نظرك إليه تقول : (اللهم ارزقنى الحلال وجنبنى الحرام) وعند الإستنجاء
تقول : (اللهم حصن فرجى واعفه وإستر عورتى وحرمنى على النار)
وتستنجد بيدك اليسرى ، وإغسل مخرج البول بالماء لا يجزى غيره بعد
أن تستبرئ منه بإمرار اليد أو الإصبع من أسفل القضيب والتنحنح والنتر
وتقول عند الفراغ ماسحاً بطنك بيدك اليمنى قائماً (الحمد لله الذى أმაط عني
الأذى وهنأني طعامى وشرابى وعافانى من البلوى) وتخرج مقدماً لرجلك
اليمنى ، وينبغى أن يتطهر عقيب كل حدث وإن لم يرد الصلوة ليكون على
طهارة فى تمام أوقاته فان لذلك أثراً قوياً فى تنوير القلب .

(من آداب الوضوء)

وإذا أردت الوضوء تبدء بالسواك فانه مطهرة للقم ومرضاة للرب ،
وصلوة بمسواك أفضل من سبعين صلوة بغير سواك ، وتجلس مستقبل القبلة
وتقول عند النظر الى الماء : (الحمد لله الذى جعل الماء طهوراً ولم يجعله
نجساً) ثم تغسل يديك من الزندين مرة أو مرتين قبل ادخالها الاناء ان
اغترفت من اناء وتقول : (بسم الله وبالله اللهم اجعلنى من التوابين
واجعلنى من المتطهرين) ثم تغمض ثلاثاً بثلاث أكف من الماء وتقول :
(اللهم لقنى حتى يوم ألقاك واطلق لسانى بذكراك) ثم تستنشق كذلك
ثلاثاً وتقول : (اللهم لا تحرمنى ريح الجنة واجعلنى ممن يشم ريحها وروحها
وطيبها) ثم إغترف بيمينك غرفة ناوياً الإتيان بالوضوء متقرباً به الى الله
تعالى مقارناً بالنيه غسل الوجه مبتدئاً بأعلاه قائلاً : (بسم الله اللهم بيض
وجهى يوم تسود فيه الوجوه ولا تسود وجهى يوم تبيض فيه الوجوه)
وتمر يدك على وجهك وتخلل الشعر وتفتح عينيك ، وحد الوجه طولاً
وعرضاً ما دارت عليه الإبهام والوسطى من قصاص شعر الرأس الى آخر
الذقن ، ثم خذ غرفة بيدك اليسرى واغسل بها اليمنى مبتدئاً بالمرفق
بظاهر الذراع والمرئة بباطنها مرراً يدك عليها ، وخلل الشعر والساثر قائلاً
(اللهم إعطنى كتابى بيمينى والخلد فى الجنان بيسارى وحاسبنى حساباً يسيراً)
ثم خذ غرفة أخرى بيدك اليمنى فاغسل بها اليسرى كأختها اليمنى قائلاً :
(اللهم لا تعطنى كتابى بشمالى ولا تجعلها مغلوطة الى عنق وأعوذ بك من
مقطعات النيران) ثم إمسح بشرة مقدم رأسك أو شعره الذى لا يخرج

بمده عن حده بمقدار ثلاث أصابع مضمومة ببلل يمينك قائلاً : (اللهم غشني برحمتك وبركاتك) ثم امسح ببقية بلل اليمين ظهر قدمك اليمنى من رؤس الأصابع الى الكعب أى مفصل الساق والقدم بكل الكعب ، ثم امسح ببلل يسارك قدمك اليسرى كذلك قائلاً : (اللهم ثبتني على الصراط يوم تزل فيه الأقدام واجعل سعي في ما يرضيك عني) وراع الترتيب والتوالي العرفي وتقول عند الفراغ : (الحمد لله رب العالمين) وينبغي وحدة الغسلات بل الإقتصار على غرفة أو غرفتين ، والإسباغ بمد ، وترك الإستعانة بالماء المشمس والآجن وسؤر الغيز المأمون والمستعمل في رفع الحدث الأكبر ، وأن تخطر ببالك عند الفراغ أنك طهرت ظاهرك وهو مطرح نظر الخلق فينبغي أن تستحي من مناجاة الله من غير تطهير قلبك وهو موقع نظر الرب تعالى شأنه .

(من آداب غسل الجنابة)

إن أصابتك جنابة من إحتلام أو وقاع تستبرئ بالبول ومن البول وأزل ما على بدنك من قدر ، وتسمى وتغسل يديك من الزنديين ثلاثاً والى المرفقين أفضل ، وتمضمض وتستنشق ، ثم صب الماء على رأسك ثلاثاً وانت ناو الإتيان بغسل الجنابة لله ومتقرباً إليه ، ثم على شقك الأيمن ثم الأيسر ، وتمر يدك على أعضائك كلها ، وخلل الشعر والموانع وتقول : (اللهم طهر قلبي وتقبل سعيي واجعل ما عندك خيراً لى ، اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين) وإن ارتفعت في الماء إرتماسة أجزئك ، وينبغي ان لا يكون راكداً ، وترك الإستعانة الى آخر ما مر في الوضوء .

(من آداب التيمم)

وان عجزت عن الماء لفقده بعد الطلب أو لما منع من الوصول اليه من سبع أو حابس أو كان الماء حاضراً لكنك تحتاج اليه لعطشك أو عطش رفيقك أو كان ملكاً غيرك ولم يبع إلا بثمان مجحف ، أو كان بك جراحة أو مرض تخاف منه على نفسك فاصبر حتى يدخل وقت الفريضة ثم اقصد صعيداً طيباً عليه تراب خالص طاهر لين وانزع خاتمك ثم اضرب عليه بكفيك مفرجى الأصابع ناوياً التيمم بدلاً عن الوضوء أو عن الغسل متقرباً به الى الله مسمياً ، وامسح الجبهة والجبينين بهما معا مستوعباً من قصاص الشعر الى طرف الأنف الأعلى والى الحاجبين والمسح عليهما ثم امسح بباطن اليسرى تمام ظاهر اليمنى من الزندين وبالعكس ، ثم اضرب ثانية وامسح بباطن اليسرى ظاهر اليمنى من الزندين وبالعكس للإحتياط فى رعاية شرط العلوق .

(من آداب المسجد)

فاذا تطهرت فتطيب فإن ركعتين تصليهما متطيراً أفضل من سبعين ركعة تصليها غير متطير ، ثم تدعوا بدعاء زين العابدين عليه السلام الذى كان يدعوا به فى جوف الليل جالساً مستقبل القبلة ثم تقوم الى صلوة الليل ان كان بقى لك وقت والا تقتصر على الوتر وركعتى نافلة الفجر والا فالركعتين تقرء فيهما بعد الحمد ما شئت من السور بقدر سعة الوقت ، وان اقتصرت

على الفاتحة أجزئك ، ولا تدع الإستغفار في قنوت الوتر .
ثم تتوجه الى المسجد فعن الصادق عليه السلام : « من مشى الى المسجد لم يضع
رجلا على رطب ولا يابس الا سبحت له الأرض الى الأرض السابعة)
ولا تدع الصلوة في الجماعة لاسيما الصبح والعشاء ، فإن صلوة الجماعة تفضل
صلوة الفذ بأربع وعشرين درجة ، فإن كنت تتساهل في هذا الرج فأى
فائدة لك في طلب العلم ، وانما ثمرة العلم العمل ، فإذا سعت الى المسجد
تمشى على سكة ووقار وتقول عند خروجك من بيتك (بسم الله الذى
خلقنى فهو يهدين ، والذى يطعمنى ويسقئ ، واذا مرضت فهو يشفين ،
والذى يميتنى ثم يحيين ، والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين ؛
رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين واجعل لى لسان صدق فى الآخرين
واجعلنى من ورثة جنة النعيم واغفر لائى) فإذا أردت دخول المسجد
فتعاهد نعلك أولا وتقدم رجلك اليمنى وتقول : (بسم الله وبالله ومن الله
والى الله وخير الاسماء كلها لله توكلت على الله ولا حول ولا قوة الا بالله اللهم
صل على محمد وآل محمد وافتح لى أبواب رحمتك وتوبتك ، واغلق عنى
أبواب معصيتك واجعلنى من زوارك وعمار مساجدك ومن يناجيك فى
الليل والنهار ومن الذين هم فى صلواتهم خاشعون وادحر عنى الشيطان الرجيم
وجنود ابليس أجمعين) فإذا أردت أن تخلع نعليك تبتدء باليسرى قبل اليمنى
بعكس لابسهما وتقول : (بسم الله الحمد لله الذى رزقنى ما أوقى به قدمى من
الاذى اللهم ثبتهما على صراطك ولا تزلهما عن الصراط السوى) ثم تأتى
بركعتى التحية للمسجد ان لم يدخل وقت الفريضة والا أجزئك الفريضة
عنهما فإذا تحققت طلوع الصبح فتقول : (يا فالقه من حيث ما أرى ،
ونخرجه من حيث أرى صل على محمد وآله واجعل أول يومنا هذا صلاحا

وآخره نجاحاً) ثم يأتي بالكلمة النوحية التي بها سمي عبداً شكوراً عشر
 مرات وهي : (اللهم اني أشهدك أنه ما أصبح بي من نعمة أو عافية في
 دين أو دنيا فننك وحدك لا شريك لك لك الحمد ولك الشكر بها حتى ترضى
 وبعد الرضا) ثم تؤذن قائماً مستقبلاً القبلة رافعاً صوتك متأنياً واضعاً
 أصبعيك في أذنيك واقفاً على الفصول ، غير ملتفت يميناً وشمالاً ولا متكلم
 في أثنائه مصلياً على النبي ﷺ عند ذكره ، ثم تفصل بينه وبين الإقامة
 بسجدة أو جلسة وتقول فيها (اللهم اجعل قلبي باراً وعيشي قاراً ورزقي
 داراً واجعل لي عند قبر رسولك ﷺ مستقراً وقراراً) ثم تدعوا بما
 شئت وتسال حاجتك فإن الدعاء بين الأذان والإقامة لا يرد ثم تقوم الى
 الإقامة وتأتي بالآداب المذكورة سوى التاني ووضع الإصبعين في الأذنين
 ورفع الصوت فانه فيها أخفض ، وتقول اذا فرغت منها وأنت مستقبل
 القبلة (اللهم اليك توجهت ، ومرضاتك طلبت ، وثوابك ابتغيت ، وبك
 آمنت وعليك توكلت اللهم صلى على محمد وآل محمد وافتح مسامع قلبي لذكرك
 وثبتني على دينك ودين نبيك ، ولا تزغ قلبي بعد اذ هديتني وهب لي من
 لدنك رحمة انك انت الوهاب) فاذا سمعت أذان المؤذن تقطع ما انت فيه
 وتشغل بالجواب بمثل ما يقول ، ولك أن تحولق في جواب الحيعلات ففي
 الحديث (إذا قال ذلك من قلبه دخل الجنة) ويذبحي أن تحضر في قلبك
 هول النداء يوم القيامة وتشمر بظاهرك وباطنك للإجابة والمسارة وتكون
 مستبشراً بذلك فرحاً تأسيماً بالنبي ﷺ حيث كان يقول : (أرحنا يا
 بلال) فإذا أحرم الإمام بالفرض فلا تشتغل إلا بالإقتداء .

(من آداب الصلوة)

إذا تفرغت للصلوة فتحضر قلبك وتفرغه من الوسوس وتنظر بين يدي من تقوم ومن تناجي ؟ وتستحي أن تناجي مولاك بقلب غافل وصدر مشحون بوسوس الدنيا وخبائث الشهوات ، وتعلم أنه مطلع على سريرتك وناظر الى قلبك وإنما يتقبل صلواتك بقدر خشوعك وتواضعك وتضرعك وتعبد الله في صلواتك كأنك تراه فإن لم تكن تراه فانه يراك ، فإن لم تحضر قلبك بهذا الحضور لقصور معرفتك بجلال الله تعالى ، فتقدر أن رجلا صالحا من وجوه الناس ينظر اليك ليعلم كيف صلواتك فعند ذلك تحضر قلبك وتسكن جوارحك ، ثم ترجع الى نفسك وتقول : ألا تستحيين من خالقك ومولاك ؟ إذا قدرت إطلاع عبد ذليل من عباده عليك وليس بيده ضرك ولا نفعل خشعت جوارحك وحسنت صلواتك ثم انك تعلمين أن الله مطلع عليك ولا تخشعين لعظمته ، هل هو أقل عندك من عبد من عباده ؟ فما أشد طغيانك وجهلك وما أعظم عداوتك لنفسك ، فعالج قلبك بهذه التدابير عساه يحضر معك في صلواتك ، فانه ليس لك من صلواتك إلا ما عقلت وأما ما أتيت به مع الغفلة فهو الى الإستغفار والتفكير أحوج .

وإعلم أن النية شرط في الصلوة ، والنية هي الإرادة الباعثة للعمل المنبعثة عن المعرفة كشهوة الطعام المنبعثة عن المعرفة بتحقيقه ودفعه الجوع الباعثة لإمتداد اليد اليه ، وهي المراد بالداعي ، وأما التلفظ بالنية والخطور والحديث النفسى فقائدها تذكر ذلك الداعي وتلك الإرادة ولو لاهما لم تبق

له أى فائدة ، والعبادة تتوقف على النية مثل توقفها على العمل ، فى الحديث النبوى ﷺ المتواتر (إنما الأعمال بالنيات) وفيه (لا عمل إلا بنية) وورد أيضاً (إنما لكل امرئ ما نوى) والأهم فى النية الإخلاص ، قال الله تعالى (مخلصين له الدين) وقال عز وجل : (إلا ابتغاء وجه ربه) والإخلاص تجريد النية عن الشوائب فالأعلى إرادة وجهه تعالى ، ويعرف بالتفكير فى صفاته وأفعاله والمناجاة ثم إرادة نفع الآخرة فهو حظ النفس وورد فى الشرع أن حقيقة الإخلاص أن تقول ربى الله ثم تستقيم كما أمرت ، تعمل لله وحده ولا تحب أن تحمد عليه ، وهو عزيز المنال جداً ولا يتأتى عن النفوس الأمارة بالسوء إلا بمجاهدات ولذا ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام : « تخلص العمل من الفساد أشد من طول الجهاد ، وضد الإخلاص الرياء ، وهو طلب المنزلة عند غيره تعالى بالعبادة ، فيختص بعمل الظاهر ، ويفوت الإخلاص بمثل قصد الحمية فى الصوم ، والتبرد فى الوضوء ، والتفرج والتجارة فى الحج ، والإخلاص عن المؤنة وعن سوء الخلق فى العتق ، ولكنها غير الرياء ، وورد عن المعصومين عليهم السلام أن الرياء شرك خفى وأخفى من ديب النملة فى الليلة السوداء على الصخرة الصماء ، ومن آفات رد العمل فانه تعالى لا يقبل إلا الخالص .

وإذا قمت الى الصلوة تقوم بالوقار والخشوع مستقبلاً القبلة واضعاً يديك على فخذيك بأزاء ركبتيك مفرجاً بين قدميك بقدر ثلاث أصابع منفرجات الى شبر ناظراً الى موضع سجودك غير رافع بصرك الى السماء مخطراً ببالك أنها صلوة مودع ، وتأتى بين التكبيرات السبع بالأدعية الثلاثة ، فبعد الثالثة تقول : (اللهم أنت الملك الحق لا اله الا انت سبحانك انى ظلمت نفسى فاغفر لى ذنبى انه لا يغفر الذنوب الا أنت) وتقول بعد

الخامسة : (لبيك وسعديك والخير في يديك والشر ليس إليك والمهدي من هديت ، عبدك وابن عبدك لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك سبحانه وتعالى تباركت وتعاليت سبحانه رب البيت) وتقول بعد السابعة : (وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة خنيماً مسلماً وما أنا من المشركين إن صلوتي ونسكي وحياي ومآتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين) ثم تقول : (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم) متخافتاً بها .

ثم أفصد أداء فريضة الصبح تقرباً إلى الله وقارن النية بتكبيرة الإحرام رافعاً بها يديك مستقبلاً بكفيك القبلة ضاماً أصابعك سوى الإبهامين غير متجاوز بكفيك أذنك مبتدئاً بالتكبير حال ابتداء الرفع منتهياً بانتهائه ثم اقرأ سورة الحمد قراءة صحيحة مرتلاً ، وإجهر بها مراعيّاً للوقوف في مواضعه محضراً قلبك متدبراً معانيها ، وتسكت بعدها بمقدار نفس ثم تقرأ سورة كذلك وتسكت بعدها كما تسكت قبلها ، ثم ترفع يديك كرفعك في تكبيرة الإحرام وتقول : الله أكبر ، ثم إركع واضعاً يمينك على ركبتك اليمنى قبل يسراك على اليسرى مائلاً كفيك بركبتك ملقياً لها بأطراف أصابعك منفرجات راداً لها إلى خلف مستويا ظهرك ماداً عنقك مغمضاً عينيك أو ناظراً إلى ما بين قدميك وتقول : (اللهم لك ركعت ولك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وأنت ربي خشع لك سمعي وبصري وشعري وبشري ولحمي ودمي ونخي وعصبي وعظامي وما أفلته قدماي غير مستنكف ولا مستكبر ولا مستحسر) ثم قل : (سبحانه ربي العظيم وبحمده) تقول : مرة واحدة أو ثلاثاً أو خمساً أو سبعاً ، ثم انتصب وتقول : (سمع الله لمن حمده) ثم تكبر قائماً ثم اهوي للسجود بخشوع وخشوع متلقياً إلى الأرض بكفيك

قبل ركبتك ، وتجنح في سجودك بيدك باسطاً كفك مضمومتى الأصابع
 حيال منكبيك ووجهك ، غير واضع شيئاً من جسدك على شيء منه ، ممكناً
 جبهتك من الأرض وأفضلها التربة الحسينية على صاحبها أفضل التسليمات ،
 جاعلاً أنفك ثامن مساجدك السبعة مرغماً به ، ناظراً الى طرفه وتقول :
 اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت وعليك توكلت وأنت ربي ،
 سجد وجهي للذي خلقه وشق سمعه وبصره والحمد لله رب العالمين تبارك
 الله أحسن الخالقين) ثم تقول : (سبحان ربي الأعلى وبحمده) مرة أو
 ثلاثاً أو خمساً أو سبعمائة ، ثم ارفع رأسك ، وتجلس متوركاً وتكبر وتقول
 (أستغفر الله ربي وأتوب اليه) ثم تقول : (اللهم اغفر لي وارحمني وأجرني
 وادفع عني اني لما أنزلت علي من خير فقير تبارك الله رب العالمين) ثم تكبر
 ثم اسجد السجدة الثانية كالأولى ثم ارفع رأسك ، وتجلس متوركاً هنيئاً ،
 وهي جلسة الإستراحة ثم قم رافعاً ركبتك قبل كفك معتمداً عليهما قائلاً :
 (بحول الله وقوته أقوم وأقعد وأركع وأسجد) فإذا انتصبت فافرد الحمد
 والسورة كما مر بيانه في الركعة الأولى ، وأفضلها التوحيد ، ثم تسكت
 بقدر نفس ثم تكبر للقبول وتقنت بكلمات الفرج ونحوها رافعاً كفك
 تلقاء وجهك مستقبلاً ببطنيهما السماء ناظراً اليهما ضاماً أصابعهما ما عدا
 الإبهامين ، ثم ترفع يديك بالتكبير ثم اركع واسجد السجدة كما مر ،
 ثم اجلس للتشهد متوركاً ناظراً الى حرك وتقول : (بسم الله وبالله وخير
 الأسماء لله الحمد لله أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن
 محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالحق بشيراً ونذيراً بين يدي الساعة ،
 وأشهد أن ربي نعم الرب وان محمداً نعم الرسول ، اللهم صل على محمد وآل
 محمد ، وتقبل شفاعته في أمته وارفع درجته ، السلام عليك أيها النبي

ورحمه الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، ثم تسلم ناويا للخروج من الصلوة فتقول : (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته) قاصداً به الأنبياء والأئمة والحفظة عليهم السلام ، مؤمياً بمؤخر عينيك الى يمينك .

(من آداب صلاة الجماعة)

يشترط في إمام صلوة الجماعة (العدالة) وينبغي أن يكون أفضل القوم في العلم والقراءة ، وأن يسوى الصفوف أولاً وينوى الإمامة لينال الفضل ولا يتأتى منه نية الإمامة إلا إذا كان مطمئناً من عدالة نفسه ، فإن لم ينو الإمامة صحت صلوة القوم إذا نواوا الإقتداء ونالوا فضل الجماعة ، وصحت صلواته منفرداً ولا ينال فضل القدوة والجماعة ، ويرفع الإمام صوته بالأذكار سوى الست الإفتتاحية المستحبة ودعواتها ، ولا يرفع المأموم صوته إلا قدر ما يسمع نفسه ، ولا يقرء خلف الإمام المرضى فإنه حرام إلا إذا لم يسمع في الجهرية ولا همهمة ، ويذكر الله في السرية حال قراءة الإمام ، ولا يتقدم على الإمام في شيء من الأذكار والأفعال ولا المكان بل إما أن يساويه أو يتأخر عنه والتأخير أفضل ، وإن كان واحداً قام عن يمين الإمام ولا يقف وحده بل يدخل الصف أو يجر الى نفسه غيره ويتمم الخلل ، ففي الحديث (ما من خطوة أحب الى الله من خطوة تمشيها تصل بها صفا) ويدرك الركعة والفضيلة بإدراك الركوع ويجعله أول صلواته فيتم ما بقى عليه في أوليه ان كانتا أخيرتي الامام ، وان لحقه في سجدتي الأخيرة نال الفضل ويستأنف صلواته ، وان كان في التشهد الأخير يتبعه ناويا ويقوم من غير تجديد نيته ، ولا يخص الامام نفسه

بالدعاء فإنه خيانة ، ولا يقوم من مصلاه الى أن يتم المسبوقون صلاتهم ،
ويصلي صلاة أضعف من خلفه فإن التخفيف في الجماعة متأكد .

(من آداب التعقيب)

إذا فرغت من الصلوة تشرع في التعقيب فإنه أفضل من الصلوة تنفلا
وأبلغ في طلب الرزق من الضرب في البلاد ، والأذكار الواردة فيه من
الأئمة الطاهرين كثيرة جداً فليطلب من مظانها ، وأفضلها تسبيح الزهراء
عليها السلام وهو أفضل من صلوة ألف ركعة في كل يوم (كذا ورد عن الصادق
عليه السلام وإذا وجدت من نفسك كلالاً فاقطع التعقيب ولا تكلفها إكمالاً من
دون ميلها اليه وإقبالها عليه ، فإن التوجه والاقبال روح العبادة والدعاء ،
وتجلس في مصلاك بعد فراغك من صلوة الصبح الى أن تطلع الشمس وان
لم تكن مشغولاً بالتعقيب فإنه ستر من النار ، قال بعض العلماء : وليمكن
أوقاتك بعد الصلوة الى طلوع الشمس موزعة على أربع وظائف ، ووظيفة
في الأذكار والتسبيحات تكررهما في سبحة ، ووظيفة في الدعوات ووظيفة
في قراءة القرآن ، ووظيفة في التفكير في ذنوبك وخطاياك وتقصيرك في
عبادة مولاك ، وتعرضك لعقابه الأليم وسخطه العظيم وتحاسب نفسك
وترتب بتدبيرك برنامج أعمالك وأورادك في جميع يومك لتتدارك به
تقصيرك ، وتنوى الخير لجميع المسلمين وتعزم أن لا تشتغل بنهارك الا
بطاعة الله تعالى ومرضاته ، وتفصل في قلبك الطاعات التي تقدر عليها وتختار
أفضلها ولا تدع التفكير في قرب الأجل وحلول الموت القاطع للأمل ،
وخروج الأمر من الاختيار وحصول الحسرة والندامة بطول
الاغترار .

فإذا فرغت من التعقيب فمسجد سجدة الشكر وتطيل فيها وتفتش
ذراعيك وتلصق صدرك وبطنك بالأرض وتبالغ في التضرع والدعاء وتأتي
بالأذكار المروية عن مولانا الكاظم عليه السلام ، (منها) ما روى أنه عليه السلام كان
يقول فيها بصوت حزين ودموعه تجري (عصيتك رب بلساني ولو شئت
وعزتك لأخرستني ، وعصيتك ببصري ولو شئت وعزتك لأكمتني
وعصيتك بسمعي ولو شئت وعزتك لأصمتني ، وعصيتك بيدي ولو شئت
وعزتك لجزمتني ، وعصيتك بفرجي ولو شئت وعزتك لعقمتني وعصيتك
بجميع جوارحي التي أنعمت بها عليّ وليس هذا جزائك مني) ثم يقول :
(العفو) ألف مرة ، ثم يلصق خده الأيمن بالأرض ويقول ثلاث مرات
بصوت حزين (يؤت إليك بذنبي عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي ذنوبي
فإنه لا يغفر الذنوب غيرك مولاي) ثم يلصق خده الأيسر بالأرض ويقول
ثلاث مرات : (ارحم من أساء واقترب واستكان واعترب) .

(من أسرار تشريع الجماعة)

ينبغي أن تعطف نظرك الى أسرار تشريع الصلوة في الجماعة وما
تضمنت من استعراض كل من بلغ الرشد من أربعمائة مليون مسلم خمس
مرات في كل يوم وليلة في صفوف منتظمة بكل سكة ووقار ، الأمير
بجانب المأمور والخادم بإزاء المخدم ، والفقير بجذاء الغني والضعيف بجانب
القوى والرفيع مع الوضيع والسيد بصف المسود ، وكل منهم منكسر لله
ذليل بين يدي رب عظيم قاهر دون ميزة لبعضهم ولا أفضلية في ما بينهم
وكلهم يستقبلون الكعبة المكرمة ويتجهون الى بقعة أشرقت منها شمس
الهداية المحمدية صلى الله عليه وآله وسلم ويتلون النشيد الإلهي والسبع المثاني ، ويوجهون

قلوبهم ونفوسهم الى المبدء الواحد والمعبود الفرد وفي ذلك وحدة الشعور
 وتوحيد المشاعر والمفاداة في سبيل نصرة الحق والإعتزاز بالدين والتمرين
 على النظام الإلهي والطاعة والاتباع والإنقياد للإمام (كجيش مرابط)
 وفي ذلك تعويدهم على أسس العدل الاجتماعي والمساواة أمام قانون الشرع
 والحرية المتعادلة والائتلاف وصفاء النفس من كمد الشوائب وتحليلها
 بجلائل المكارم والخصائل وأمهات الفضائل وعدم الاعتداء على أحد في
 ماله وحقوقه وهذا كاف لحفظ السلام العام فإن النزاع إنما ينشأ من
 الاعتداء ، مضافاً الى أن الخضوع والخشوع لله تعالى يزيلان الطمع
 وحب الدنيا وحب المادة الذي هو منشأ الحروب . وبمقدمات الصلوة تشييد
 أسس النظافة والصحة والثقافة وشرف الانسانية وتكافح المبادئ الفاسدة
 إذ يتكرر للمصلي أن من شروط صحة الصلوة إباحة ماء الوضوء والغسل
 وإباحة تراب التيمم وإباحة مصب مائهما ، وإباحة لباس المصلي وساتره
 ومكانه وما يسجد عليه ، فلو كان شيء منها مغضوباً بطلت الصلوة فيه
 فيترسخ بذلك في نفس المصلي وذهنه أن الناس مختلفون في القوى والغرائز
 الطبيعية والصفات الوراثية ، وأن كل فرد من الانسان يملك فوائد عمله
 ويختص بشمرات جهوده ونتائج قواه وغرائزه ، كاختصاصه بتلك القوى
 والغرائز المتفاوتة في أفراد البشر بالفطرة والطبيعة فيعتقد اعتقاداً يقينياً
 وحسياً بأن الاختصاص والملكية الفرد من جملة الحقوق الطبيعية والفطرية
 للإنسان وأن انكاره خروج على ناموس الطبيعة والفطرة ، والناس جميعاً
 متفقون في مقتضيات الفطرة ، والاسلام الذي هو دين الفطرة والطبيعة قرر
 هذا الاختصاص الطبيعي والملكية الفردية وجعله من أهم تعاليمه ، ولذا اعتبر
 انتزاع ملك الفرد بدون رضائه غصباً حراماً ومبطلاً للصلوة والعبادة وبهذا

يحفظ نظام المجتمع ، ونشاط الفرد في العمل ، ويتجلى العدل الاجتماعي ،
ثم تصير هذه العقائد الحقبة والمبادئ الصحيحة ملكات راسخة في نفوس
المصلين ، بل يجدونها أموراً فطرية طبيعية حسية فيستحيل أن تجد المذاهب
الاشتراكية المتطرفة التي تقاوم الطبيعة وتنازع الفطرة وتناقض الاسلام
وتنفي الاختصاص وتنزع الملكية من الفرد ، وتتدخل في شؤون الانسان
بينه وبين ربه ، الى قلوب المصلين سبيلاً .

(ان الصلوة تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى) صدق الله العظيم وصدق
رسوله النبي الكريم ﷺ .

(من آداب الاكل والشرب)

وبما تعمل في صدر النهار التصدق بما تيسر وان كان حقيراً فإن البلاء
لا يتخطاها وبق الله بها شرّ ما ينزل في ذلك اليوم ، وتقول : (ربنا تقبل
منا انك أنت السميع العليم) وتمسح وجهك بماء الورد وتستعمل الطيب
وتصلي على النبي وآله ، كي لا يصيبك في ذلك اليوم بؤس ولا فقر ، ثم
تتغذى بنية التقوى على العبادة وعمل الخير ، بأدابه وأدعيته ، بأن تغسل
يديك وتجلس على يسارك من غير تربيع وتسمى وتحمد الله على كل لون بل
كل اناء وتقول عند الشروع فيه (بسم الله والحمد لله رب العالمين) أو تقول
(بسم الله ثقة بالله وتوكلاً عليه) أو تقول : (الحمد لله الذي يطعم ولا
يطعم ، ويحير ولا يحار عليه ويستغنى ويفتقر اليه اللهم لك الحمد على ما
رزقتنا من طعام وأدام في يسر وعافية من غير كد منا ولا مشقة بسم الله خير
الاسماء بسم الله رب الارض والسماء بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في
الارض ولا في السماء وهو السميع العليم اللهم أسعدني في مطعمي هذا
وأعذني من شره ، وأمتعني بنفعه وسلمني من ضره) وتكرر حمداً لله سبحانه

في أثناء الأكل وتبدأ بالملح وتختم به أو بالخل ، ولا تأكل اللحم في اليوم
 الواحد مرتين ، وتأكله في كل ثلاثة أيام ، ولا تتركه أربعين يوماً ولا
 تمسك العظم بل تبقى فيه بقية وتطيل الجلوس على المائدة ، وتصغر اللقم
 وتجوّد المضغ وتقلل النظر الى وجوه الجلساء وتقول عند الفراغ (الحمد
 لله الذي أطعمنا في جائعين وسقانا في ظمآنين وكسانا في عارين وفضلنا على
 كثير من العالمين) وإذا أكلت اللبن فتقول : (اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه)
 وإذا أكلت السمك فتقول : (اللهم بارك لنا فيه وأبدلنا خيراً منه) ثم
 تخلل وتغذف ما خرج من بين الأسنان بالخلاف ، وتأكل ما تشتهي
 أهلك لا ما تشتهي أنت دونهم وتقول لرفع المائدة : (الحمد لله رب العالمين
 اللهم اجعلها نعمة مشكورة) وتقول لأهل الطعام : (اللهم بارك لهم فيما
 رزقتهم واغفر لهم وارحمهم اللهم أطعم من أطعمني واسق من سقاني) وإذا
 شربت تقول عند الشروع : (الحمد لله منزل الماء من السماء ومصرف الأمر
 كيف يشاء بسم الله خير الأسماء) وتقول بعد الشرب : (الحمد لله الذي
 سقانا ماء عذبا ولم يجعله ملحا أجاجا بذنوبي) ثم تذكر الحسين عليه السلام وعطشه
 وتلعن قاتليه ، وإن شربت بثلاثة أنفاس تحمد الله في كل نفس وجبت لك
 الجنة ، إلا أن يكون حراً فينفس واحد ، ولا تكثر من شرب الماء فإنه
 مادة كل داء ، ولا تشرب عباً ولا من جانب العروة ولا من موضع الكسر
 بل تشرب مصاً ومن شفتك الوسطى وقائماً بالنهار وجالسا بالليل ، واحفظ
 بطنك عن تناول الحرام والشبهة وأحرص على طلب الحلال فإذا وجدته
 فاحرص على أن تقتصر على دون الشبوع فإن الشبوع يقسى القلب ويفسد
 الذهن ويبطل الحفظ ويثقل الأعضاء عن العلم والعبادة والعمل ، ويقوى
 الشهوات وينصر جنود الشيطان ، والشبوع من الحلال مبدء كل شر فكيف

من الحرام ، وما من وعاء أبغض الى الله تعالى من بطن مليء من حلال .
 وطلب الحلال فريضة على كل مسلم ومسلمة ، والعبادة والعلم مع
 أكل الحرام كالبناء على السرقة ، وإذا قنعت بما تيسر لك من الملابس
 والمطعم وإكتفيت بضروريات المعاش وتركت التلذذ بالكاليات والزوائد
 لم يعزك من الحلال ما يكفيك فالحلال كثير فعليك بمعرفة الحلال والحرام
 فانها فريضة كالصلوات الخمس والله ولى التوفيق .

(من آداب طلب الرزق)

يصرف المسلم باقى أوقاته فى تحصيل العلم النافع وفى طلب الرزق
 الحلال فكما أن الصلوة والصيام والحج عبادات كلف الله تعالى بها عباده
 ليتقربوا بها إليه ، كذلك طلب الرزق الحلال بزراعة أو صناعة أو تجارة
 أو عمل وكسب واجب كلف الله تعالى به عباده ليتقربوا به إليه ، فعن
 الإمام الباقر عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ : « العبادة سبعون جزءاً
 أفضلها طلب الحلال ، وقال عليه السلام : (من طلب الرزق فى الدنيا إستعفاها
 عن الناس وسعيّاً على أهله وتعطفاً على جاره لقي الله عز وجل ووجهه مثل
 القمر ليلة البدر) وعن الصادق عليه السلام أن أمير المؤمنين عليه السلام قال : (أوحى
 الله عز وجل الى داود عليه السلام إنك نعم العبد لو لا أنك تأكل من بيت المال
 ولا تعملن بيدك شيئاً فبكى داود عليه السلام أربعين صباحاً فأوحى الله عز وجل
 الى الحديد أن لن لعبدى داود فالان الله له الحديد وكان يعمل فى كل يوم
 درعاً فيبيعها بألف درهم فعمل ثلاثمائة وستين درعاً فباعها بثلاثمائة وستين ألفاً
 وإستغنى عن بيت المال) وعنه عليه السلام (إشتري رسول الله ﷺ عيراً أتت
 من الشام فاستفضل فيها ما قضى دينه وقسم فى قرابته لقول الله عز وجل

(رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) فالمسلمون منذ عهد النبي ﷺ كانوا يتجرون ولكنهم لم يكونوا يدعون الصلوة في ميقاتها ، وهو أفضل من حضر الصلوة ولم يتجر ، وعن أبي حمزة قال : (رأيت أبا الحسن عليه السلام يعمل في أرض له قد إستنقعت قدماه في العرق فقلت جعلت فداك : أين الرجال ؟ فقال عليه السلام : قد عمل بالليل في أرضه من هو خير مني ومن أئى ، فقلت : من هو ؟ فقال : رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام وآبائهم كانوا قد عملوا بأيديهم ، وهو من عمل النبيين والمرسلين والأولياء والصالحين) وقال الصادق عليه السلام : (إنى لأعمل في بعض ضياعي حتى أعرق وإن لى من يكفينى ليملأ الله عز وجل أنى أطلب الرزق الحلال) فلو كان ترك الكسب خيراً لكان الأنبياء والأولياء أولى به ، وقال عمر بن يزيد للصادق عليه السلام : (لأفعدن فى بيتى ولأصليين ولأصومين ولأعبدن ربى ، فأما رزقى فسيأتينى ، فقال عليه السلام : (هذا أحد الثلاثة الذين لا يستجاب لهم) وقال له عليه السلام آخر : (أَدع الله أن يرزقنى فى دعة ، فقال عليه السلام : (لا أدعوا لك أطلب كما أمرك الله عز وجل) وقال له عليه السلام آخر : (إنا لنطلب الدنيا ونحب أن نؤتاها ، فقال عليه السلام : (تحب أن تصنع بها ماذا ؟) قال : أعود بها على نفسى وعيالى ، وأصل بها وأتصدق بها وأحج واعتمر فقال عليه السلام : ليس هذا طلب الدنيا ، هذا طلب الآخرة) وسئل عليه السلام عن رجل فقيل أصابته الحاجة قال عليه السلام : فما يصنع اليوم ؟ قيل فى البيت يعبد ربه ، فقال عليه السلام : من أين قوته ؟ قيل من بعض إخوانه فقال عليه السلام : (والله الذى يقوته أشد عبادة منه) وقال عليه السلام : (ليس منّا من ترك ديناه لآخرته ، ولا آخرته لديناه) .

وأما الزهد فى الدنيا المرغب فيه فى الشرع المطهر فهو أن لا يفرح

بما يؤتى من فضولها مما لا يحتاج اليه في الحال ، ولا يأسف على ما فاتته منه
ويجتنب ما يشغله عن الله إلا ما كان مضطراً اليه ، ولا يضره وجود المال
والجاه ولا عدمهما إذا لم يشغل قلبه بشيء منهما وجوداً وعدماً ، قال امير
المؤمنين عليه السلام : (الزهد كله بين كلمتين في القرآن قال الله سبحانه : « لكى لا
تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » ومن لم يأس على الماضي ولم يفرح
بالآتى فقد أخذ الزهد بطريقه) وقال الصادق عليه السلام : « ليس الزهد فى الدنيا
بإضاعة المال ولا بتحريم الحلال ، بل الزهد فى الدنيا أن لا تكون بما فى
يدك أوثق منك بما عند الله عز وجل » .

ويستثنى من هذا المرجع الدينى الأعلى للمسلمين فإن وظيفته فى الزهد
فوق ما ذكرناه لعموم المسلمين وسيأتى بيانه فى مباحث الاجتهاد والتقليد
إن شاء الله تعالى .

وأما المتقشفون الذين يتبعون أهوائهم والذين إشتطوا فى الزهد
أن يقتصر على أدنى قدر الضرورة فى المطعم والمشرب والملبس والمنكح
والأثاث والجاه ويخرج الزائد من حاجة يومه من يده فوراً ولا يقصد
التلذذ بشيء من ذلك ولا الإسترواح بنسيم الأسحار فهو لاء كأنهم لم يسمعوا
قرآناً ولا حديثاً ويستعجلون بموت الناس حثيثاً قال الله عز وجل :
(والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً) وقال جل
وعلى : (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد
ملوماً محسوراً) وقال عز وجل : (قل من حرام زينة الله التى أخرج
لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم
القيامة) وقال تعالى وتقدس : (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما
أحل لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين وكوا بما رزقكم الله حلالاً

طيباً وإتقوا الله الذى انتم به مؤمنون) .
وعن الصادق عليه السلام أن النبي صلى الله عليه وآله قال : « إن اصنافاً من امتى لا
يستجاب لهم دعائهم ، وعد منهم رجلاً رزقه الله مالا كثيراً فأنفقه ثم
أقبل يدعوا يا رب ارزقنى فيقول الله عز وجل : ألم أرزقك رزقا واسعاً ؟
فهل اقتصدت فيه كما أمرتك ولم تسرف ؟ وقد نهيتك عن الإسراف)
وتمام الحديث يطلب من أصول الكافي فى باب دخول الصوفية على ابى عبد
الله عليه السلام ، كتاب المعيشة .

(التوكل لا ينافي تحصيل الاسباب)

ان معنى التوكل المأمور به شرعا هو اعتماد القلب على الله تعالى فى
الأمور كله وانقطاعه عما سواه ، ولا ينافيه تحصيل الاسباب اذا لم يسكن
اليها وكان سكونه الى الله تعالى دونها مجوزاً أن يؤتیه الله مطلوبه من حيث
لا يحتسب دون هذه الاسباب التى حصلها وأن يقطع الله هذه الاسباب عن
مسبباتها سواء كانت جلب نفع متوقع أو لدفع ضرر منتظر أو لإزالة آفة
واقعة ، وسواء كانت مقطوعاً بها كمد اليد الى الطعام ليصل الى فيه ، أو
الشرب لدفع العطش ، أو مظنونة كحمل الزاد للسفر وأخذ السلاح للعدو
واتخاذ البضاعة للتجارة والإدغار لتجدد الإضطراب والتداوى لإزالة
المرض والتحرز عن النوم فى مكن السباع وممر السيل وتحت الحائط المائل
وغلق الباب وعقل البعير ونحو ذلك ، وأما الموهومة كالرقية والطيرة
والإستقصاء فى دقائق التدبير فيبطل بها التوكل لأن أمثال ذلك ليست
بأسباب عند العقلاء ، وليست بما أمر الله بها بل ورد النهى عنها ، على أن
المأمور به الإجمال فى الطلب وعدم الإستقصاء وترك الإستبطاء ، وانما لا

يبطل التوكل بالأَسباب المقطوعة والمظنونة مع أن الله قادر على اعطاء المطلوب بدون ذلك ، لأن الله أبى أن يجرى الاشياء الا بالأَسباب كما قاله الصادق عليه السلام وأحب الله عباده أن يطلبوا منه مقاصدهم بالأَسباب التي سببها لذلك وأمرهم بذلك ، قال الله تعالى : (خذوا حذركم) وقال الله تعالى في كيفية صلوة الخوف (وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم) وقال عز وجل (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) وقال لموسى عليه السلام : (وأسر بعبادى ليلاً) والتحصن بالليل اختفاء عن أعين الأعداء ونوع تسبب ، واختفى نبينا صلى الله عليه وآله وسلم في الغار عن أعين الأعداء دفعا للضرر ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم لأعرابي لما أهمل البعير وقال توكلت على الله : (اعقلها وتوكل) وفي الإسرائيليات (أوحى الله تعالى الى زاهد أردت أن تذهب حكمتي بزهدك في الدنيا أما علمت أنى ان أرزق عبدى بأيدي عبادى أحب الى من أن أرزقه بيد قدرتي) وأوحى الى موسى عليه السلام (ان أردت أن تبطل حكمتي بتوكلك فمن أودع العقاقير منافع الاشياء غيرى) .

(من آداب القيلولة ونافلة الزوال)

ينبغي أن تستعد قبل الزوال لصلوة الظهر فتقدم القيلولة ان كان لك قيام بالليل وسهر في الخير فإن فيها معونة على القيام والصيام ، والقيلولة من غير قيام بالليل كالتسحر من غير صوم بالنهار ، ثم تجتهد أن تستيقظ قبل الزوال وتتوضأ وتحضر المسجد وتصلى التحية وتنتظر الوقت في الحديث (اذا زالت الشمس فتحت أبواب السماء وابواب الجنان وأستجيب الدعاء فطوبى لمن رفع له عمل صالح ،) (وفي رواية) أنها الساعة التي يؤتى فيها بجمعهم يوم القيامة فما من مؤمن يوافق تلك الساعة أن يكون ساجداً أو راكعاً أو قائماً الا حرم

الله جسده على النار ، وينبغي القيام الى الصلوة في أول وقتها فريضة كانت أو نافلة إلا ما استثنى ، فإن لأول الوقت فضلاً على آخره كفضل الآخرة على الدنيا ، وأول الوقت رضوان الله وآخره عفو الله .

وأول ما تفعله عند تحقق الزوال أن تقول : (سبحان الله ولا إله إلا الله والحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيراً) ثم بادر الى الوضوء ، ثم تشرع في نافلة الزوال وهى الثمان ركعات المسماة بصلوة الأوليين وتقول بعد كل ركعتين منها : (اللهم إني ضعيف فقوّني رضاك ضعفي وخذلى الخير بناصيتي واجعل الإيمان منتهى رضاى وباركلى فيما قسمت لى وبلغنى برحمتك كل الذى أرجو منك واجعل لى وداً وسروراً المؤمنين وعهداً عندك) وتصلى الأخيرتين منها بين الأذنين لتفصل بهما بينهما وتقول بعد الإقامة (اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلوة القائمة بلغ محمداً ﷺ الدرجة والوسيلة والفضل والفضيلة بالله استفتح وبالله أستنجح ، وبمحمد أتوجه) اللهم صل على محمد وآل محمد (واجعلنى بهم وجيهاً فى الدنيا والآخرة ومن المقربين) ثم اشتغل بصلوة الظهر راعياً ما راعيته فى صلوة الصبح من الأعمال ، وخافت فى القراءة بما عدا البسملة آتياً بما مر عند نهوضك الى ثانية الصبح ، وانفض من التشهد الأول وسبح التسبيحات الأربع ثلاثاً فإن أضفت اليها الإستغفار فهو أفضل ، أو اقرأ الحمد ثم تكبر للركوع رافعاً يديك واركع واسجد على قياس ما مر ثم انفض وأت بركعة أخرى كذلك ثم تشهد وتسلم وتعقب بالتعقيبات العامة والمختصة بالظهر ، ثم تقوم الى ثمان ركعات نافلة العصر ثم تؤذن وتقيم وتفصل بينهما بسجدة تدعو فيهما بما مر ، ثم اشتغل بصلوة العصر مراعيّاً جميع آداب السابقة

في الظهر ، وآخر ما تدعو به بعد التعقيب أن تقول : « اللهم اني وجهت وجهي اليك وأقبلت بدعائي عليك راجياً اجابتك طامعاً في مغفرتك طالباً ما آليت به على نفسك متنجزاً وعدك اذ تقول : (أدعوني أستجب لكم) فصل على محمد وآل محمد ، وأقبل الى بوجهك وارحمي واستجب دعائي يا أرحم الراحمين) ثم انصرف الى أعمالك ، ثم اذا اصفرت الشمس فتجتهد أن تعود الى المسجد قبل الغروب وتشتغل بالتسبيح والإستغفار فإن فضل هذا الوقت كفضل ما قبل الطلوع قال الله تعالى : (وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب) فإذا تحققت بدخول الوقت أتيت بالكلمات النوحية عشر مرات كما مرّت وتبادر الى صلوة المغرب فإن وقت فضيلتها ضيق ، وتفصل بين أذانها وإقامتها بسكتة أو جلسة تدعو فيها ثم افتتح صلوة المغرب مراعيًا للأداب السابقة وتأتي بعدها بتسبيح الزهراء سلام الله عليها وتقوم الى أربع ركعات نافلة المغرب فإن وقتها ضيق ، فإذا تحققت ذهاب الشفق المغربي فينبغي أن تبادر الى الأذان والإقامة ، ثم اشرع في صلوة العشاء مفتتحاً داعياً كما مر وتطيل القنوت والتعقيب الا اذا كنت اماماً فلا تطيل في القنوت ، ثم تسجد سجدة الشكر وتبالغ فيها بالدعاء والتضرع ثم تصلي ركعتين الوتيرة جالسا وتقرء في الأولى (الملك) أو (الواقعة) وفي الثانية التوحيد ، ثم تقرء الآيتين من آخر البقرة ففي الحديث المعتبر أنهما من كنوز الجنة كتبهما الرحمان بيده قبل أن يخلق الخلق ، من قرئهما بعد العشاء الآخرة أجزأته عن قيام الليل ، وفي رواية ، (من قرئهما في ليله كفتاه) .

(من آداب النوم)

فإذا أردت النوم فابسط فراشك مستقبلاً للقبلة ، ونم على يمينك كما يضطجع الميت في لحده وتقول : (رب ارجعوني لعلّي أعمل صالحاً فيما تركت) واعلم أنّ النوم مثل الموت واليقظ مثل البعث ولعلّ الله يقبض روحك في ليلتك فكن مستعداً للقائه بأن تنام على الطهارة وتكون وصيتك مكتوبة تحت وسادتك ، وتنام بعد أن تحاسب نفسك تائباً عن الذنوب مستغفراً عازماً أن لا تعود إلى معصيته واعزم على الخير لجميع المسلمين أن بعثك الله ، وتذكر أنك مضطجع في اللحد كذلك وحيداً فريداً ليس معك إلا عملك ولا تجزى إلا بسعيك ، ولا يكون نومك أكثر من ثمان ساعات ، وتلتزم صلوة الليل ؛ ففي الصحيح عن الصادق عليه السلام ، (كان في وصية رسول الله ﷺ لعلّي عليه السلام : وعليك بصلوة الليل ، وعليك بصلوة الليل ، وعليك بصلوة الليل) وتقول عند منامك : (يا سمك اللهم أحيي اليك وفوضت أمري اليك وألجأت ظهري اليك ، توكلت عليك رهبة منك ورغبة اليك لا ملجأ ولا منجى منك إلا اليك آمنت بكتابك الذي أنزلت وبرسولك الذي أرسلت) ثم تسبح تسييح الزهراء عليها السلام وتقرأ آية الكرسي ففي الحديث (من قرئها إذا أخذ مضجعه آمنه الله على نفسه وجاره وجار جاره والبيوت حوله) وآخر الكهف (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ أنا الحكم اله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً . ففي الحديث من قرء هذه الآية عند منامه سطع له نور إلى المسجد الحرام حشر ذلك النور ملائكة يستغفرون له حتى يصبح) وفي رواية (ما من عبد يقرأ آخر الكهف حين ينام إلا استيقظ في الساعة التي يريد) وهذا

من المجربات ، وليأخذك النوم وأنت على ذكر الله وعلى الطهارة ، فمن فعل ذلك عرج بروحه الى العرش وكتب مصلياً حتى يستيقظ ، فإن لم تكن على طهارة وبدالك ذلك تيمم بغير فراشك فإنه لا يحلوا من فضيلة وإن وجد الماء ، وإن استيقظت فارجع الى ما عرفته أولاً وداوم على هذا الترتيب بقية عمرك ، فإن شق عليك المداومة فاصبر صبر المريض على مرارة الدواء إنتظاراً للشفاء ، وتفكر في قصر عمرك وإن عشت مائة سنة بالإضافة الى مقامك في دار الآخرة وهى أبد الآباد ، وتأمل أنك كيف تتحمل المشقة والذل في طلب الدنيا شهراً أو سنة رجاء أن تستريح بها عشر سنين مثلاً فكيف لا تتحمل ذلك أياماً قلائل رجاء الإستراحة أبد الآباد ، ولا تطوّل أملك فيثقل عليك عملك ، وقد رقب الموت فإن الموت لا يهجم في وقت مخصوص وسن مخصوص وحال مخصوص ولا بد من هجومه فالإستعداد له أولى من الإستعداد للدنيا الزائلة وإنك تعلم أنك لا تبقى فيها إلا مدة يسيرة ولعله لم يبق من عمرك إلا ساعة أو يوم ، وقرر هذا على قلبك كل يوم وكف نفسك الصبر على طاعة الله يوماً فإني لو قدرت البقاء خمسين سنة وألزمته الصبر لنفرت وإستصعبت عليك فإن عملت هذا فرحت عند الموت فرحاً لا آخر له ، وإن سوفت وتجاهلت جائك الموت بغتة في وقت لا تحسبه وتحسرت حسرة لا آخر لها ، وعند الصباح تحمد القوم السرى ، ولتعلمن نبأه بعد حين

(من آداب يوم الجمعة)

إعلم أن يوم الجمعة عيد المؤمنين ، وهو يوم شريف خص الله تعالى به هذه الأمة وفرض الجماعة في صلوة الجمعة تأليفاً للقلوب وتنظيفاً عن الذنوب وفيه ساعة مبهمة لا يوافيها عبد يسأل الله فيها حاجة إلا أعطاه ،

فينبغي أن تستعد لها يوم الخميس بتنظيف الثياب ، وبكثرة التسبيح والإستغفار
عشية الخميس ليلة الجمعة ، فإذا طلع عليك الفجر من يوم الجمعة تباكراً الى
المسجد بعد حلق الرأس وقص الأظفار وأخذ الشارب والتجنب عن كل
ما ينفر ، والغسل ، والتزين بالثياب البيض فإنها أحب الثياب الى الله ،
والتطيب بأطيب ما عندك ، سعيّاً على سكينه ووقار قائلاً : (اللهم من
تنبأ وتعباً وأعد وإستعد لوفادة الى مخلوق رجاء رفته وطلب نيله وجوازته
وفواضله ونوافله فأليك يا سيدى وفادتى وتهيتى وتعبتى وإعدادى
وإستعدادى رجاء رفدك وطلب نائلك وجوازتك ونوافلك فلا تخيب اليوم
رجائى يا من لا يخيب عليه سائل ، ولا ينقصه نائل فإنى لم آتاك اليوم بعمل
صالح قدمته ، ولا شفاعة مخلوق رجوته ولكن أتيتك مقراً بالظلم
والإساءة الى نفسى لا حجة لى ولا عذر فأستلک يا رب أن تعطينى مسألتى
وتقلبنى برغبتى ولا تردنى مجبوهاً ولا خائباً يا عظيم يا عظيم لا إله
إلا أنت اللهم صل على محمد وآل محمد وارزقنى خير هذا اليوم الذى شرفته
وعظمته وتغسلنى فيه عن جميع ذنوبى وخطاياى وزدنى من فضلك
إنك أنت الوهاب) .

وإعلم أن الناس يتسابقون الى الجنة بقدر سبقهم الى الجمعة ، ثم إذا
دخلت الجامع فاطلب الصف الأول فإن إجتمع الناس فلا تتخط رقابهم ،
ولا تمر بين أيديهم وإجلس بقرب حائط أو اسطوانة حتى لا يمروا بين
يديك ولا تتعد حتى تصلى التحية ، وتنفل بعشرين ركعة زيادة على الأيام
الآخر بأربع ركعات ، وتبالغ بالدعاء وتلاوة القرآن والخضوع ، ومهما
خرج الإمام تقطع الصلوة والكلام وتشغل بجواب المؤذن ، ثم باستماع
الخطبة والإيعاظ بها ، ودع الكلام رأساً فى الخطبة ، وفى الخبر المعتبر

(من قال لصاحبه والإمام يخطب إنصت أو صه ، فقد لغى ومن لغى فلا جمعة له) لأن قوله إنصت كلام فينبغي أن ينهى غيره بالإشارة لا باللفظ ، ثم إفتد بالإمام كما سبق ، فإذا فرغت وسلمت فقتشغل بالتعقيب والاذكار المروية وتلازم المسجد الى العصر أو الى المغرب فتكون حسن المراقبة للساعة الشريفة فإنها مبهمة في جميع اليوم فعساك تدركها وأنت خاشع لله تعالى وتجتهد أن تتصدق في هذا اليوم من الأسبوع خاصاً لآخرتك والله ولى التوفيق .

(مسئلة) يقول المجتهدون في صلوة الجمعة اننا نعلم بوجوبها ونشك في إطلاق موضوع الحكم أو اشتراطه بحضور الإمام فيحكم حينئذ بأصالة الاشتراط للشك في أصل الوجوب في غير مورد الشرط ، أى الوجوب التعيينى لقولهم بالتخير بينها وبين صلوة الظهر في يوم الجمعة وسيأتى بيانه في مسائل الصلوة) .

(من آداب الذكر)

ينبغي للعبد أن يكون من همه ذكر مولاه بل لا يكون له هم سواه فيكون هو غاية مقصده ونهاية مناه ، فيذكره في قيامه وقعوده وأكله وشربه وحركته وسكنائه ، وينبغي أن يكون الذكر بالقلب واللسان والأركان جميعاً ، وأعنى بالذكر بالأركان استيلاء الخشوع عليها استحياء كأنه بين يدى ملك عظيم بحيث يكون كل من نظر اليه يذكر الله بآثار خضوعه وخشوعه وخشيته ، وهذا انما يكون بعد أن يصير الذكر القلبى خلقاً له وديناً ، والذكر اللسانى معين على ذلك بشرط حضور القلب . قال الله تعالى : « فاذكرونى أذكركم » وقال تعالى : (فإذا قضيتم الصلوة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم) قال ابن عباس : أى بالليل والنهار وفى

البر والبحر والسفر والحضر ، والغنى والفقر والمرض والصحة والسر والعلانية ، وقال تعالى : (فإذا قضيتُم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آبائكم أو أشد ذكراً) وقال تعالى : (والذاكرين الله كثيراً والذاكرات) وقال تعالى : (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب) وقال تعالى : (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) وقال عز وجل : (ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) وقال (تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً) وقال سبحانه وتعالى في ذم المنافقين (لا يذكرون الله إلا قليلاً) وقال تعالى : (استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون) وقال تعالى : (لا تلهيكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك أولئك هم الخاسرون) وقال تعالى : (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه) وقال تعالى : (ومن يمش عن ذكر الرحمن نقض له شيطاناً فهو له قرين) وقال تعالى : (فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين) وقال تعالى : (ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أولئك هم الفاسقون) .

وعن الصادق عليه السلام قال قال رسول الله ﷺ (ألا أخبركم بخير أعمالكم أرفعها في درجاتكم وأذكأها عند مليكم وخير لكم من الدينار والدرهم وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتقتلوهم ويقتلوكم قالوا : بلى ، قال : (ذكر الله تعالى كثيراً) ثم قال عليه السلام : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال من خير أهل المسجد فقال ﷺ : (أكثرهم ذكراً) وقال رسول الله ﷺ (من أعطى لساناً ذاكر فقد أعطى خير الدنيا والآخرة) ، وسئل الصادق عليه السلام عن دعاء جامع فقال عليه السلام : (الحمد لله) فإنه لا يبقى أحد يصلي إلا

دعى لك يقول : سمع الله لمن حمده) ، وعن النبي ﷺ : (لو وضعت
كلية لا اله الا الله في ميزان ووضعت السماوات والأرض ومن فيهن كان
لا اله الا الله أرجح من ذلك وهى أحب الكلمات الى الله ومن قالها مخلصاً
دخل الجنة ، واخلاصه بها أن يحجزه عما حرم الله عز وجل ، وما من
مؤمن يقولها الا محت ما في صحيفته من السيئات حتى ينتهى الى مثلها حسنات
وما من عبد يقولها يمد بها صوته فيفرغ الا تنأثرت ذنوبه تحت قدميه كما
يتناثر ورق الشجر ، وهى كلمة التوحيد وكلمة الإخلاص وكلمة التقوى
وهى الكلمة الطيبة وهى دعوة الحق وهى العروة الوثقى وهى ثمن الجنة ،
كل ذلك عن النبي ﷺ ولو أضيف اليه الحى القيوم يرجى أن يكون قد
أتى بالاسم الأعظم ، كما يستفاد من الاخبار المعتمدة ، ولذا قيل : (أفضل
الأذكار قول لا اله الا هو الحى القيوم) وفي الحديث المشهور عن النبي ﷺ
أفضل عبادة أمتى قراءة القرآن) .

(من آداب الصحبة والمعاشرة)

اعلم أن صاحبك الذى لا يفارقك فى حضرك وسفرك ونومك
ويقظتك بل فى حياتك وموتك هو ربك ومولاك وسيدك وخالقك ، ومهما
ذكرته فهو جليسك اذ قال عز وجل : (أأجلس من ذكرنى) ومهما
انكسر قلبك على تقصيرك فى حق دينك فهو ملازمك وصاحبك قال تعالى :
(أنا عند المنكسرة قلوبهم) فلو عرفته حق المعرفة لا اتخذته صاحباً وتركت
الناس جانباً ، فإن لم تقدر على ذلك فى جميع أوقاتك فإياك أن تخلى ليلاك
ونهارك عن وقت تخلوا فيه بمولاك وتتلذذ معه بمناجاته وعند ذلك فعليك
أن تتعلم آداب الصحبة مع الله عز وجل ، وأدبها ، إطراق الطرف وجمع
الفكر ، وتوحيد الهمم ، ودوام الصمت ، وسكون الجوارح ، ومبادرة

الامر ، وإجتنب النهي ، وقلة الاعتراض على القدر ودوام الذكر ،
وملازمة الفكر ، وإيثارك الحق ، والياس من الخلق ، والخضوع تحت
الهيبة ، والإنكسار تحت الحياء والسكون عن الحيل ، والإستعانة
من الله) .

ثم إعلم أن الناس في حقت ثلاثة أصناف ، إما أصدقاء وإمامعارف
وإما مجاهيل ، بأن بليت بالعوام المجهولين ، فأدب مجالسة العامة ترك
الخوض في حديثهم وقلة الإصغاء الى أراجيفهم والتغافل عما يجري من
سوء ألفاظهم والإحتراز عن كثرة لقائهم والحاجة اليهم ، والتنبيه على
منكراتهم باللطف ، والنصح عند رجاء القبول منهم ، وأما الإخوة والأصدقاء
فعليك في حقهم وظيفتان (احديهما) أن تطلب أولاً شروط الصحبة
والصدافة فلا تواخ إلا من يصلح للأخوة قال رسول الله ﷺ : (المرء
على دين خليله) فلينظر أحدهم من يخال ، فإذا طلبت رفيقاً ليكون شريكك
في التعلم وصاحباً في أمر دينك ودنياك فراع فيه خمس خصال ، (الأولى)
العقل فلا خير في صحبة الأحمق فأحسن أحواله أن يضرك وهو يريد أن
ينفعك ، (الثانية) حسن الخلق فلا تصحب من ساء خلقه وهو الذي لا يملك
نفسه عند الغضب والشهوة ، وإصحب من إذا خدمته صانك وإن صحبته
زانك وإن قعدت بك مؤنة مانك ، وإصحب من اذا مددت يدك بخير مدها
وان رأى منك سيئة سدّها (الثالثة) الصلاح ، فلا تصحب فاسقاً مصرأ
على معصية كبيرة لأن من يخاف الله لا يصر على كبيرة قال الله تعالى : (ولا
تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه) (الرابعة) أن لا يكون حريصاً
على الدنيا فصحبة الحريص على الدنيا سمّ قاتل لأن الطبع يسرق من الطبع
من حيث لا يدري ، (الخامسة) الصدق ، ولا تصحب كذاباً فإنه مثل

السراب يقرب منك البعيد ويبعد منك القريب ، (الوظيفة الثانية) مراعاة
 حقوق الصحبة ، فمضى انتظمت بينك وبين رفيقك الصحبة فعليك حقوق
 الصحبة وفي القيام بها آداب ، قال النبي ﷺ : مثل الأخوين مثل اليدين
 تغسل احديهما الأخرى (ودخل ﷺ أجمة واجتنى منها سواكين أحدهما
 معوج والآخر مستقيم وكان معه بعض أصحابه فأعطاه المستقيم وأمسك
 لنفسه المعوج فقال : يا رسول الله ﷺ انك أحق بالمستقيم مني فقال
 ﷺ : ما من صاحب يصحب صاحباً ولو ساعة من نهار الا سئل عن
 صحبته هل أقام فيه حق الله تعالى أو أضاعه ، وقال ﷺ : (ما اصطحب
 اثنان قط الا وكان أحبهما الى الله تعالى أرفقهما بصاحبه) ، ومن أدب
 الصحبة الإيثار بالمال فإن لم يمكن فبذل الفضل من المال عند الحاجة والإعانة
 بالنفس في الحاجات على سبيل المبادرة من غير حاجة الى الإلتماس ، وكتبان
 السر وستر العيوب والسكوت عن تبليغ ما يسوئه من مذمة الناس إياه
 وإبلاغ ما يسره من ثناء الناس عليه ، وحسن الإصغاء عند الحديث وترك
 المماراة فيه وأن يدعو به بأحسن أسمائه اليه وأن يثنى عليه بما يعرف من
 محاسنه وأن يشكره على صنيعه في حقه وأن يذب عنه في غيبته اذا تعرض
 لعرضه كما يذب عن نفسه وأن ينصحه باللطف والتعريض اذا احتاج الى
 ذلك ، وأن يعفوا عن زلته وهفوته ، ولا يعتب عليه ، وأن يدعو له
 في صلوته في حياته وبعد مماته وأن يحسن الوفاء مع أهله وأقاربه بعد موته
 وأن يؤثر التخفيف عنه فلا يكلفه شيئاً من حاجاته وأن يظهر الفرح بجميع
 ما يتاح له من مساره ، والحزن بما ينال من مكارهه ، وأن يضمر مثل ما
 يظهر فيكون صادقا في وده سراً وعلناً ، وأن يبدئه بالسلام عند اقباله ،
 وأن يوسع له في المجالس ويخرج له عن مكانه ، وأن يشيعه عند قيامه وأن

يصمت عند كلامه حتى يفرغ من خطابه ويترك التدخل في كلامه ، ويعامله بما يجب أن يعامل به فمن لا يجب لأخيه ما يجب لنفسه فأخوته نفاق (وأما الصنف الثالث) وهم المعارف فاحذر منهم فإنك لا ترى الشر الا ممن تعرفه ويعرفك ، أما الصديق فيعينك ، وأما المجبول فلا يتعرض لك ، وإنما الشر كله من المعارف الذين يظهرون الصداقة بألسنتهم فأقلل من المعارف ما قدرت فإذا بليت بهم في مدرسة أو مسجد أو سوق أو بلد فيجب أن لا تستصغر منهم أحداً فإنك لا تدري لعله خير منك ولا تنظر اليهم بعين التعظيم لهم في ما لهم من الدنيا فتهلك لأن الدنيا صغيرة وحقيرة عند الله ، وإن عادوك فلا تقابلهم بالعداوة واقطع طمعك عن ما لهم وجاههم ومعونتهم وإذا رأيت منهم كرامة وخيراً فاشكر الله الذي حببك اليهم وإن رأيت منهم شراً فكلهم الى الله عز وجل واستعذ بالله من شرهم ولا تعاتبهم .

(من آداب الولد مع والديه)

ان كان لك والدان فأدبك معهما أن تستمع كلامهما وتقوم اقيامهما وتمثل أمرهما ولا تمشي أمامهما ولا ترفع صوتك فوق صوتهما وتلبى دعوتهما وتحرص على طلب مرضاتهما ، وتخفض لها الجناح ولا تمن عليهما بالبر لها ولا بالقيام بأمرهما ولا تنظر اليهما شراً ولا تقطب وجهك في وجههما ولا تسافر الا بإذنهما

وأما حق امك فإن تعلم انها حملتك حيث لا يحتمل أحد أحداً ، وأعطتك من ثمرة قلبها ما لا يعطى أحد أحداً ووقاك بجميع جوارحها ولم تبال أن تجوع فتطعمك وتعطش وتسقيك وتعري وتظلك وتضحى وتهجر النوم لأجلك ووقاك الحر والبرد ، وانك لا تطيق شكرها الا بعون الله

عز وجل وتوفيقه .

وأما حق أبيك فإن تعلم أنه أصلك ولولاه لم تكن فهمارأيت في نفسك ما يعجبك فاعلم أن أباك أصل النعمة عليك فاحمد الله واشكره ولا قوة الا بالله) .

(من آداب الصوم)

ولا تظنن اذا صمت أن الصوم هو ترك الطعام والشراب والوقاع ففي الحديث (كم من صائم ليس له من صيامه الا الجوع والعطش بل تمام الصيام بكف الجوارح كلها عما كره الله تعالى) بل ينبغي أن تحفظ العين عن النظر الى المكاره واللسان عن النطق بما لا يعينك ، والأذن عن الإستماع الى ما حرم الله فإن المستمع شريك القائل ، وكذلك تكف البطن والجوارح قال الصادق عليه السلام : (اذا صمت فليصم سمعك وبصرك وشعرك وجلدك) وعداً أشياء غيرها ، وزاد في خبر آخر (ودع المرء وأذى الخادم وليكن عليك وقار الصيام فإن رسول الله ﷺ سمع امرئة تسب جاريتها وهي صائمة فقال لها : كلى فقالت : انى صائمة فقال ﷺ : كيف تكونين صائمة وقد سببت جاريتك ؟ ان الصوم ليس من طعام وشراب) .

وفي الحديث النبوى ﷺ : (انما الصوم جنة من النار ، فإذا كان أحدكم صائماً فلا يرفث ولا يجهل ، وان امرء قاتله أو شتمه فليقل انى صائم انى صائم) ثم اجتهد أن تفطر على طعام حلال ، ولا تستكثر فتزيد على كل ليلة . فلا فرق اذا استوفيت أن تأكله دفعة أو دفعتين ، وانما المقصود كسر شهوتك وتضعيف قوتك لتتقوى بذلك على التقوى ، فإذا أكلت في عشتك ما تداركت به ما فاتك في نهارك فلا فائدة في صومك وقد ثقلت

معدتك وما من وعاء أبغض الى الله من بطن مليء من حلال ، فاذا عرفت معنى الصوم فاستكثر منه ما استطعت فإنه أساس العبادات ومفتاح القربات ففي الحديث « قال الله تعالى : كل حسنة بعشر أمثالها الى سبعمائة ضعف الا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به » وقال ﷺ : (والذي نفسي بيده لخلق فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ، يقول الله عز وجل :) (انما يذر شهوته وطعامه وشرابه لأجل الصيام لي وأنا أجزي به) ولا ينبغي أن تقتصر من الصيام على صوم شهر رمضان فترك التجارة بالنوافل وكسب الدرجات العالية في الفردوس فتتحسر اذا نظرت الى الصائمين كما تنظر في الدنيا الى الكوكب الدرى وهم في أعلى عليين ، فمن الأيام المتأكدة صيامها أول خميس من كل شهر وآخر خميس منه وأول أربعاء من العشر الثاني فإنها تعدل صوم الدهر وتذهب بوسوسة الصدر وهى جميع ما جرت به السنة في الصوم ، وعليها قبض رسول الله ﷺ فإن فاتتك تقضيها فإن لم تفعل تصدق في كل يوم بمد من طعام ، ومن التطوع صيام أول ذى الحجة ويوم الغدير ودحو الأرض ، فيعدل كل منها صوم ستين شهراً ، والاول الى تمام التسع صوم الدهر ، ويوم المولد والمبعث ورجب وشعبان أو ما تيسر منهما ، فإن رجب شهر أمير المؤمنين عليه السلام وشعبان شهر رسول الله ﷺ وان رمضان شهر الله تعالى .

(من أسرار تشريع الصوم)

الصوم مبده أدنى سام ومواساة شاملة ومساواة كاملة لمختلف الطبقات أمام القانون الإلهي . وعبادة اسلامية كفيلة بتقوية عامة المسلمين تبعث فيهم لغة الإحساس التى بها تنبعث من صميم نفس الصائم عاطفة ليست فى

طوق اللغة ولا يغنى في تذوقها الوصف فتخلق في النفوس عناصر الشفقة والرحمة والرأفة والحنان والإيثار الى جانب عناصر الرجولة الكاملة فيهم وروح المفاداة في سبيل اعلاء شأن الدين والمسلمين والدفاع عن العقيدة بقوة الإرادة ورباطة الجأش والقدرة على مغالبة الشهوات ومكافحة الأهواء والتدريب على الخشونة ، وتوهم النفوس للخصال الكريمة والمكارم السامية والمبادئ الاجتماعية القويمة التي هي الهدف المقصود للأديان الإلهية وللإنسانية ، وينبه القلوب لضرورة التكافل بين الأقوياء والضعفاء وبين الأغنياء والفقراء وبذلك يحصل التضامن الإجتماعي ويتوحد الشعور العام فيتحملون بجلد وصبر أشد المحن وأعظم الكوارث ويندفعون الى التضحية في سبيل البر واقامة أعمال الخير من فيض فضل الله عليهم .

الصوم بمركزه الديني وهيبته الأدبية له شأن عظيم في تحديد صنوف المتاع المادى وتوجيه العقول والأذواق الى صالح الفرد في ضمن صالح المجتمع ، وتكوين أمة ذات غرض انساني سام متزنة الجوانب لا تطغى فيه الخشونة والأثرة على الرأفة والشفقة والإيثار ، والثمرة النهائية لهذه العبادة الدينية التي يقصد بها التقرب الى الله تعالى توحد الوجهة واجتماع الكلمة وقيام دولة الحق عل وجه الأرض .

(المطلب السابع)

(التعليم في الإسلام)

وردت آيات في القرآن الكريم في فضل العلم والتعليم .

(منها) قال الله تعالى في سورة العلق ، وهى أول ما نزل على نبينا

ﷺ في قول أكثر المفسرين : (إقرء باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، إقرء وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم) فافتتح كلامه المجيد بذكر نعمة الإيجاد ، وأتبعه بذكر نعمة العلم ، فلو كان بعد نعمة الإيجاد نعمة أعلى من العلم والتعليم لمكانت أجدر بالذكر .

و (منها) قوله تعالى : (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب) .

و (منها) قوله تعالى : (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) .

و (منها) قوله تعالى : (وقل رب زدنى علماً) .

و (منها) قوله تعالى : (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم) .

و (منها) قوله تعالى : (وما يعقلها إلا العالمون) .

و (منها) قوله تعالى : (بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم) .

و (منها) قوله تعالى : (ومن يؤتى الحكمة فقد أوتى خيراً) والحكمة ما يتضمن صلاح النشأتين من العلوم والمعارف .

و (منها) قوله تعالى : (إنما يخشى الله من عباده العلماء) .
و (منها) قوله تعالى : (وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون
في العلم الخ) .

و (منها) قوله تعالى : « ولقد كرّمنا بني آدم ، ومنشأ كرامة الإنسان
ومنسب شرفه على سائر أنواع الحيوان نفسه الناطقة المجردة ذاتاً والمفتقرة
في تدبيرها وتصرفها الى البدن المادى والممتازة بالعقل المتدرج من درجة
الإستعداد الى درجة الفعلية المعبر عنها بالمستفاد ، فالعلم كمال للنفس الناطقة
وكمال العلم بالعمل به حسب إقتضاء الفطرة الإنسانية للكمال الأتم أعنى كمال
الروح والعقل والبدن ، الذى تستهدفه التشريعات الإسلامية ؛ ولهذا نجد
في تعاليم الاسلام فرض العلم والحث عليه ووجوب العمل بالعلم ، ومن
هنا يظهر أنه ليس في العلوم بعد المعرفة أشرف من علم الفقه لأن مدخليته
في العمل للآخرة والعمل للدنيا التى هى في نظر الاسلام مزرعة للآخرة
أقوى مما سواه ، فهو الناطم لأمور المعاش ولأمور المعاد ، وبه يتم كمال
نوع الانسان ، فيجب على الفقيه تصحيح القصد وإخلاص النية وتطهير
القلب من دنس الأغراض الدنيوية وتكميل النفس في قوتها النظرية والعملية
وتزكيتها بإجتناّب الرذائل وإقتناء الفضائل الخلقية وقهر القوتين الشهوية
والغضبية ، وإلا حق عليه قول رسول الله ﷺ : « أنا من غير الدجال
أخوف عليكم من الدجال ، فقيل : وما هو ؟ قال ﷺ (العلماء السوء) .
(وأما السنة) فهمى في فضل العلم ، ووجوب العمل به ، والتعلم لا
تكاد تحصى ، وقد أفرد في أصول الكافي كتاب فضل العلم ، وضمنه باب
فرض العلم ووجوب طلبه والحث عليه ، روى فيه بأسناده عن ابى عبد الله
عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ألا

وان الله يحب بغاة العلم ، ويدل هذا الحديث النبوى على أن وجوب التعليم والتعلم فى الاسلام عام يشمل كل فرد من أفراد الأمة الاسلامية حتى الموالى والصناع ، وروى أيضاً عنه عليه السلام أنه قال : « ان العلماء ورثة الانبياء ، وأن الانبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهما ولكن ورثوا العلم فمن أخذ منه أخذ بحظ وافر ، يعنى يصرفون الدرهم والدينار فى مصارفها فى حياتهم ولا يبقى شئ منهم بعد الموت حتى يصير ميراثاً ، والمراد منه مثل الدرهم والدينار مما فيه خساسة لا مثل الآثواب والآلات مما روى بقاءه بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ميراثاً لأهل البيت عليهم السلام ، (وروى) عن على بن الحسين عليه السلام قال : « لو يعلم الناس ما فى طلب العلم لطلبوه ولو بسفك المہج وخوض اللجج ، » .

(وروى) فى باب النوادر ، عن ابى عبد الله عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال : جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما العلم ؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم : الانصات ، قال : ثم مه ، قال صلى الله عليه وآله وسلم : الاستماع ، قال : ثم مه ، قال صلى الله عليه وآله وسلم : الحفظ ، قال : ثم مه ، قال صلى الله عليه وآله وسلم : العمل به ، قال : ثم مه ، قال صلى الله عليه وآله وسلم : نشره .

ويستفاد من هذا الحديث النبوى الشريف الذى هو برنامج كامل لمنهاج التعليم والتعلم فى الاسلام ان الانصات استعداداً للتعلم واستماع الدرس ، من أسباب ايقاظ الانتباه الحقيقى فى نفس المتعلم وتشويق له الى التعلم ، و (الانتباه) توجه الطاقة العقلية الى أمر محسوس أو معقول بدافع ارادى أو غير ارادى) ، وهو شرط أساسى لا بد منه فى مطلع منهاج التعليم الاسلامى ليكون المدرك واضحاً جلياً فى التعلم ثم يحصل بالاستماع فهم موضوعات الدراسة فهماً صحيحاً متقناً ، وترتيب المعانى والأفكار فى الذهن

ترتيباً منطقياً ، ومضاهاة الحقائق وقياس بعضها الى بعض فيسهل حفظه بعد الاستماع ، وحفظ العلم هو العلم الحقيقي الذي هو كال للنفس الناطقة ، وقد وجد في التجارب أن من يستعد لعمل من الأعمال ويستجمع قواه قبل البدء فيه يعمل به بسرعة واتقان سيما اذا كان الشروع فيه متوقفاً على انذار أو اعلام من شخص آخر كالمدرس مثلاً .

وفي الحديث دلالة على أن التعليم لا يقتصر على مجرد الاصغاء والاستماع ، وفهم الدرس بل يتدرج في تمرين عملي يبدء بالحفظ وترسيخ مادة الدرس في الذهن ثم العمل به ، فإن ثمرة العلم العمل الصالح ، وثمره الأدب العقل الراجح ، ثم تعليمه ونشره .

(وروى) في باب فرض العلم ووجوب طلبه والحث عليه) عن ابى عبد الله عليه السلام قال : (لوددت أن أصحابي ضربت رؤسهم بالسياط حتى يتفقهوا) .

(وروى) عن محمد بن مسلم قال : قال ابو عبد الله عليه السلام : (لو أتيت بشاب من شباب الشيعة لا يتفقه لأدبته) . (وروى) عن اسحاق بن عمار قال : (سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : « ليت السياط على رؤس أصحابي حتى يتفقهوا في الحلال والحرام ، » .

(وروى) عن ابى جعفر عليه السلام قال : (عالم ينتفع بعلمه أفضل من سبعين ألف عابد) (وروى) عن حفص بن غياث قال : قال لى ابو عبد الله عليه السلام : (من تعلم العلم لله ، وعمل به ، وعلم لله ، دُعى في ملكوت السماوات عظيماً ، فقليل تعلم لله ، وعمل لله ؛ وعلم لله) (وروى) عن ابى جعفر عليه السلام قال : (الكمال كل الكمال التفقه في الدين ، والصبر على النائية ، وتقدير المعيشة) . (وروى) عن ابى عبد الله عليه السلام قال : « العلم مقرون الى العمل

فمن علم عمل ، ومن عمل علم ، والعلم يهتف بالعمل فأن أجابه والا ارتحل عنه ، (وروى) عنه عليه السلام ، قال : (ان العالم اذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلوب كما يزل المطر عن الصفا) .

(وروى) عن هاشم بن البريد عن أبيه قال : جاء رجل الى علي بن الحسين عليهما السلام فسأله عن مسائل فأجاب ، ثم عاد ليستل مثلها ، فقال علي بن الحسين عليه السلام : « مكتوب في الانجيل ، لا تطلبوا علم ما لا تعلمون ولما تعملوا بما علمتم ، فإن العلم اذا لم يعمل به لم يزد صاحبه الا كفراً ولم يزد من الله الا بعداً » (وروى) عن ابي عبد الله عليه السلام ، قال : « اذا رأيتم العالم محباً لدنياه فإتهموه على دينكم ، فإن كل محب لشيء يحوط ما أحب ، وقال عليه السلام : « أوحى الله الى داود عليه السلام لا تجعل بيني وبينك عالماً مفتوناً بالدنيا فيصدك عن طريق محبتي ، فإن أولئك قطاع طريق عبادى المرادين الى ، ان أدنى ما أنا صانع بهم أن أنزع حلاوة مناجاتي عن قلوبهم ، (وروى) عن حدثه عن ابي جعفر عليه السلام قال : « من طلب العلم ليباهي به العلماء أو يمارى به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس اليه فليتبوء مقعده من النار ، ان الرياسة لا يصلح الا لأهلها ، ، (وروى) عن سليم بن قيس قال : سمعت أمير المؤمنين عليه السلام ، يقول : قال رسول الله ﷺ : « من هو مان لا يشبعان طالب دنيا وطالب علم ، فمن اقتصر من الدنيا على ما أحل الله سلم ، ومن تناولها من غير حلها هلك الا أن يتوب ويرجع ومن أخذ العلم من أهله وعمل به نجى ، ومن أراد به الدنيا فهى حظه ، . (وروى) عن ابي عبد الله عليه السلام قال : (من أراد الحديث لمنفعة الدنيا لم يكن له فى الآخرة نصيب ، ومن أراد به خير الآخرة أعطاه الله خير الدنيا والآخرة) .

(من آداب المتعلم مع العالم)

(روى) عن ثابت بن دينار الثمالى عن سيد العابدين على بن الحسين ابن على بن ابى طالب عليهم الصلوة والسلام ، قال عليه السلام : (حق سايسك بالعلم التعظيم له والتوقير لمجلسه وحسن الإستماع اليه ، والإقبال عليه وأن لا ترفع عليه صوتك ولا تجيب على أحد يسئله عن شىء حتى يكون هو الذى يجيب ولا تحدث فى مجلسه أحداً ولا تغتاب عنده أحداً وأن ، تدفع عنه إذا ذكر عندك بسوء ، وأن تستر عيوبه وتظهر مناقبه ، ولا تجالس له عدواً ولا تعادى له ولياً فإذا فعلت ذلك شهد لك ملائكة الله تعالى بأنك قصدته وتعلمت عليه لله جل اسمه لا للناس .

وحق رعتك بالعلم أن تعلم أن الله عز وجل إنما جعلك قيما له فى ما آتاك من العلم وفتح لك من خزائنه فإن أحسنت فى تعليم الناس ولم تخرق بهم ولم تضجر عليهم زادك الله عز وجل من فضله ، وإن أنت منعت الناس من علمك أو خرقت بهم عند طلبهم منك كان حقاً على الله عز وجل أن يسلبك العلم وبهائه ويسقط من القلوب محلك .

(وروى) عن ابى عبد الله عليه السلام قال : كان على عليه السلام يقول (إن من حق العالم أن لا تكثر عليه السؤال ولا تأخذ بشوبه ، وإذا دخلت عليه وعنده قوم فسلم عليهم جميعاً وخصه بالتحية دونهم ، وإجلس بين يديه ولا تجلس خلفه ، ولا تغض بعينيك ولا تشر بيدك ولا تكثر من القول قال فلان وقال فلان خلافاً لقوله ولا تضجر لطول صحبته ، فإنما مثل العالم مثل النخلة حتى تنظرها متى يسقط عليك منها شىء ، والعالم أعظم

أجرًا من الصائم القائم الغازي في سبيل الله تعالى وإذا مات العالم ثلم في الإسلام ثلمة لا يسدها شيء إلى يوم القيامة) .

(وروى) عن أبي الحسن موسى عليه السلام قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المسجد فإذا جماعة قد أطافوا برجل ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : ما هذا ؟ فقيل : علامة ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : وما العلامة ؟ فقالوا له : أعلم الناس بأنساب العرب ووقائعها وأيام الجاهلية والأشعار العربية ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم (ذاك علم لا يضر من جهله ولا ينفع من علمه) ، ثم قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : (إنما العلم ثلاثة ، آية محكمة ، أو فريضة عادلة ، أو سنة قائمة ، وما خلاهن فهو فضل) وهذه الكلمة النبوية العظيمة هي الأساس الإسلامي في الموازنة بين قيم العلوم ، وتفاوت درجاتها حسب كون بعضها ضرورياً والبعض الآخر كالياً ، وتقدر منزلة العلوم ودرجاتها بالنظر إلى مبلغ تأثيرها في حصول الغاية المنشودة منها في الإسلام .

(وروى) في الروضة من الكافي : عن عبد الرحمان بن سيابة قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام جعلت لك الفداء ، إن الناس يقولون : إن النجوم لا يحل النظر فيها ، وهي تعجبني ، فإن كانت تضر بديني فلا حاجة لي في شيء يضر بديني ، وإن كانت لا تضر بديني فوالله إني لأشتهيها وأشتهي النظر فيها ، فقال عليه السلام : ليس كما يقولون ، لا تضر بدئك ، ثم قال عليه السلام (إنكم تنظرون في شيء منها ، كثيره لا يدرك وقليله لا ينتفع به ، تحسبون على طالع القمر الخ) .

(مناهج التعليم وأساليبه)

إن الميل إلى تعلم العلم طبعي ، ومنشأه غريزة حب الإطلاع الفطرية

فكان من اللازم أن يفرضه الإسلام على جميع المسلمين لأنه دين الفطرة والطبيعة والروح والعقل .

ولما كان القرآن عند المسلمين كافة منبع الدين وأساس العلوم الإسلامية بعد تمييز محكماته عن متشابهاته بالسنة الصحيحة جعلوه أصلاً في التعليم وأساساً في التربية عند العرب والمسلمين وإتفقوا على ذلك وإن اختلفوا في بعض مناهج التعليم ومواده في مكاتب الصبيان والمدارس الابتدائية على حسب اختلاف أمصارهم وأقطارهم .

فأهل المغرب يقتصرون في تعليم أولادهم على مدارس القرآن وأخذهم برسمه وقرأاته المختلفة ، ولا يخلطون ذلك بسواه من حديث أو فقه أو شعر أو أخبار إلى أن يحذقه الوليد ويجاوز حد البلوغ إلى الشبيبة وكذلك يسيرون على هذا المنهج مع الكبير الذي يراجع مدارس القرآن بعد طائفة من عمره ، ومن هنا كان أهل المغرب أقوم على رسم القرآن وحفظه من سواهم .

وأهل الأندلس يعلمون القرآن وليكنهم لا يقتصرون عليه في تعليم الولدان ، بل يخلطون به رواية الأخبار ورواية الشعر والترسل وقوانين العربية والكتابة وتجويد الخط وكذلك الحساب وتقويم البلدان ، ولم تكن عنايتهم بالقرآن بأكثر من عنايتهم بغيره ، على أنه من المقطوع به أن عنايتهم بالخط كانت تفوق عنايتهم بكل شيء سواه ، وكان الغلام عندهم لا يجاوز البلوغ إلى الشبيبة إلا وقد شدا بعض الشيء في العربية والشعر والبصر بهما ، وبرز في الخط والكتابة وتعلق بأذيال العلم على الجملة .

أما أهل المشرق (العراق وما جاورها من البلاد الإسلامية) فكانوا

يخلطون في التعليم كأهل الأندلس ، الا أنهم يختلفون عنهم من جهتين ،
(أوليهما) أن عنايتهم بمدرسة القرآن كانت تفوق عنايتهم بالعلوم الأخرى
(وثانيتهما) أن الخط لم يكن من الفنون التي يخط تعليمها بتعليم القرآن ،
وانما كانت له معاهد ومعلمون على انفراد كسائر الصناعات ؛ ولذلك لم
تبلغ خطوط الولدان في المكاتب حد الإجادة ، ومن أراد أن يجود خطه
ابتغى ذلك عند أهل صنعته .

ونحن قد نوهنا في المطلب الأول بأن مناهج الإسلام وأساليبه في
التعليم والتربية والأخلاق ، وأنظمتها في الإقتصاد والإجتماع والحقوق
والسياسة ونحوها متناسقة ومتآلفة لدرجة الإعجاز ، فإن الإسلام لا
يفصل في تشريعاته بين الجسم والروح والعقل بل يأخذها مترابطة في واقع
الحياة وفي المطالب والحاجات ويرسم لها دستوراً على هذا المتحد ويجارى
الفطرة في تركيبها المجموعى ويعالج في تشريعاته حاجات النفوس وحاجات
العقول وحاجات الأبدان في وقت واحد وبعمل واحد ، ثم أوضحناه في
المطلب الثالث .

وعلى هذا الأساس شرع منهاج التعليم والتربية في الكتاب والسنة
لأعداد المرء لعمل الآخرة والدنيا التي هي في نظر الإسلام مزرعة الآخرة
والغرض والمقصد منه تهذيب النفوس وتحصيل مكارم الفضيلة .

ويدل عليه أن النبي ﷺ أرسل لهداية الناس وتعليمهم وتأديبهم
بأدب القرآن فكان ﷺ أول معلم في الإسلام وقد أثر عنه بالتواتر أنه
قال : (بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) فعلى المعلم أن يقتصر بالمتعلم على
قدر فهمه واستعداده اقتداءً في ذلك بسيد البشر ﷺ فانه قال : (نحن
معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ونكلم الناس على قدر عقولهم)

وهذا هو المقصد الذى تنسب اليه العلوم لى يؤثر القريب على البعيد والمهم على غيره ، ومعنى المهم ما يهمك وما يهم مجتمعك ، ولا يهمك الا شأنك فى الدنيا والآخرة وشأن مجتمعك .

فالترتيب فى دراسة العلوم ضرورى ، (وتوضيحه) أن النفس الناطقة الإنسانية بعد وجودها وفى مرحلة بدء الفطرة المعبر عنها فى مصطلح الفلسفة بمرتبة العقل بالملكة مستعدة لجميع الكمالات التى يمكن حصولها لها ، وفيها قوة تحصيلها بمحرك خارجى يحركها نحو كمالها المطلوب ، وهذا المحرك هو المعلم وتلك الحركة هى التعليم والتعلم . وذلك الكمال هو العلم ، فالعلم كمال للنفس الناطقة المجردة ذاتاً وصفة إبداعية لها ، والنفس مفطورة لطلب الكمال مطلقاً أى أنواع العلوم ، والدين الإسلامى حث على طلب العلم وجعله فريضة على كل مسلم ، وجعل من اللازم رعاية الترتيب فى تعلم العلوم لأن العلم بمثابة الغذاء للروح والنفس الناطقة ، فكما أن أغذية الجسد تختلف بالمناسبات فالصالح من الأغذية للشباب لا يصلح للطفل ، والصالح للصحيح لا يصلح للمريض والصالح للزاج القوى لا يصلح للزاج الضعيف فكذلك العلوم يجب تعليمها وتعلمها حسب استعداد المتعلم بروحه ونفسه ومحيطه وبيئته ورعاية الأصلح منها فالأصلح وتقديم الأهم منها فالأهم ، وبعبارة أخرى : الجهل مرض نفسى ونقص خلقى فلا بد فى علاجه بالتعليم والتعلم من رعاية إعداد نفس المتعلم ومنزلتها فى القوة والضعف ، فليس علاج الطفل مثل علاج البالغ ؛ وليس علاج الشاب مثل علاج الشيخ ولا يجوز أن يصدر المعالج الحكيم أحكاماً خلقية أو تعليمية متساوية على المختلفين فى غرائز النفوس وإعدادها ، وهذا سر تقسيم دراسة العلوم الى ابتدائية ومتوسطة وعالية ، وهو السبب لرعاية الأقدمين الترتيب الطبعى

فى موضوعات العلوم ، لىكى يتكون للتعلم فى العلم المقدم السابق فى المرتبة إستعداد تحصيل العلم اللاحق على وجه يترتب عليه الأثر المطلوب منه ، ولأجل ذلك إلزم الحكماء والفلاسفة بتقديم تهذيب الأخلاق وتقويم الفكر بتعلم بعض العلوم من رياضىة وغيرها على الشروع فى دراسة علم المنطق وقدموا دراسة المنطق على دراسة الفلسفة ، وقدموا الفلسفة الطبعىة على العلم الإلهى . ومن إهمال هذا الترتيب تورط الرياضى المعاصر الشهير أنىشتاين فى الحيرة وتجاهل الأصول الموضوعة فى العلوم .

فظهر من هذا البيان أن منهاج التعليم الإسلامى فى ترتيب العلوم ، والموازنة بين قيمها وأقدارها يتخذ غاية التربية الإسلامىة أساساً للموازنة ، وغاية هذه التربية إعداد الإنسان لعملى الدنيا والآخرة معاً على أصول التوازن فى جوانب أركان الفطرة ، فىبحث هذا المنهاج على دراسة جميع العلوم حتى العلم الطبعى بأوسع معانيه لأنه أجدى فى معرفة آثار صنع الله عز وجل ، وبهذا الأسلوب الربانى تكون فائدة الموضوعات التى ترمى دراستها الى تحصيل المعارف النافعة فى الحياة فى مستوى فائدة الموضوعات التى تقصد من دراستها تمرين القوى العقلية ، فىتأيد بعلوم الطبعىة أيضاً تمرين القوى العقلية على إختلاف أنواعها ، ويصل بها الإنسان الى مطلوبه من تهذيب ورفعة وإرتقاء ، فإن هذا المنهاج يتخذ من العناية بمعرفة ظواهر الطبعىة وآثارها ، ومواد العلوم والمعارف المأخوذة عن الطبعىة وسيلة لمعرفة آثار صنع الصانع الحكيم تعالى شأنه ، وتكون العلوم الطبعىة التى يجرى تعليمها طبق المنهاج الإسلامى قوة إسلامىة وأسلحة عصرىة ترهب أعداء الله وأعداء الإسلام والإنسانىة ، قال الله تعالى : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) ولعدم رعاية هذا المنهاج القويم فى التعليم جعلت هذه العلوم الطبعىة مدارك

التلامذة مهبط الوسوس . ومخازن الدسائس ، وقد يستحيلون الى زناقة ملحدين يخرّبون بيوتهم بأيديهم وهم لا يشعرون ، وتكون علومهم ناراً محرقة تحرق عواطفهم وعقائدهم ومكارمهم فيخسرون الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين ، ويتسابقون الى الشر مسيرين لا مخيرين وهم يظنون أنهم مخيرون لا مسيرون ، لقد عميت عليهم المسالك وهم لا يفقهون ويساعدهم سير هذا القرن الذى إمتاز بخوارق الإختراعات وتقديس المادة وإكتشاف بعض أسرارها تلك الخوارق التى فتقت أذهان الناس وخلقت عالماً متكوناً من الفوضى فى الأخلاق والأفكار والعقائد ووجهت أفكار مختلف طبقات الناس الى التفكير الحر وعدم الإذعان بشيء مما لا يقبله العقل ولا يساعد عليه الحس ، فقويت فيها نزعات الشك وإنذكت أسس العقائد وبذلك تبدل أسلوب التفاهم ، وكاد أن ينقطع جيل الصلة بين رجال الدين وسائر طبقات الناس ، وإن النقص فى أسلوب تأليف الكتب الدينية ومنهاج التعليم الدينى أوجب إختفاء أسرار التشريع وفلسفة الدين فقصرت عقول الناس عن نيل حقيقتها الواضحة الغامضة ، وأوجد ذلك حيرة عميقة فى النفوس ، فانفسح المجال لأعداء الدين لقلب الحقائق الاسلامية والتلفيق فيها وإفراغها فى غير صورها وتلوينها بغير ألوانها حتى تشابهت بالاديان الأخرى التى لا يستفاد منها الا فى المعابد ، فاتخذها جمع من بسطاء المسلمين معتقدين بأنها التعاليم الاسلامية ، ومجموع ذلك بعث ألسن الناس بتقيص الدين والقول بأنه يعطل التفكير والابداع ويدعوا الى الجور والانحطاط ويصطدم بأسباب الرقى والتقدم ، ويخالف الحياة فى جميع نواحيها ، فتكونت عند المسلمين قضايا معقدة تجب المسارعة الى حلها ، اذ حلها وتحليلها تشع تعاليم الاسلام ، ويثبت نظام الأمم الاسلامية ، وارتباط

بعضها ببعض ، ويحصل التفاهم المنشود ، ولا يستطيع أن يحلها الا من كان من الراسخين في العلم الذين لهم المعرفة الشاملة الكاملة القائمة على مقررات العقل السليم الفطرى ، والبحث العلمى والتفكير الحر ، والاحاطة بسر عظمة الاسلام وأسرار كتابه المعجز الخالد وسنة رسوله الخاتم ﷺ ومعرفته نفسيات البشر ومقومات الامم ، فيصوغ تعاليم الاسلام وفلسفته فى أسلوب جذاب مؤثر لا ينتابه جمود ولا غموض ، مراعيأ فى تسجيلها ما ألفته طباع أهل العصر ، وجمهور المتعلمين من المسالك الحديثة ، لكي تكون منيرة أخاذة بالألباب راسخة فى النفوس مسيطرة على المشاعر ، فسيرنا فى التعليم على النهج القديم الذى كثرت فيه العقبات ، وتشعبت فيه المشكلات وتنوعت فيه التعقيدات ، لا يعد سيراً موصلاً للأهداف السامية ، ولا سفيراً مؤدياً الى الغايات الرفيعة ، وهذا الاصلاح لا يستوحى من الخيال ولا يفرض من قوة خارجة عما هو الموجود ، انما هو يجب أن يكون وليد الحقيقة وصنيع المؤثرات الاجتماعية والفكرية ومقتضيات الأحوال مطابقاً لما ورد فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فان تعاليم الاسلام ثابتة الى الأبد ولا يجوز احداث تعديل فيها ، (حلال محمد ﷺ حلال الى يوم القيامة وحرامه حرام الى يوم القيامة) فيجب ان تؤخذ كما هى عليه .

(المطلب الثامن)

الأخلاق الإسلامية

الأخلاق في الإسلام مكارم سامية ، ومثل عليا ممتازة عن الأخلاق المقررة في سائر الأديان والعلوم والأمم بأنها منبثقة من نفحات النفس النبوية القدسية وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . مخاطبة بقوله تعالى : « إنك لعلی خلق عظیم » ومركزة على التربية الإسلامية وأصولها وآدابها وآثارها الممتزجة بمزاج المسلم ، ومبنتية على أساليب التعليم الإسلامي في توجيه غريزة الأخلاق التي هي فطرية للإنسان نحو تلطيف السر بأنواع العبادات والرياضات الروحية لمحاولة أن تكون الأخلاق الفاضلة مزاجا وطبيعة للمسلم وخاصة للمزاج والطبع فتصدر منه الفضيلة على نحو صدور الأفعال الطبيعية من الطبيعة من دون حاجة الى قصد الفضيلة والشعور بها ، فالأخلاق العالية في الإسلام ليست على شكل يكون الإنسان معها فاضلا فحسب كما هو الحال في أخلاق سائر الأديان والأمم ، بل هي على شكل لا يمكن أن يكون إلا كذلك ، فالأخلاق التي هي أعمال الفضيلة عند الأمم والأديان السابقة لا تكون كافية في الإسلام إذا كان يصحبها القصد الأخلاقي فإنها بذلك تكون متكلفة سرعان ما تحور إذا وجدت الدوافع عنها والجواذب الى منافياتها ، فالمسلم الحقيقي يصدق في قوله لا لأن الصدق فضيلة فحسب ، بل لأنه كذلك ينبغي أن يكون ، لأنه ما أدرك هذا الصدق الا في نطاق الطبع الخالص الذي يجري بنفسه من نفسه ، والمسئلة عفيفة لأنها كذلك ينبغي أن تكون بطبيعتها المتأصل في بنائها الأخلاقي فكأن العفة في دمها وروحها ، فصدق المسلم وما تكلف صدقا ووفى وما

تكلف وفاء ، وهكذا يتمشى القول في سائر المكارم والفضائل ، فالعدالة مثلاً للمسلم طبع متأصل في بنيانه الأخلاقي كأنها مادة ركب منها بنيانه الجسماني في جملة ما ركب منه فكأنها في دمه وروحه ، المسلم لا يقول بحسن العدل والصدق مثلاً فيعمل ، بل يعمل ثم يقول ، والقول يجري من طبيعة العمل الذي يعمل بالطبع ، والشعور الذي يحس ، والحياة التي يحيي ، وبهذا نجح المسلمون الأولون في نشر الإسلام بسرعة فائقة خاطفة في مختلف الأمم والبلاد التي فتحوها في صدر الإسلام ، فالمسلم الحقيقي فاضل وذو أخلاق حسنة عصباً ودماً قبل أن يكون كذلك في الميل والشعور ، فالأخلاق في المسلم ليست كيفية نفسانية راسخة وملكة فحسب ، بل طبيعة ومزاج تكونت بالتربية الإسلامية المشفوعة بعنايات شارع الإسلام المخصوصة بإعداده المعدات التكوينية لاستعداد قبولها ، وترسخت في كيانه بأساليب التعاليم الإلهية والطقوس المقررة من خالق النفس الأمانة بالسوء وموجد الطبع البشري ، فتركيب المسلم الصحيح أستوى على مثل عليا من الفضيلة وأعمالها من مكارم الأخلاق ، فهو لا يجاوزها إلا إذا لم يكمل تركيبه الإسلامي ، أو نقص منه شيء أفسد على طبيعته آثارها وخواصها ، وأفسد خلقه ودينه لقوله وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ : « الخلق وعاء الدين » ، وحينئذ يقتصر بالدرجة الثانية أو الثالثة من الأخلاق الإسلامية التي سنذكرها ، وبهذه الأخلاق الإسلامية السامية انتشر الإسلام بسرعة خارقة انتشاراً هائلاً لم يشهد التاريخ مثله ، وعليها ارتكز التبليغ العملي في صدر الإسلام وبها امتد تأثير التعاليم الإسلامية إلى الأصول الموروثة والمبادئ الممتزجة بالارواح ، والعقائد الراسخة في نفوس الأمم ، والسارية فيها مسرى الحياة الطبيعية فقلبت رأساً على عقب ، وهذه الأخلاق هي المقصود من قوله وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

« بعثت لاتمم مكارم الاخلاق ، يعنى أن الاخلاق كانت فى الأديان الالهية السابقة ولكن الاسلام أتمها لتدوم صورة كمالها فى العالم الى الابد ، وهى المرادة بقوله تعالى فى سورة هود عليه السلام : « واستقم كما امرت ومن تاب معك ولا تطغوا ، وقال ابن عباس : (ما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم آية كانت أشد ولا أشق من هذه الآية) ، ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم لأصحابه حين قالوا له أسرع اليك الشيب يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « شيبني هود والواقعة ، ولعل السر فى ذلك هو أن الاستقامة المطلوبة فيها من المسلمين أريد بها أعلى درجات العدالة الحقيقية التى هى الطبيعة الدافعة نحو الخير والفضيلة ، ودرجة الاعتدال الواقعى فى القوى : الشهوية ، والغضبية ، والعقلية ؛ وهى متاخمة لمستوى العصمة ، ولعمروى ان هذه الدرجة لا تنال الا بشق الأنفس ، فإذا كانت هذه هى الاخلاق اللازمة للمسلمين كافة فكيف تكون أعلى مثلها العليا المخصوصة بالائمة الطاهرين سلام الله عليهم أجمعين المنتقلة أنوار ذواتهم القدسية من أصلاب طاهرة الى أرحام مطهرة نعم هى العصمة ذاتها العاصمة عن صدور كل خطأ أو خطيئة عنهم صلوات الله عليهم فمن الغريب استغراب بعض الغفلة أو اعتراضهم على الاعتقاد بعصمتهم وذلك لان عقيدة الشيعة الامامية أن الامامة منصب الهى فلا بد لهم من القول بعصمة الائمة المنصوبين من الله تعالى فإن المنسوب من الله لا يجوز ان يخل بواجب أو يفعل قبيحاً ، والالم يجوز نصبه فيجب أن تكون له ملكة تردع عن ارتكاب الخطأ والخطيئة وهذا هو المراد بالعصمة ولا يعرف الشخص المتصف بالعصمة الا المطلع على السرائر ، ومنه يظهر أن نصب الامام ليس من أفعال غير الله تعالى .

(واقعية لا مثالية)

ليس ما ذكرناه في الأخلاق الإسلامية نظرية مثالية غير قابلة للتطبيق بل هي واقعية وعملية ومسجلة في التاريخ ، وتجلى هذا النوع الممتاز من الأخلاق في مجاهدى المسلمين حيث دارت شربة الماء بين جماعة من الجرحى فى حومة الوغى كل واحد يؤثر بها أخاه الصريع الى جنبه حتى قضوا كلهم على الظماء ، (فى مجمع البيان) فى تفسير قوله تعالى : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، أنها نزلت فى سبعة عطشوا فى يوم أحد ، فجاء بماء يكفى لأحدهم فقال واحد منهم : ناول فلاناً حتى طيف على سبعتهم وماتوا ولم يشرب أحد منهم ، فأثنى الله سبحانه عليهم وعن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ يوم بنى النضير للأنصار (لو شتمت قسمن للمهاجرين من أموالكم ودياركم وتشاركونهم فى هذه الغنيمة ، وإن شتمت كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يقسم لكم شيء من الغنيمة) فقال الأنصار : (بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها) فنزلت : (ويؤثرون على أنفسهم . وقيل نزلت فى رجل جاء الى رسول الله ﷺ فقال : أطعنى فإنى جائع فبعث ﷺ الى أهله فلم يكن عندهم شيء فقال ﷺ : من يضيفه فى هذه الليلة ؟ فأضافه رجل من الأنصار فأتى به منزله ولم يكن عنده الا قوت صبية له ، فأتوا بذلك اليه وأطفأوا السراج وقامت المرأة الى الصبية فعملتهم حتى ناموا وجعلاً يمضغان ألسنتهما لضيف رسول الله ﷺ فظن الضيف أنهما يأكلان معه حتى شبع الضيف وباتا طاويين ، فلما أصبحا غدوا الى رسول الله ﷺ فنظر اليهما فتبسم وتلى هذه الآية ، وأما الذى رويناه بإسناد صحيح عن أبى هريرة ، أن الذى أضافه ونوّم الصبية

وأطفأ السراج على ﷺ وفاطمة ﷺ (انتهت عبارة مجمع البيان) .
وروى في الصحيح ، (استولى المجاهدون من المسلمين على خزائن
كسرى وكان مما غنموه تاجه وأساوره ومناطقه وطوسه وكؤوسه وما
الى ذلك من خصائصه وصفائيه وكلها من الذهب غارقة بما تعرق من
الاحجار الثمينة والياوقيت التي يخطف الابصار لمعانها وتستوعب خزائن
الدنيا أثمانها ، فحملوها من المدائن الى المدينة دون أن يغل أو يرزه منه
شيء حتى وضعوه بين يدي الخليفة فأدهشته أمانتهم أكثر مما أدهشته
غنيمتهم ، فقال : ان أمة تؤمن على مثل هذا لتؤديه لحرية بأن
تسود الامم) .

(ودخلت أم عقبة على بعض أمراء المسلمين ومعها ولدها فطلبت
أن يصرفه في بعض أعماله فجعله في وظيفة الاستخبار ، فعادت اليه
بعد أيام وقالت له : أيها الأمير ، الجوع الكريم خير من الشبع اللثيم
فقال لها : وما ذاك ؟ قالت : ان عاملك وكله بالنميمة يحصيها على
المسترسل ويهتك المستر وقد تحاماه الناس وتناذروه فإذا لم يكن
غير هذا تركته ولم أتعرض لما فيه مقت الله ومقت الناس) هذه
غرائر جمهرة المسلمين ، ومكارم أخلاقها وظواهر طباعها ، والأعم
الأغلب من خلائقها ، وما كان على خلافه فهو من النادر والنادر
لا حكم له .

(أنواع الاخلاق الاسلامية)

يلزم التنبيه على أن الاسلام لكونه ديناً عاماً خالداً قرر النطاق الواسع
في تعاليمه واكتفى بالمقدور لكي تسع العالم الانساني أجمع ، قال الله تعالى
(لا يكلف الله نفساً الا وسعها) فلهعبادة مثلاً أنواع ثلاثة ، قال أمير

المؤمنين ﷺ : (ان قوماً عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار ، وان قوماً عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد وان قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار) وكل هذه الانواع صحيحة ومجزية في مقام الامتثال ولكن الفرق في درجات الآخرة .

وكذلك الحال في الأخلاق فإنها على ثلاثة أنواع (الاول) ما مرببانه وهو المثل الاعلى للأخلاق والفضائل ، والمتصف به خير بالطبع وفاضل بالغريزة وسعيد من مبدء حياته ، ومتجنب عن الرذيلة الى نهايه الحياة ، ورأس الفضيلة في هذا النوع الاعلى محبة الله تعالى وسنشير الى فضائل المحبة وأنها أفضل من العدالة التي هي رأس الفضائل في النوعين الآخرين ، والعدالة عبارة عن مجموع العفة والشجاعة والحكمة ، فان الحاجة الى العدالة في المحافظة على النوع إنما تنشأ من فقدان المحبة ، ويستغنى عنها بحصول المحبة بين جماعة إذ لا يحتاج مع المحبة الى الانتصاف بين الأحبة والمتصفون بهذا النوع من الأخلاق هم أهل البصيرة السامية الذين يتطلبون الكمال من ناحيته الثابتة المستقرة ، وعن وسائله الشريفة المستتينة ولا شك في أن كمال الإنسان الثابت وجلاله النفسى الخالد هو ما ينبعث عن الذات في حدود الذات ، وأما ما يحكيه المظهر فإنه كمال زائف ، وأما الفضيلة الثابتة وجمال النفس وصوت الضمير فتلك هي الحقائق الكاشفة للكمال المترجمة عن جلال الجمال ، ووسيلة الكمال الحقيقي الثابت منحصرة في هذا النوع من مكارم الأخلاق والمتصف بهذا النوع من الفضائل هو : صاحب الخلق الكامل .

(النوع الثانى) أن لا تكون هذه الفضائل بالطبع ولا في مبدء الحياة بل يطلبها بالسعى والجهد والرغبة والاختيار ، ويحصلها بالمواظبة على

موجبات الفضيلة والتجنب عن أسباب الرذيلة المبينة في علم الأخلاق الذي هو قسم من الحكمة العملية الإسلامية ، فالعفيف مثلاً في هذا النوع من الأخلاق يبعثه إلى إثبات فضيلة العفة في أفعاله عليه بأن العفة زينة القوة الشهوية التي يمتنع بقاء الشخص وبقاء نوع الإنسان بدون هذه القوة ، وأنه يجب أن تتحلى الشهوية بزينة العفة في أعمالها لغرض الكمال فقط من دون شائبة غرض آخر من جرّ نفع أو دفع ضرر ، ويكتفى بقدر الحاجة من تناول كل صنف من المشتبهات المحللة على وجه تقتضيه المصلحة ، والسخي هو ذو العاطفة الكريمة إن زاده الله بسطة في المال عرف الله تعالى فضله وشكر له بره ، وبذل من فضل ماله للبرّساء والمعوزين في إعانة ملهوف وإعانة مكروب ، فيجمع إلى محبة الله تعالى ثناء الناس عليه وهو بعد الظاهر الفائز إن تنقص الصدقة من ماله قال الله تعالى : (وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين) والأعلى منهم درجة ، الذين يؤثرون على أنفسهم ، وهم الأسخياء في النوع الأول .

(النوع الثالث) لمن لا بد من إكراهه بتأديب شرعي أو تعليم جبري على الفضائل وإجتناب الرذائل ، ولا يخلوا غرضه من الشوائب . وهذان النوعان مبينان في الكتب الأخلاقية والفلسفية الإسلامية وفي الكتب الفقهية من الطهارة إلى الديات على كيفية يظهر جلياً للمتأمل فيها مقصد النبي ﷺ في قوله : (بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) فقد صرح بعض الفقهاء في كتاب الطهارة بأن الطهارة على قسمين ؛ طهارة الباطن ، وطهارة الظاهر ، وطهارة الباطن إما من جريمة الجوارح ، أو ذميمة القلب أو شغل السر بما سوى الله تعالى ، وطهارة الظاهر إما من الخبث أو التفت أو الحدث ، ثم إن كانت لواجب فقرض وإلا فنفل ، وورد (الطهور

نصف الإيمان) والنصف الآخر هو القيام بالطاعة ظاهراً وباطناً والباطن هو الأصل والآثم ، والسلف كانوا يبالغون فيه فيتسائلون عن دقائق عيوبه ولكن لطهارة الظاهر أثر في تنوير الباطن لإرتباط الملك بالملكوت ، وموجبات طهارة الباطن ثلاثة أمور (الأول) جرائم الجوارح ، وهي كل ما يخالف حكم الله تعالى من فعل أو ترك ، وينقسم الى حقه تعالى ، والى حق العبد ، وحق العبد أغلظ لأنه لا يترك ، والى كبيرة وصغيرة ، وتكفر الصغيرة بإجتنب الكبيرة ، والكبيرة ما أوجب الله عليه النار ، والإصرار على الصغائر من الذنوب كبيرة ، والإصرار هو أن لا يستغفر ولا يحدث نفسه بتوبة ومثله إستحقار الذنب .

والطهارة عن الجريمة اما بالتوبة وحدها ، أو مع التدارك أو الحد ، أو التعزيز ، أو كليهما ، أو الجميع ، وذلك بحسب أصناف الجرائم . (والتوبة) تبرئة القلب عن الذنب والرجوع من البعد الى القرب ، وهي مقبولة مع تحقق شروطها بلا شك ، وهي أن تكون لله سبحانه لا لمال أو جاه ، أو خوف من سلطان أو عدم أسباب ، وأن يتندم وأن يعزم على عدم العود ، أما الندم فغير مقدور ، وهو التوبة حقيقة ، وحقها أن يعترف فورداً (الإعتراف بالذنب كفارة) ويتدارك الفرائض ، ويرد المظالم ، ويذيب اللحم النابت من الحرام بالحزن ، ويذيق النفس مرارة الطاعة كما أذاقها حلاوة المعصية ، ويغسل ثيابه ويغتسل ، ويصلي ما أراد في موضع خال ، ويضع وجهه على الأرض والتراب ، بدمع جار وقلب حزين وصوت عال ، ويذكر ذنوبه واحداً واحداً ، ويلوم نفسه ويوبخها ويرفع يديه حامداً مصلياً داعياً مستغفراً ، وتصح التوبة عن بعض الذنوب مع الرجحان ككونه أفحش ، أو العقاب عليه أصعب والتدارك أشق ، وتقيد نقصان العقوبة لا

النجاة لأنها بترك الكل ، (والتدارك) في حقه تعالى القضاء والكفارة وفي حق العبد رد المال الى المالك أو وارثه مبالغاً في التبليغ إن أمكن . والا فالعزم عليه ، أو التصديق عن المالك مع اليأس ، وعرض الإقتصاص في جناية النفس والطرف أو الدية أو الاستعفاء في الجميع والارشاد في الاضلال وعند العجز فتكثير الحسنات بحسب المظالم ، وفي مثل الغيبة والسب والإيذاء فالإستعفاء مع البلوغ اليه والإستغفار له مع عدمه ، أو الذكر المفصل مع الاعتذار إلا أن يزداد التأذى بالإظهار فالذكر المبهم تحامياً عن ذنب آخر وينبغي المبالغة في الإستعفاء بالتلطف والتودد والإحسان فإن لم يعف يجبرها بحسنة في مقابلته ، وكذلك يفعل لو كان ميتاً أو غائباً مع الإستغفار له ، (وأما الحدود والتعزيرات ومطهرات الجنائيات) وهى القصاص والديات فلتطلب تفاصيلها من كتب الفقه .

(الأمر الثانى) ذمايم القلب ، وهى الأخلاق السيئة المائلة عن الوسط العدل الذى هو الصراط المستقيم فى الدنيا إما الى الافراط (كالشره) فى القوة الشهوية (والتهور) فى القوة الغضبية (والجربرة) فى القوة العقلية ، أو الى التفريط ، (كالخود) فى الشهوية (والجن) فى الغضبية (والبله) فى العقلية .

وتنقسم على (أمهات مهلكات) كحب الدنيا ، والشح المطاع والهوى المتبع ، والاعجاب بالنفس ، (ومنشعبات منها) كالغضب والحقد والحسد والكبر والغرور والرياء والنفاق والبخل والسرف والحرص والاصرار والكفران والأمن واليأس والجحود والقسوة والجهل والحق والخرق والعجلة والجزع والمسكر والحمية ، وغير ذلك (والتطهير) عن كل منها بتحصيل ضده المحمود ، (كالعفة) وهى حد الاعتدال والوسط فى القوة

الشهوية (والشجاعة) وهى حد الوسط والاعتدال فى القوة الغضبية (والحكمة) وهى الحد الأوسط فى القوة العاقلة ، وبمجموع العفة والشجاعة والحكمة تسمى (بالعدالة) ، وكالزهد ، والكرم ، والبصيرة ، الرافعة للأهيات وكالرضا والعفو والتسليم والتواضع والانتباه والاخلاص والسخاء والتوكل والتوبة والشكر والخوف والرجاء والتصديق والرافة والعلم والفهم والرفق والتؤودة والصبر وسلامة الصدر ، والانصاف والحياء التى يازاء تلك الفروع ، وذلك بأن يتذكر آفات تلك الرذائل ، وما ورد فى ذمها ومدح أضرارها المحمودة ، ويكلف النفس على الطرف المحمود بالأعمال والأفعال المستحسنة له بالاعتقاد حتى تقف على الاعتدال ، فكما أن الرذائل يجر بعضها بعضاً فكذلك الفضائل .

وينبغى التنبيه على أن مداخل الشيطان التى يأتى من قبلها ثلاثة (الشهوة) (والغضب) (والهوى) فالشهوة بهيمية آفة ؛ لكن الغضب أعظم منها ، والغضب سبعة آفة ، لكن الهوى أعظم منه ، والهوى شيطانية . فقله تعالى : (إن الصلوة تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى) الفحشاء آثار الشهوة وفاعلها ظالم لنفسه ، و (المنكر) آثار الغضب وصاحبه ظالم لغيره ، و (البغى) آثار الهوى ويتعدى ظلمه الى حضرة جلال الله . ثم لها نتائج فالحرص والبخل نتيجة الشهوة ، والعجب والكبر نتيجة الغضب ، والبدعة نتيجة الهوى ، فإذا اجتمعت هذه الستة فى بنى آدم تولد منها سبع وهو الحسد ، وهو نهاية الأخلاق الذميمة ، كما أن الشيطان هو النهاية فى الأشخاص المذمومة ، ولهذا السبب ختم الله تعالى مجامع الشرور الانسانية بالحسد .

(الأمر الثالث) تطهير السر عما سوى الله تعالى ، وهو إنما يحصل

بمحبة الله عز وجل ومعرفته ، فورد عن المعصومين عليهم السلام (حب
 الله إذا أضاء على سر عبد أخلاه عن كل شاغل وكل ذكر سوى الله) وهذه
 المحبة أعظم المقامات وأهم المهمات وألذ الذات (لا يؤمن أحدكم حتى يكون
 الله ورسوله أحب إليه مما سواهما) (والمحبة بمعناها العام) ميل النفس الى
 الموافق (فالأدنى) المطعم (ثم) المنكح ، (ثم) الجاه ، (ثم) العلم ،
 ويعرف بترك الأدنى وإستحقاقه عند وجدان الأعلى ، واستكراه البعض
 العلم للنقص كإستكراه المريض المطعم ، والصبي المنكح ، والعلم بالله تعالى
 أشرف العلم إذ شرفه بشرف المعلوم ، (وسبب المحبة) الكمال ، فهو محبوب
 طبعاً ، ومن ثمة حب العالم والصالح والجمال ، والكلام البليغ والإحسان
 ولا كمال إلا لله تعالى ، ولا إحسان إلا منه ، (والأعلى) أن يحب الله
 لذاته ، وهو من المواهب ، ثم للكمال ، ثم للإحسان ، (وآثارها) الشوق
 والانس والإنبساط والقرب والإتصال ، (وعلاماتها) كتمانها وحب
 اللقاء والإطاعة والتلذذ بالعبادة والمصيبة ، والحرص في الخلوة والمناجاة
 وبغض الدنيا إلا للآخرة ، والوحشة من الخلق ، وإتحاد الهم ،
 (وطريقها) السلوك وإتباع الرسول ﷺ « قل إن كنتم تحبون الله
 فاتبعوني يحببكم الله » (لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا
 أحببته كنت له سمعاً وبصراً وقلباً ويداً ورجلاً) وهو بلزوم الضوء فإنه
 ينور القلب ، والخلوة وهي تفرغ عن الشواغل ، والسكوت فهو يلقح
 العقل على الاعتدال ، والإفراط شاغل كالتهريط ، ونفي الخواطر فإنها
 شاغلة ، وأكل الحلال والذكر الدائم ، والتسليم لله تعالى في كل
 حال ، فانه الموفق والمعين .

وأما المحبة بمعناها العام التي سببها طلب الشرف والفضيلة والكمال ،

فهى على نوعين (الأول) طبيعية كمحبة الأم لولدها مثلاً ، (والثانى) إرادية وأقسامها أربعة : (الأول) ما كان سريع العقد وسريع الإنحلال (والثانى) ما كان بطيء العقد وسريع الإنحلال ، (والثالث) ما كان سريع العقد وبطيء الإنحلال ، (والرابع) ما كان بطيء العقد وبطيء الإنحلال ، وذلك لأن مقاصد أصناف الناس منشعبة الى أربعة (الأول) اللذة (الثانى) النفع (الثالث) الخير (الرابع) المربك من مجموع هذه والأول سبب المحبة التى تنعقد سريعاً وتنحل سريعاً . والثانى سبب للمحبة التى تنعقد بطيئاً وتنحل سريعاً (والثالث) سبب المحبة التى تنعقد سريعاً وتنحل بطيئاً (والرابع) سبب المحبة التى تنعقد بطيئاً وتنحل بطيئاً

(العدالة)

معنى لفظ العدالة هو الانصاف ، وفى اللغة (عدل عدلاً ومعدلة أنصف ودلالاتها على هذا المعنى مثبتة على معنى المساواة ، وفى اللغة (عدل فلاناً بفلان سوئاً بينهما) (مكان سوى - وسط بين الطرفين) وتعقل المساواة بدون إعتبار الوحدة فى المتساويين غير ممكن .

والوحدة درجات أعلاها الوحدة الحقة الحقيقية ، المخصوصة بالمبدء الأول عز وجل فهو جلّت قدرته واحد حقيقى . وسريان آثار الوحدة منه تعالى الى الوحدات الامكانية يشابه إفاضة أنوار الوجود منه جل شأنه على الموجودات وميزان شرف كل موجود إمكاني قربه من الوحدة ، فكذلك الحال فى المساواة فلقد قرر فى علم التأليف أن نسبة المساواة أشرف النسب ، وبرهن فى علم الأخلاق على أن العدالة أكمل الفضائل وليست فضيلة أكمل منها ، لأن العدالة هى الوسط الحقيقى الكامل وما سواها

طرف أو في حكم الطرف وإن كان وسطاً نسبياً ، كالشجاعة مثلاً فإنها
وسط بين التهور والجبن ، وإعتدال بين طرفي الافراط والتفريط في القوة
الغضبية ولكنها وحدها ليست وسطاً كاملاً فإن لم تجتمع مع العفة والحكمة
كانت في حكم الطرف ، وكذلك الحال في العفة فإنها وسط بين الشره
والخنول ، أى بين الافراط والتفريط في القوة الشهوية ولكنها وحدها
بدون الحكمة والشجاعة في حكم الطرف ، وكذلك الحكمة وسط بين الجربزة
والبله أى الافراط والتفريط في القوة العاقلة ، ولكنها بدون العفة
والشجاعة كالتطرف ، وإذا اجتمعت الثلاثة وهى الحكمة والعفة والشجاعة
تحققت العدالة من اتحاد مجموعها وصارت وسطاً حقيقياً كاملاً ، فالوحدة
كما أنها أساس المساواة ، والمساواة أساس العدل ، كذلك الوحدة هى
المقتضية للشرف في الوجود وموجبة لثبات الموجودات في العالم وقوامها
وإاعتدال ظل الوحدة يرتفع الوجود من حضيض النقصان والذليلة الى
ذروة الكمال وفضيلة الثبات ، والاعتدال قوام دائرة الوجود في العالم ،
فتولد المواليد الثلاث من عناصرها مشروط بامتزاجات معتدلة بالعكس
والانكسار لكي تقبل صورة وحدانية ويكون للمركب مزاج واحد
مكان الامتزاج .

ثم ان نسبة المساواة اما (متصلة) وهى التى توجد في المثاليين والمائلة
عبارة عن الاتحاد في الجوهر أو في العرض كالكمية مثلاً ، (واما منفصلة)
وهى التى في غير المثاليين من أنواع المنتسبات على اختلاف الوجوه ،
كالنسبة العددية والنسبة الهندسية والنسبة التأليفية ونحوها ، (وأما العدالة
الارادية) المتبعة في الأمور المقتضية لنظام الحياة والمعيشة التى الإرادة
مدخلة فيها فهى على ثلاثة أنواع (النوع الأول) ما يتعلق بقسمة الأموال

والكرامات (والنوع الثانى) ما يتعلق بأقسام المعاملات والمعاوضات
(والنوع الثالث) ما يتعلق بأمر للإعتداء دخل فيها ، كالتعزيزات
والتأديبات والحدود والسياسات . والنوع الأول : شبيه بنسبة المساواة
المنفصلة ، وأما اختصاص شخص معين بمال مخصوص أو كرامة مخصوصة
فبيانها فى مباحث الاقتصاد والاجتماع أنسب ، والنوع الثانى على قسمين
(القسم الأول) شبيه بالمنفصلة كما لو يقال نسبة هذا البزاز لهذا الثوب
كنسبة هذا الكرسي لهذا الزجاجة مثلا ، فلا حيف فى المعاملة ، (والقسم
الثانى) يشبه المتصلة ، مثل : نسبة هذا الثوب الى هذا المبلغ من الدرهم
كنسبة هذا الكرسي الى هذا المبلغ فلا يوجد حيف فى المعاوضة فلا يوجد
حيف فى المعاوضة بين هذا الكرسي وهذا الثوب ، وذلك لأن المبلغ
(العملة) مقياس المالية وميزانها ، والمالية كمية معنوية ، كما أن الميزان
المتعارف فى العيار ميزان الكمية الحسية والمقدارية ، فبالمبلغ أى الدرهم
والدينار يتعين التساوى أى العدل فى المعاوضات ، ولكن الدينار أو
الدرهم عدل صامت يحتاج فى التطبيق الى عادل ناطق وهو الحاكم ، والحاكم
أيضا يحتاج الى قانون الهى قائم على الاعتدال الحقيقى ، فنواميس العدل
العدل ثلاثة : (الناموس الأكبر) وهو الدين الالهى والقانون
الاسلامى (والناموس الأوسط) ، وهو العادل الناطق الامام
الحاكم المعين بالقانون . الالهى (والناموس الأصغر هو الدرهم
والدينار ، .

قال الله تعالى : : وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط
وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس . .

(المطلب التاسع)

الاقتصاد الاسلامى

النظام الإقتصادى فى الإسلام أبدع نظام وأكمله وهو وليد القوانين الطبيعية والفكرية مرعياً فيه قانون التكامل الذى هو أهم هذه القوانين وأعمها تأثيراً ، ولا ريب فى أن روعة أسلوب القواعد والقوانين الإسلامية فى الإقتصاد لإبتنائها على الفطرة الإنسانية القائمة بمجموع الروح والجسد والعقل ، وحاجاتها المتنوعة ، ستبقى حافظة رونقها ومزيتها أبداً ، لأنها الأساس القويم فى بناء علم الاقتصاد مهما يكن نصيبها فى المستقبل من تبدلات هذا العلم وتطور آرائه وقواعده ، لأن الأمور الاقتصادية تسير فى الإسلام طبقاً للقوانين الطبيعية والفطرية الثابتة التى يصح تطبيقها فى كل زمان ومكان .

وضع الإسلام القواعد والمناهج التى ينبغى للبشر أن يراعوها لأجل تسيير مصالحهم الاقتصادية على أفضل مثال ، وللوصول إلى النتائج المرغوبة والسعادة المنشودة ، وغرضه الأهم منها دفع الفقر وإزالته عن المجتمع الإسلامى ، فعالج الفقر المادى بتشريعه الزكاة والخمس والصدقات والكفارات والاحسان والقرض وأمثالها ، وبتحريمه الربا والغش ومنعه الاحتكار ، وعالج الفقر الخلقى الذى هو أهم الأمراض الاجتماعية بتعليمه المشهور المأثور عن النبى ﷺ : بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) ، والكلمات المأثورة فى

الاسلام أمثال : (كاد الفقر أن يكون كفراً) (الدنيا مزرعة الآخرة)
(انما الأعمال بالنيات) أكبر محرض لتوفير الانتاج وتعمير مزرعة الآخرة
فمن الباطل الزعم القائل أن القول المأثور في الاسلام (حب الدنيا رأس
كل خطيئة) يمنع الانتاج ويدعوا الى الفقر ، لأن هذا القول بانضمام
الكلمات المأثورة المذكورة جميعاً تثبت المثل الاعلى للإقتصاد وهو النفع الذى
يجتمع مع العدل والأخلاق ، فلو لا القول المأثور المانع عن حب الدنيا ،
لكانت الكلمات المأثورة في الاسلام المحرصة على الانتاج على شاكلة
الاقتصاد فى سائر الملل ، ولو لا تلك الكلمات المأثورة لكان القول المانع
عن حب الدنيا خلقاً وإيجاداً للفقر ، فمجموعها تقرر الاقتصاد الاسلامى
الجامع بين المنفعة وبين العدل ومكارم الأخلاق ، وتهذيب النفس والروح
مع تكميل سعادة الجسم والمجتمع ، فهو يمزج بين المادة والروحيات بقصد
الخير من المنفعة ، ويجمع بين الأثرة والإيثار ، فالإقتصاد الاسلامى
معجزة تنحل بها المشكلات الاقتصادية ، فإنه لا يبقى مشكل مع سيطرة
الأخلاق والإيثار والعدل على المنفعة والأثرة .

ولا يصح فى الإسلام أن تترك الشؤون الاقتصادية العامة وشأنها
تتخبط فى ديجور الطبيعة الدامس ، بل تقتقر الى سياسة رشيدة مستندة
الى العقل السليم والى ملكة الاجتهاد فى الفقه الاسلامى تنير طريقها ،
وتسيرها فى اتجاه صالح للوقت والزمن جرياً على سنن الرقى والتقدم ، مع
تجنب التدخل العميق فى فروع هذه الشؤون وشعبها ، ولأن ذلك لم
يعارض الاسلام حرية الأفراد من الوجهة الاقتصادية ، فلكل فرد أن
يبدل أقصى جهوده فى توفير الانتاج بكل ما يناله بمساعيه وأعماله وقواه
وغرائزه ويملكه شرعاً وله أن يستملكه فيما يشاء ويختار من وجوه الخير

والصلاح بعد اخراج الحقوق الشرعية الواجبة منها .

ولماذا يستنكر أن يكون البشر غير متساوين من الوجهة الاقتصادية وهم غير متساوين في أجسامهم وقواهم وعقولهم وغرائزهم وسائر مواهبهم الطبيعية ، وإن عدم المساواة الاقتصادية علاوة على ذلك هو شرط الرقي الاجتماعي ، لأن الرغبة في الوصول الى المساواة هي المحرض الكبير في الانتاج ، وإذا أراد الشارع أن يتصدى لتأسيس المساواة وتوطيدها بين الناس في امتلاك الثروة فهو لا يستطيع سوى ايراث الأضرار والخسائر للهيئة الاجتماعية نفسها ، والمساواة الوحيدة التي ستتحقق حينئذ في الاقتصاد هي بلا ريب المساواة في الفقر ، ولكن الاسلام حدد هذه الحرية بحكم العدل الاجتماعي ، وجعلها محدودة بعدم الضرر على حرية الغير مطلقاً لا مادياً ولا معنوياً ولا صحياً وأمثالها ، وقرر التلازم بين الاقتصاد الاسلامي وبين الأخلاق العالية والحقوق والأحكام الواجبة والآداب المقررة شرعاً رعايتها في الانتاج والتداول والتوزيع والاستهلاك ، والمفصلة في كتب الفقه الاسلامي في أبواب المتاجر والمكاسب والبيع والربا والاجارة والمزارعة والمساقاة والجمالة والشركة والمضاربة والغصب وإحياء الموات والأنفال والديون والرهن والحجر والضمان والصلح والحوالة والكفالة والميراث ؛ مضافاً الى القاعدة العامة المستفادة من قوله تعالى (وإئتمها أكبر من نفعهما) وهي أن ما يوجد لا يكون خيراً محضاً ولا شراً محضاً بل فيه همامعا ، والخير فيما زاد نفعه على ضره ، وهذه القاعدة النسبية عامة في الأشياء والقضايا التي لا يعرف حكمها الشرعي فتشمل الاقتصاد أيضاً .

(توضيح المبحث)

ان علم الاقتصاد يبحث في دراسة جهود الانسان المخصصة لقضاء حاجاته الطبيعية والاجتماعية ، والمبدولة بسائق الفطرة والطبيعة والغريزة في إنتاج الأرزاق وتداولها وتوزيعها وإستهلاكها ، وبه تعرف القوانين والنواميس التي لها تأثيرها في هذه الشئون كلها والطرائق التي تجري عليها وتسير بموجبها ، وللإقتصاد قوانين عامة تشبه الحقائق الراهنة في أنها لا تقبل التغير في العصور والأحوال (كقانون العرض والطلب) وبجانبها قوانين تاريخية لا تلائم الا بعض العصور أو الجهات أو الحالات الاجتماعية ولقد عنى المشرعون بالمسائل الاقتصادية في كل عصر عناية فائقة فوضعوا القوانين التي تنظم الملكية الفردية ، والعامة ، والأحوال الشخصية من ميراث وعقود مدنية وتجارية . وسجلوا الدراسات الاجتماعية وما ترسمه مذاهبها من غايات للحياة وأساليب فيها

ولكن بعض المتأخرين منهم انحرف عن أغراض علم الاقتصاد فأسماءه (علم الثروة) وعرفه بأنه (علم الثروة من حيث الحصول عليها والانتفاع بها) وهذه التسمية الخاطئة تشعر بأن غاية ما يرمى اليه هذا العلم هو الثروة في ذاتها . وتدخل على ذهن من يجمل حقيقة موضوع علم الاقتصاد الظن بأنه من جالبات الثروة والغنى وأنه من الضروري أن يصبح المطلعون عليه في مصاف الأغنياء ، ولكنه حينما يقف على حالتهم المعاشية تتولاه الخيبة في الغالب فيجزم بعدم نفعه والحاجة اليه . ولكن يفوته أن العلم بالشيء غير العمل به فإن الإخصائي في علم الفلسفة الطبيعية ، الصليح بقوانين الحركة والقوة لا يقدر على سوق القاطرة ذراعا الى الامام في حين أن السائق الذي يقطع بها عشرات الأميال في الساعة الواحدة لا يعلم شيئا

من المؤثرات التي تنجم عنها حركة تلك القاطرة ، ولا ماهية القوى العاملة في سيرها وسرعتها .

وهذه التسمية وهذا التعريف كلاهما خلاف الواقع والحقيقة ، لأن علم الاقتصاد ، علم يتناول الأغراض التي يرمى اليها الانسان والعوامل التي تدفعه للحصول على حاجاته ، ولهذا كان اليونانيون قديما يقصدون بعلم الاقتصاد (قوانين التدبير المنزلى في ماله مساس بالجماعات) (وموضوع) علم الاقتصاد ، الفعالية البشرية التي تبذل في سبيل الحاجات الانسانية ، وهذه الفعالية البشرية فردية في منشأها واجتماعية في نتائجها ، ولأجل ذلك مُعد علم الاقتصاد من العلوم الاجتماعية وهى التي نشأت عن مخالطة البشر بعضهم ببعض وتكونت من علاقاتهم الناجمة عن عيشهم في حالة الاجتماع ، حين تقسيمهم العلوم الكونية الى ثلاثة أقسام (أولها) العلوم الطبيعية ، وهى العلوم التي نشأت وثبتت بتطبيق طرائق التجربة والاختبار ، وهى : التاريخ الطبيعى ، والفلسفة الطبيعية ، والكيمياء ، وعلم طبقات الأرض ، وعلم الحيوان ، وعلم النبات ، وتؤلف الأجسام وما بينها من العلاقات ، موضوعات العلوم الطبيعية (وثانيها) العلوم الرياضية ، وهى نتيجة من نتائج العقل والإلهام ، وتدعى معرفة العلاقات الكائنة بين الأجسام من حيث الأبعاد والأوزان ، ونسبتها الى الأرقام ، بالعلوم الرياضية ، كالهيئة (الفلك) ، والهندسة ، والحساب ، والجبر والمثلثات ، والنسب ، (وثالثها) العلوم الإجتماعية ، وهى : علوم الاخلاق ، والحقوق ، والاقتصاد ، والسياسة ، وعلم النفس .

ويتألف موضوعات العلوم الإجتماعية من الأشخاص وما يحدث بينهم من العلائق المعنوية في حالة الاجتماع ، ولا يستطيع وضع حدود

فاصلة لكل من العلوم الاجتماعية ولا سيما علوم الأخلاق والحقوق والاقتصاد التي يضاف موضوعها أساس متحد هو الشخص المدني ، كما يستطاع ذلك في العلوم الطبيعية كعلوم الحيوان ، والنبات ، وطبقات الأرض التي يسهل التمييز بين موضوعاتها لعدم المشابهة بينها ، ولأن حدود العلوم الطبيعية ظاهرة جلية بخلاف العلوم الاجتماعية ، فإن تقسيم العلماء العلوم الاجتماعية الى أقسام متنوعة هو صنعى أكثر من كونه طبيعياً ، وإنما وضع لتسهيل دراستها والتخصص في دراسة كل منها ، لا لتمييز بعضها عن بعض تمييزاً أساسياً ، لأن حدودها كانت ولا تزال متمزجة متداخلة بحكم الضرورة ، فالمبادلة ، والمزراعة ، والفائدة ، والأجرة ، والملكية ، والوراثة ، وما مائلها من الشؤون الاجتماعية تدخل كلها في حظيرة العلوم الثلاثة : الأخلاق ، والحقوق ، والاقتصاد ، إذ يصح درسها وتدقيقها من ثلاثة وجوه مختلفة ، أى من الوجهة الأخلاقية التي تقضى بالصدق والاستقامة في المعاملة والأمانة في وفاء العهود والمواثيق ، ومن الوجهة الحقوقية التي تستدعى وجود الملكية وسبق التعاقد وتوجب القيام بالتعهدات المبرمة بين العاقدين ، وتخولها حق التمتع بالنتائج التي تنشأ عن تلك التعهدات ، ومن الوجهة الاقتصادية التي تتعلق ببيان القواعد في المبادلة والمزراعة وغيرهما لأجل الحصول على المافع المنتظرة منها إبتغاء وفاء الحاجة وقضاء اللبانة ، فالقيام بالواجب ، والتمتع بالحق ، والحصول على ما يلزم للمعيشة عبارة عن ثلاثة أغراض مختلفة ، يرجع الغرض الأول منها الى مباحث علم الأخلاق ، والثاني : الى مباحث علم الحقوق ، والثالث الى مباحث علم الاقتصاد ، وأما مساعدة المعوزين والتعاون فهي تدخل في أبحاث علم الاقتصاد والأخلاق ، كما أن الشركات والنسيئة والملكية

يتناولها علما الاقتصاد والحقوق .

(ولكن الاسلام) وهو دين الفطرة إعتبر الشخص المدين مخلوقاً موحد الكيان متعدد الجوانب ، أى واحداً مؤلفاً من مجموع الروح والبدن والعقل وقرر الاقتصاد الكامل لغرض وفاء حاجات الروح وحاجات البدن وحاجات العقل . والتوفيق بين مطالب الروح المعنوية ومطالب الجسد المادية بطريق الانتاج الحاصل بالفعالية البشرية التى تنشأ منبعثة عن (الحاجة) التى هى الباعث الاصلى للحركة الاقتصادية ؛ والمحور الوحيد الذى تدور عليه جميع المعاملات الكونية ، لأن الانسان المتأثر بعامل الحاجة يشعر طبعاً بوجوب العمل على تهيئة الأسباب التى تكفل وفاء حاجاته ، فالحاجة تولد فى نفسه الرغبة فى إدراك ما تصبوا اليه وترتاح من ماديات أو معنويات كما أن الحرمان يشير فيها كوامن الألم والانزعاج ، فهو لذلك يحرص على درء ما يؤلمه وجلب ما يلذّه ، وهذه الرغبة تستدعى السعى وبذل الجهد المطلوب فى سبيل الوصول الى ما يضمن للإنسان وفاء حاجته من الأشياء واليه يشير قوله تعالى : (ليس للإنسان إلا ما سعى) ؛ ولما كان بذل الجهد يستدعى المشقة والعناء فالانسان يحاول أن يصل بأقل جهد الى اعظم المنافع فى سد حاجته ، ومن هذا الميل الغريزى فى الانسان إستنبط الاقتصاديون قانون (أدنى الجهد) الذى يدعى بحق أهم القوانين الإقتصادية ، لأنه الأساس الوحيد لرقى الصنائع والأعمال ، والملمم الاصلى لكل إبداع وإختراع ، فالحاجة التى هى منشأ أقوى شعور دافع للإنسان الى الكدح والمثابرة على العمل تغلب ميله الفطرى الى الراحة والسكون ، ولذلك كانت الحاجة هى العنصر الاصلى فى الفعالية الإقتصادية والباعث الاقوى للرقى الاجتماعى ، فهى (أم الإختراع) ولو لاهلها لبقى الإنسان هملاً خاملاً

لا فرق بينه وبين الحيوان ، وأما منشأ الحاجة فهو (ضعف الإنسان)
قال الله تعالى : « وخلق الإنسان ضعيفاً » .

والضعف يولد الحاجة ، والحاجة تفتق وجه الحيلة فيستعمل الإنسان
غرائزه وقواه ومواهبه وعقله وأفكاره في الإختراع والاكتشاف ويتأيد
بهذه الآية الكريمة ما قرر في علم الاجتماع من أن القوة البدنية تؤخر
التطور الإجتماعى وضعفها ومجله لأن الفرد الضعيف يضطر الى الاستعانة
بالجماعة ، والى الدهاء والحيلة ، وهما من أدوات الاجتماعية وهذا الضعف
منشأ كرامة الانسان ومنبع سعادته لأنه الدافع الاصلى للإنسان الى إستعماله
عقله وفكره فى معرفة مبدء الكون وخالق الحياة لكي يلتجئ اليه من
عاديات الطبيعة والخوفات القوية ولمعرفة المعاد ومصير العالم ، قال الله تعالى :
« ولقد كرمنا بنى آدم ، فالانسان أكرم الكائنات على الله تعالى ، خلقه فى
أحسن تقويم ، وتولاه بالالهام والتعليم وحلاه بالعقل الفطرى السليم
وأفدّره على إستخدام ما فى الوجود وتسخير المادة وقوى الطبيعة وأمدّه
الله بما يناسب مطامحه من حول وقوة ووطأ له أطراف الكائنات وسخرها
له فقال تعالى : « وسخر لكم ما فى الأرض جميعاً ، ولكن الانسان مع هذه
المنح كلها ضعيف الجسد تؤلمه السمات واهن الجلد تستفزه الخطرات ،
شديد الهلع تستطيره الهواجس ، وبمجموع هذا الضعف وتلك المنح
تحقق التكريم الالهى لبنى آدم ، وبه أصبح الانسان أشرف المواليد .
واعل إختياره تعالى كلمة بنى آدم دون ألفاظ الانسان ، والبشر ،
والناس ، لتذكيرهم بأنهم أولاد شخص واحد وهذا هو معنى الأخوة
الإنسانية ، ومن المعلوم أن المحبة من لوازم الأخوة ، والمحبة تمنع النزاع
والحرب بين الأخوة ، ففى هذه الآية ما ينشده العالم من السلام العام .

ثم إن للحاجة صفتين بارزتين (أوليها) قابلية الإتساع وينضوى تحت هذه الصفة أمور (منها) تعدد الحاجات بل تعذر حصرها ، فيجب علينا أن نضع حداً لهذه الحاجات المتزايدة التي لا نسد منها حاجة حتى تبدو لنا عشر . وينبغي لنا أن نعنى بتقليل حاجتنا وتحديدنا بدلاً من أن ندأب على تزييدها وتنميتها ، أو نستعيز عن هذه الحاجات بغيرها من الحاجات المعنوية التي هي أشرف غرضاً وأنبى مقصداً لكي يحصل التوفيق بين الإقتصاد المادى وبين الأخلاق الشريفة ، أى يضاف علاج الروح على علاج البدن ، (ومنها) تراحم الحاجات ، أى أن الحاجات تزدهم ويصطدم بعضها ببعض فما إشتد منها نقص من شأن غيره من الحاجات . أو أزاله بتاتاً ، وعلى هذه الصورة يستعيز البشر ببعض الحاجات عما سواها ، ويدعى هذا (قانون الإستعاضة) وهذا القانون وقانون المباراة هما الحارس اليقظ للأسعار ، والمانع للمحتكرين من التلاعب بها ، ولا تنحصر الإستعاضة فى الحاجات المادية بل تتناول جميع الحاجات المعنوية ، ولا يستعاض عن الحاجات دائماً بأمثالها ، بل قد يستعاض عن بعض المواد والأشياء بما لا يحول فى الذهن أو يمر بالخطر ، ويستفيد علماء الأخلاق وحفظ الصحة من هذا القانون ، فيستبدلون الحاجات المفسدة للأخلاق المنهكة للقوى بحاجات مهيبة سامية اذ يستعيزون مثلاً عن النادى بالمكتبة ويحولون وجهة الأموال التى تنفق فى سبيل الملاهى والملاذ الضارة الى المدارس والملاجىء الخيرية والأمر النافعة ، (ومنها) أن حاجات الإنسان متضامنة أى يتم بعضها بعضاً ، ولا نكتفى بمقدار فى سد حاجة من حاجتنا كالكتابة مثلاً بعمل منفرد أو بإستخدام مادة واحدة ، (ومنها) أن الحاجة عادة مستحكمة أى انها تستحكم فى النفس بتكرر الإستيفاء فتصبح عادة لأن

العادة بعد أن تستحكم في النفوس يصبح الرجوع عنها عسيراً فلا مناص
من الخضوع لأحكامها ، فإنه بعد أن يعتادها لا يرى محيداً عن المواظبة
عليها ويتعذر عليه الإفلاع عنها ، ولذلك عُدَّت العادة من الحكام
الخمسة التي لا بد للإنسان ما دام في دار الدنيا من متابعتها وليس له من
دونها سبيل خلاص ، ولا عن امتثال أوامرها ونواهيها محيد ولا مناص
الا أن يخلصه بعضها عن حكم آخر ، فيذهب به الى مثله أو أنفع أو أضر
ولبعضها على بعض الفضيلة والسيادة ، وهي (العقل) (والشرع) (والعرف
و (الطبع) و (العادة) .

والإعتياد على هذا الوجه ضار لأنه يتأصل في النفوس ويرسخ فلا
يستطاع الخلاص من ربقته . وهنا تظهر صعوبة وظائف المربي وما يلاقه
من المشاكل في أمر التربية واستئصال العادات السيئة وإبدالها بالعادات
الحسنة ، و (منها) أن الحاجات تنشر بين البشر بعاملي التقليد والاقتباس
فيجدر في هذا الشأن رعاية طريق الاقتباس وعدم الميل الى التقليد الأعمى
لأن الاقتباس يتضمن حسن الاختيار بعد اعمال الفكر والروية ، (ومنها)
أن الحاجة موروثة ، أى أن الحاجات التي تتأصل بالاستمرار تنتقل بطريق
الوراثة جيلاً بعد جيل ، ولا ينكر تأثير الوراثة فقد أثبتته العلوم وأيدته
التجارب والاختبارات ، وقد برهنت الترقيات الطبية على أن الولد كما
يرث من والديه صفاتها المادية والجسدية والمرضية كذلك يرث منها سائر
الصفات العقلية والأخلاقية ، وقد يقع بعض الشواذ في هذه القاعدة
ولكن ذلك لا يسوغ انكارها .

و (الثانية) من صفتي الحاجة (قابلية الاشباع) وربما تبدوا هذه
الصفة مناقضة الأولى في الظاهر ولكنها ليست كذلك في الحقيقة ونفس

الأمـر . نعم ان الانسان حريص على الاستكثار من الحاجات التي تضمن له أسباب الراحة والرفاهية ، وكلما تقدم في الحضارة زاد عدد هذه الحاجات ونمی حتى يصبح غير ممكن التحديد أعنى أن الإنسان لا يقف عند حد معين من الحاجات ولا يكتفى بعدد محدود منها ، ولكننا إذا نظرنا الى كل حاجة بمفردها نجد أن الإنسان لا يرغب بل لا يستطيع أن يستوفى مقداراً كبيراً منها يزيد عن وسعه وطاقته بل يدركه الشبع عند حد محدود فإذا تجاوزه تنقلب الرغبة في تلك الحاجة الى الكراهية ويعقب ذلك التخمّة وينضوى تحت هذه الصفة قانون من القوانين الإقتصادية الهامة لأن أحدث نظريات القيمة قائمة على أساسه وهو (حاجة الإنسان محدودة) يعنى أن كل حاجة من الحاجات يكفي لسدها مقدار معين من الأشياء ، وإذا كانت الحاجة طبيعية ، أى أنها تحدث بدافع طبيعي كالجوع والعطش يسهل تقدير المقدار اللازم لسدها ، ولكنها إذا كانت ذوقية إجتماعية يصعب فيها ذلك لأن المقدار المنوه به يختلف باختلاف ميول البشر وأهوائهم ، ولكنه لا بد لكل من هذه الحاجات من حد إذا تجاوزه تلك المقادير يستغنى عنها وتستعكره ، ويستثنى من ذلك (النقد) فإنه لا حد لمقدار الحاجة اليه لأن النقد لا يسد حاجة واحدة من حاجات الإنسان بل يصلح لسدها بأجمعها .

(ملخص منهج الاقتصاد الاسلامي)

لا شك في أن عقيدة التوحيد أساس الإسلام ، وهدفه تكوين عالم واحد تحت راية التوحيد الإسلامى ، ولا ريب في أن الإسلام يتجه الى المعنويات والبواعث والمقاصد والنيات فيجعلها موضع حساب عند الله يوم القيامة ، وحكمه على الماديات لا ينفصل عن النية والبواعث ، وإذا كانت

أحكام الماديات تطبق في الدنيا بين يدي القوانين والتشريعات فأحكام البواعث لديان يوم الدين ، لأن النبي ﷺ يقول : « إنما الأعمال بالنيات ، (ولكل امرئ ما نوى) وبذلك يفترق المسلم من غيره فهو يعلم أن دينه دين قلوب كما هو دين نتائج وثمرات ، وقد قال ﷺ (إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم) ويعلم المؤمن أن دينه يتغلغل في كل ما يعمل فمن يقصد الخير بعمله يكن خيراً ، ومن يقصد الشر يكن شريراً ، وعلى المؤمن أن يعرف أن مقدار رضا الله تعالى عن عمله بمقدار خلوص نيته ، وبهذا يتبين أن الدين الإسلامي ليس محصوراً في المساجد والمعابد وحدها ، بل متغلغل في كل عناصر الحياة وأعمالها ، وأن كل شيء في الاسلام سواء كان في الأعمال أم في الأقوال أو في المال يجب أن يكون خاضعاً لقانون الخير وقوانين الأخلاق والأحكام الفضيلة ، ومكارم الأخلاق هي العفة والشجاعة والحكمة ، وتجمعها كلمة العدالة ، قال الله تعالى مخاطباً رسوله ﷺ (إنك لعلی خلق عظیم) وقال ﷺ : بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) وقال أيضاً : (الخلق وعاء الدين) ونهى عن الإفراط في الحس المفسد للخلق ، كما قرر الاتكاء على العقل السليم وحكمه الاستقلالي ، ومنع عن الإفراط في التمسك بالمعنويات المفسد للعقل ، فروع في الاسلام كل جانب من حدود الروح والجسد والعقل ، وقرر فيه على جانب الكمال الروحي حقوق الانسان الفطرية المرتبطة بالارض والمادة إرتباط عيش وبقاء ، وحقوق الجماعة المتعاونة المتكافلة في سبيل البقاء وما يقتضيه من مقدمات ، فقرر توجيه الافراد والجماعات توجيهاً صحيحاً نافعاً جامعاً ، يسير بهم في طريق التعاون الاقتصادي والتكافل المادي المشفوع بالعدل الاجتماعي ومكارم الاخلاق ، ويضمن لهم الوصول الى الخير الأكبر

(وإنه على حب الخير لشديد) والمحافظة على كرامة الانسان الذى خلق له عقل يعقل ، وفكر يعمل ، وعاطفة تتحرك ، وجسد له حق على الانسان الذى جعله الله فى الأرض خليفة .

فالافتصاد فى الاسلام يجب أن يكون ككل شؤون الاسلام خاضعاً لقوانين الاخلاق الاسلامية ، والأحكام الفضيلة ، فليس لامرئ أن ينسى حق غيره ، ولقد وضع النبي ﷺ قانون الأخلاق والفضيلة والرحمة فى التعامل الانسانى فقال : (عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به) وقال ﷺ أحب غيرك ما تحب لنفسك) وهذه القاعدة تنطبق على الافتصاد وكل أعمال الانسان . فالمستغل لماله عليه أن يعامل الناس بما يريد لنفسه، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه ، وإذا لوحظ ذلك لا يكون تحكم القوى فى الضعيف ولا المنافسة التى تنتهى الى نزاع إقتصادى ، ومغالبة بالمال ، فلا يكون من التاجر القوى الارخاص فى الأسعار ليفلس منافسه . أو ليتحكم فى إقتصاد البلاد ، أو يحتكر إمرؤ ما عنده ويخفيه ليبيعه بغلاء فاحش وهكذا تكون هذه المنكرات والمحرمات خارجة عن قانون الفضيلة والعدل والأخلاق وبهذا يتبين أن قانون الخير والشر يسير مع النظام الإقتصادى فى الاسلام بل يحكمه ويسيره ويهديه ويرشده ، ومن فصل الإقتصاد عن الأخلاق فإنه يفتح باب الاعتداء والاحتكار والطغيان والظلم ، وكل نظام يخالف قانون الأخلاق يؤدى الى النزاع والقسوة والحرب والاحتلال ، فيكون ما آله الهدم والانهار ، لأنه مبنى على شفاهاة فسينهار به . وكل نظام يتفق مع قانون الأخلاق والفضيلة والرحمة بالناس هو نظام ثابت الدعائم قوى الأركان لأنه قائم على تقوى من الله ورضوان ، ولأن الرحمة العامة بمن فى الارض جميعاً هى غاية الاسلام الاولى ، وهى مقصد الرسالة المحمدية ﷺ ، فقد

قال الله تعالى : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) وقال تعالى : (يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين قل بفضل الله ورحمته ، وبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) وقال رسول الله ﷺ : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ولقد أكثر النبي ﷺ من الحث على الرحمة حتى قال بعض أصحابه : لقد أمرتنا يا رسول الله بالرحمة وإنما نرحم أزواجنا وأولادنا ، فقال ﷺ : (ما هذا أريد وإنما أريد الرحمة بالعامّة) وعلى أساس الرحمة قرر الاسلام وجوب المحافظة على النفس الانسانية ، وعلى العقل ، وعلى النسل ، وعلى الدين ، وعلى المال فالمال ركن من أركان المصالح الاسلامية التي تجب المحافظة عليها وتنميتها بكل وسائل الاستغلال المشروعة لأن المال عصب الاعمال ، ولذلك نهى الاسلام عن كنز المال فقال تعالى : (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ، فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليهم في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لانفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) وكنز المال يصدق على منعه من التعامل ، والانتفاع به في المعاملات ، وإستغلاله بالرحمة الملازمة للمنفعة ، لكي تكون المنفعة خارجة عن دائرة الأثرة الضيقة الى منطقة الايثار المتسعة الرحاب ، وعلى هذا الاساس إتجه الاسلام الى تنمية الموارد ما أمكنت التنمية ، ووردت النصوص الشرعية داعية الى تنمية المال وتميره وإعتبار ذلك صدقة مقبولة فقد قال النبي ﷺ (من أحيى أرضاً فله فيه أجر ، وما أكله العوافي فهو له صدقة) وقال ﷺ : (ما من مسلم يزرع زرعاً أو يغرس غرساً فمات قبل أن يثمر منه إنسان أو دابة كتب له به صدقة) وقال ﷺ : (من أحيى أرضاً ميتة فهي له) وذلك ليشجع المؤمن على عمارة الارض وإصلاحها ، ولتحقق

الخلافة الانسانية الكاملة في الارض ، فقد قال الله تعالى : (واذا قال ربك
للبلائكة اني جاعل في الارض خليفة) ولما كانت خلافة الله في أرضه
وعمارة البلاد وسعادة العباد وحل الرموز واستخراج الكنوز من طبائع
الاكوان وشرائع الوجود تستحيل على الفرد وتمتنع على الواحد كان
من أهم المواثيق التي أخذها الصانع الحكيم على خليفته ميثاق التعاون
والتضامن وأن يكون الكل هو الفرد والفرد هو الكل فيتم بذلك نظام الهيئة
الاجتماعية وينال الانسان سعادته بأفراده ومجموعه وتحظى وحداته من
توحيد كثراته .

ويلزم الانتباه الى أن التاريخ قد أثبت أن الحروب والفتوح هي
التي حصرت ملكية الاراضي في قسم صغير من الناس ، وحرمت القسم
الاكبر منها ، ولكن الحروب والفتوح الاسلامية طبقت قانون الاسلام
فجعلت الاراضي المفتوحة عنوة ملكا لجميع المسلمين ، ولقد حث الاسلام
على العمل والتنقيب في الارض ، والسعي وتكشف ما فيها من خير ،
فقال الله تعالى : (هو الذي جعل لكم الارض ذلولا فامشوا في مناكبها
وكلوا من رزقه واليه النشور) وحرص الاسلام الانسان على الكسب
والتجارة ، وورد عن الشارع أن التجارة تزيد العقل ، وتركها مذهب
للعقل ، وأن فيها تسعة أعشار الرزق ، وحث الاسلام على العمل واتقائه
ودعى اليه ، فقد قال الله تعالى (ان الله لا يضيع أجر من أحسن عملا)
وورد عن النبي ﷺ أنه قال : (ان الله يحب اذا عمل أحدكم عملا أن
يتقنه) وبما أن القوى العاملة ثروة في ذاتها اذا عملت فاعتبر الاسلام كثرة
عدد نفوس المسلمين ثروة ، ولم يعتبرها عبئا ولذلك حث على كثرة النسل
لتحقيق تلك الثروة الانسانية العاملة التي هي مصدر كل الثروات ، ولم يفرق

الاسلام بين عمل يدوى وعمل غير يدوى ، بل انه حسن العمل اليدوى ودعى اليه فقال ﷺ : (ما أكل ابن آدم طعاماً خيراً من طعام يده) وان نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده ، ولقد منع النبي ﷺ التواكل وترك السعى فى الارض فقال ﷺ : (لأن أخذ أحدكم جبلاً فيحتطب على ظهره خير من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه) وقال ﷺ (اليد العليا خير من السفلى) وأن من لا يعمل لا خير فيه ولو ترك العمل لأجل العبادة ، فقد جائه ﷺ قوم فيهم عابد قد انصرف الى العبادة فقال ﷺ : (ومن يؤكله ؟ فقالوا أخوه ، فقال ﷺ : أخوه أعبد منه) وقرر الاسلام النشاط فى العمل فقد قال الامام الحسن بن علي عليه السلام قال رسول الله ﷺ : (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً) وقال الله تعالى : (ولا تنس نصيبك من الدنيا) وقال : (الدنيا مزرعة الآخرة) واعتبر العمل الدنيوى بقصد الآخرة عبادة بالمعنى الأعم وموجباً للتقرب الى الله وأما الدنيا التى لا تفيد فى الآخرة فحبها رأس كل خطيئته ، وفى رواية أحمد بن عيسى عن علي بن الحكم عن يونس بن بكر قال : قال لى ابو الحسن عليه السلام : (من طلب هذا الرزق من حله ليعود به على نفسه وعياله كان كالمجاهد فى سبيل الله فإن غلب فليستدر على الله ورسوله ﷺ ما يقوت به عياله فإن مات ولم يقض كان على الامام قضائه فإن لم يقض كان عليه وزره ، ان الله تبارك وتعالى يقول : ان الصدقات للفقراء والمساكين والغارمين ، فهو فقير مسكين مغرم .

(والحاصل) أن الاقتصاد الاسلامى العام يرادف الاعتدال والاستقامة والتوسط فى الامور بين الافراط والتفريط وبين الاسراف والتقتير ، قال الله تعالى : (وجعلناكم أمة وسطاً) وقال تعالى : (أمة

مقتصدة) أى عادلة وقال تعالى : (واقصد فى مشيك) بالكسر أى اعدل ولا تلبختر فيه ولا تدب ديبياً ، والاقتصاد فى المعيشة هو التوسط بين التبذير والتقتير ، وفى الحديث (اقتصد فى عبادتك) أى اتت منها بشيء لا يلحقك منها تعب ولا مشقة شديدة تنفر طبيعته منها ، وفى الحديث (القصد القصد) أى الزموا القصد والتمسوه ، والقصد ما بين الحالتين . وللإسلام تشريعات عظيمة معتدلة محيرة للعقل فى الانتاج والتداول والتوزيع ، والاستهلاك ، وفى عامة الامور والاحوال بها أصبحت أنظمة الاقتصاد والاخلاق والتعليم والحقوق والاجتماع وتهذيب النفس والسياسة فى الإسلام مثلاً علياً لمقررات العلوم ، (منها) ما فى أصول الكافى : كتاب الإيمان والكفر ، باب حق المؤمن على أخيه ، قال : روى ابو على الأشعرى عن محمد بن عبد الجبار عن ابن فضال عن عمر بن أبان عن سعيد ابن الحسن قال : قال ابو جعفر عليه السلام : (أجئ أحدكم الى أخيه فيدخل يده فى كيسه فيأخذ حاجته فلا يدفعه ؟ فقلت ما أعرف ذلك فينا ، فقال ابو جعفر عليه السلام : فلا شيء إذا ، قلت : فاهلاك إذا ، فقال عليه السلام : إن القوم لم يعطوا أحلامهم بعد) ، ولعل المراد لم يكمل عقولهم وبلوغ إيمانهم بعد ، (ومنها) روى ابو على الأشعرى عن محمد بن سالم عن أحمد بن النضر عن ابى اسماعيل قال : قلت لأبى جعفر عليه السلام : جعلت فداك إن الشيعة عندنا كثير ، فقال عليه السلام : (هل يعطف الغنى على الفقير ، وهل يتجاوز المحسن عن المسيء ويتواسون ؟) فقلت : لا ، فقال عليه السلام : (ليس هؤلاء شيعة ، الشيعة من يفعل هذا) (ومنها) عن عثمان بن عيسى عن محمد بن عجلان قال : كنت عند ابى عبد الله عليه السلام فدخل رجل فسلم ، فسئله كيف من خلفت من إخوانك ؟ قال : فأحسن الثناء وزكى وأطرى . فقال عليه السلام

له : (كيف عيادة أغنيائهم على فقرائهم ؟) فقال : قليلة ، قال عليه السلام :
 (فكيف صلة أغنيائهم لفقرائهم في ذات أيديهم ؟) فقال : إلك تذكر
 أخلاقا قل ما هي في من عندنا ، قال عليه السلام : (فكيف تزعم هؤلاء أنهم
 شيعة ؟) . (ومنها) عن إسحاق بن عمار والفضل بن عمر قالا : قال
 أبو عبد الله عليه السلام : (مياسير شيعتنا أمثالتنا على محاييهم فاحفظونا فيكم
 يحفظكم الله) . (ومنها) كان أبو جعفر عليه السلام يقول : (عظموا أصحابكم
 ووقروهم ، ولا يتجهم بعضكم بعضاً ولا تضاروا ولا تحاسدوا ، وإياكم
 والبخل كونوا عباد الله المخلصين)

والغرض الأصلي من هذه التعاليم الإسلامية تفهيم المسلمين كافة أن
 الإصلاح الإجتماعي العام الذي أوجده النبي ﷺ كان من أصوله أن يقوم
 المسلمون على مبدء تعاؤني بحكم البناء ليس في احدى نواحيه ضعف ، وشيده
 بتشريع زكاة المال وزكاة الفطرة ، ولما حرّمها على بني هاشم لأنها من
 أوساخ أيدي الناس ، فرض لهم الخمس في أمور منها الغنائم بالمعنى العام
 الشامل لأرباح المكاسب والتجارات والزراعات والصناعات اكراماً لهم
 وتوفيراً للفقراء ، وشيده أيضاً بتشريع الصدقات والكيفارات والقرض
 الحسن والإحسان ، (والمعروف) وهو الإنفاق على النفس والعيال ، ثم
 صلة من تجب صلته ثم الحق المعلوم الذي يفرضه في ماله يعطيه في اليوم ،
 أو الجمعة ، أو الشهر دائماً قل أو كثر ، وفيه ورد (وفي أموالهم حق
 معلوم) ثم كل صدقة على فقير ، أو مروءة الى فقير أو الى غني بالضيافة
 والهدية والإعانة ونحوها ، جلباً للخير أو دفعاً للشر دينيين أو دنيويين
 سائغين شرعاً ، وإيصال نفع عام ببناء مسجد أو مدرسة ونحوهما ، أو نفع
 خاص كبارشاد الضال ، والتعليم ، وقربان المروءة للتعفف والعدل وقضاء

حاجة المؤمن ، وانظار المعسر ، وتحليل الميت ، والحمل على الدابة وطيب الكلام ، والتوسيع على العيال ؛ والتسم في وجه أخيه المسلم ، وإعارة المتاع ، وأمثال ذلك مما فصله الفقهاء في باب المعروف من كتاب الخمس وورد عن النبي ﷺ : (كل معروف صدقة) والبر والصدقة ينفيان الفقر ، ويزيدان في العمر ، وصنائع المعروف تقي مصارع السوء ، وسئل عن الصادق عليه السلام في كم تجب الزكاة ؟ فقال عليه السلام : (أما الظاهرة ففي كل ألف خمسة وعشرون ، وأما الباطنة فلا تستأثر على أخيك بما هو أحوج منك) ثم كان للمسلمين في بيت المال رصيد خاص بذوى الحاجة ، ومن تدفع بهم الضرورة الى الحدود القصوى ، وكان امام المسلمين أو نائبه مسؤولا عن وصول الحاجة ببعض الناس الى هذه الحدود ، وكان على كل فرد من أفراد المسلمين العيش مع الجيران على حالة تكافل وتعاقد بحيث يرفد غنيهم فقيرهم ، والا كان عليه وزر المقصر المستأثر ، فأكثر النبي ﷺ من الإيضاء بالجار حتى قال عليه السلام : (ليس منا من بات شبعان وجاره جائع) وقد جرى المسلمون على هذا الأصل حتى وصلوا الى حدود يضرب بها الأمثال في التعاون بين الفقراء والاعنياء غصت بها تواريتهم وروى عن ابن عباس ، قال : (والله ان رسول الله ﷺ ما زال يوصينا بالجار حتى ظننا أنه سيورثه) .

ففي نظام اجتماعي من هذا الطراز حيث يسود التكافل والتراقد ويمكن فيه استصراخ امام المسلمين وحكومته الإسلامية بدفع الحاجات عن المعوزين ، وفي محيط كان في امكان المحتاج أن يذهب الى أخيه المسلم فيدخل يده في كيسه فيأخذ حاجته وهو لا يدفعه ، قرر الإسلام قطع يد السارق .

قال الله تعالى (السارق والسارقة فاقطعوا أيديهما) وقال النبي ﷺ
(والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها) وكيف لا يعامل العاص
بأموال الناس في محيط تطبيق نظام التعاون الإسلامي أقصى معاملة ؟ بل
وكيف لا تقطع يده حتى يكف سواء عن مثل عمله الذي لا يقصد به إلا
محض الإيذاء وإزعاج الأمن ؟

ومن يباننا الموجز يمكن معرفة أمرين يمتاز بهما الإقتصاد الإسلامي
عن غيره (الأول) أن الإقتصاد في الإسلام لا ينفك كلياً عن مكارم
الأخلاق وعن العدل الإجتماعي ورعاية الحقوق .

(والثاني) أن الإقتصاد الإسلامي الذي هو فضيلة أخلاقية لا
يختص بالمال وصرفه ولا يقتصر بالماديات بل هو عام وشامل لكل
الأمور ، ويلزم تطبيقه على كل شؤون الإنسان من طعامه ومنامه وشغله
وفراغه وأتعبه وتفكيره وعامة أعماله وأحواله حتى العبادة ، ففي أصول
السكافي في كتاب الإيمان والكفر ، باب الإقتصاد في العبادة ، في رواية
عن أبي جعفر عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ : (إن هذا الدين متين
وأوغلوا فيه برفق ، ولا تكروهوا عبادة الله إلى عباد الله فتكونوا كالراكب
المنبت الذي لا سفرأ قطع ولا ظهرأ أبق) .

(وفي رواية) حفص بن البختري عن أبي عبد الله عليه السلام : (لا
تكروهوا إلى أنفسكم العبادة) وفي رواية عمرو بن جميع عن أبي عبد الله
عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ : (يا علي إن هذا الدين متين
فأوغل فيه برفق ، ولا تبغض إلى نفسك عبادة ربك ، فإن المنبت^٣ لا
ظهرأ أبق ولا أرضا قطع ، فاعمل عمل من يرجو أن يموت هراماً ، واحذر حذر

من يتخوف أن يموت غداً) .

وقال الله تعالى : (طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى)
وقال تعالى : (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل
البسط) .

وهذا كله كما يجرى فى الإقتصاد الفردى كذلك يجرى فى الإقتصاد
الاجتماعى ، فمن المعلوم أنه يستحيل حياة أمة ، واستقلالها الحقيقى
الصحيح الكامل بدون الإقتصاد بمعنى استغناء الأمة عن غيرها
فى كل ما تحتاج اليه فى حفظ كيانها أو أكثره ، وأن يزيد صادرها
عن واردها .

(المطلب العاشر)

السياسة في الاسلام

السياسة الاسلامية هي السلطة الزمنية عن نبعة الدين على سيرة خاتم النبيين ﷺ وأوصيائه الاثمة الطاهرين سلام الله عليهم ، أجمعين المنحوتين في زيارة الجامعة الكبيرة بكلمة «ساسة العباد» ، وكانت سيااسة النبي ﷺ كحكومته قائمة على أنها إلهية محضة ، وأن ممارسته لها ضرب من رسالته التشريعية .

وكان النظر الى النبي ﷺ دينياً محضاً ، على أنه وان مارس السلطة الزمنية فقد كانت الصبغة الدينية يغمرها حتى لتخفى بوادر الحكم والسيطرة ومن المعلوم أن ولاية النبي ﷺ في القطر الاسلامي في عصره ورجال الأعمال الذين قاموا بوظائف الامبراطورية الاسلامية من بعده في عهدها الاول كانوا من خريجي المدرسة المحمدية ﷺ في صحراء العرب ولم يتعلموا في جامعات ولم يدرسوا نظم السياسة والادارة ولا فنون الحكم ، ومع هذا قاموا بأعمالهم خير قيام ، ونجحوا في سياستهم أسمى نجاح ، وما كان انتصار قادتهم في ميادين الجهاد أروع من انتصار سياستهم في ادارة شؤون البلاد ، وتجلت آيات نجاحهم في مختلف شؤون الدولة الاسلامية في الرئاسة العامة ، في ادارة الولايات ، وسياسة الشعوب سياسة ثبتت دعائم ملكهم ومدت في فتوحهم ، وحببتهم الى الأمم التي دخلت في سلطانهم ، ورأت

تلك الأمم من هؤلاء البدويين وعدلهم وأخلاقهم ما لم يروه من ساسة الدولتين العريقتين في النظم والحضارة ، دولة الفرس ودولة الروم ، وفي التعليم وبث نور العلم قام المتخصصون من رجاله بنشر العلم بين أفراد الأمة حتى أوجدوا روح التنافس العلمي بين مختلف الأمصار الإسلامية التي كانت تموج بحركة علمية مشرقة ما لبثت حتى أوجدت عدة من المجتهدين عجزت معاهد التعليم الحاضرة بمناهجها ونظمها أن تنجب منهم واحداً ، وكذلك في القضاء والسياسة وسائر شؤون الدولة الداخلية والخارجية توجت أعمالهم بالنجاح ، وهذا النجاح الذي وصل إليه عمال الدولة الإسلامية أول عهدها له أسباب عدة كامنة في روح التعاليم الإسلامية ، (منها) حسن اختيار الموظف . فقد وضع أساسه القويم رسول الله ﷺ بفعله وبقوله (روى) عن أبي ذر الغفاري (رضي الله عنه) أنه قال : (قلت يا رسول الله ﷺ ألا تستعملني ؟ فضرب بيده على منكبي وقال ﷺ : يا أبا ذر انك ضعيف وانها أمانة ، وانها يوم القيامة خزي وندامة ، الا من أخذ بحقها وأدى الذي عليه فيها ،) (وروى) أبو موسى الأشعري قال : دخلت انا ورجلان من بني عمي على النبي ﷺ فقال أحد الرجلين : يا رسول الله ﷺ أمرنا على بعض ما ولاك الله عليه ، فقال الرسول ﷺ : (إنا والله لا نولى على هذا العمل أحداً سألناه ، ولا أحداً حرص عليه) . فاعتذر أبو موسى وقال : لم أعلم بما جائنا له .

(وروى) أن رسول الله ﷺ قال : (من قلد رجلاً على جماعة وهو يجد في تلك الجماعة من هو أَرْضَى منه فقد خان الله وخان رسوله وخان المؤمنين) وذلك لأنه بعمله حرم الجماعة من مزايأ أكفئهم ، وربما أدى التماذي هذا إلى إماتة الكفءات ، فرسول الله ﷺ عدواً لتعدى على

الاكفاء بتعيين من هو دونهم كفاءة خيانة لله ولرسوله ﷺ والمؤمنين لأن في هذا إضاعة مصالح الأمة وإهداراً لكفاية أرباب الكفاءات فتضعف العزائم ، وتسوء سمعة الأمة الإدارية ، وتضيع مصالحها ، لهذا كان رسول الله ﷺ لا يولى عملاً إلا من تحقق أنه أحق به لكفائته قوة وخلقاً وعلماً وعملاً ، (ومنها) اليقظة في المراقبة ، وقد وضع أساس اليقظة في مراقبة العمال والولاة رسول الله ﷺ فقد كان يعنى بسماع ما ينقل اليه من أخبار عماله ، ويصغى الى شكاية من يشكوهم ويأخذ عليهم زلاتهم ويحاسبهم ، يستعمل رسول الله ﷺ مرة رجلاً على الصدقات فلما رجع حاسبه ، فقال الرجل : هذا لكم وهذا لي ، فقال الرسول ﷺ (ما بال الرجل نستعمله على العمل مما ولانا الله تعالى فيقول : هذا لكم وهذا اهدى الي ، أفلا قعد في بيت أبيه وأمه فنظر أيهدى اليه أم لا) ؟ وقال ﷺ : « من استعملناه على عمل ورزقناه منه رزقاً فما أخذ بعد ذلك فهو غلول ، والغلول الخيانة في المغرم .

(والحاصل) أن الإسلام دين فطرى اجتماعي ، والاجتماع غريزة فطرية في الانسان فلا بد فيه من السياسة التي هي من أركان شؤون الاجتماع اللازمة في داخل المملكة الاسلامية وخارجها ، وهذه السياسة الاسلامية عبارة عن التدبير الصحيح الصادق الصريح الكامل الشامل لجميع شؤون الأمة الاسلامية المتكونة من مختلف شعوب العالم ، وشؤون المملكة الاسلامية ، وتدبير المدن هو القسم الأهم من أقسام الحكمة العملية في الفلسفة الاسلامية ، وهذا التدبير هو أساس اعداد القوة المأمورة به في قوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومنشأ هذا التدبير هو العقل المنتج للرأى الصائب في كل الأمور على ضوء تعاليم الاسلام ؛ وهل يتمكن

الجامد أن يقول : وهبنا الله العقل وحرّم علينا استعماله لأنه سياسة ؟ وهل
الرأى الصائب الا للنبي ﷺ وخلفائه الأئمة الأطهار ، ع ، ساسة العباد ،
ونوابهم أصحاب القوة القدسية ، وملكة الاجتهاد .

وليس المراد بها مفهوم السياسة المتداولة في عرف الدول والملل
في هذا العصر ، والمبتنية على الخداع والنفاق والكذب والظلم والطمع
والخيانة والغدر والآثرة والغش والعصبيات الذميمة والمجاملات الخادعة
فإن الاسلام برىء من هذه السياسة ولا يأتلف معها في مكان أو زمان
وهذه السياسة هي المقصودة في كلمتنا المشهورة : (السياسة جمة نار
أحسها ولا أمسها) .

ولقد صرح بهذا كله أمير المؤمنين علي بن ابى طالب عليه السلام في عهده
الى الأشر النخعي عامله على مصر وأعمالها ، وهو أول دستور جامع
حكومى دينى صدر في الاسلام بعد النبي ﷺ وفيه يقول : « ولا تكونن
عليهم سبجاً ضارياً تغتنم أكلهم ، فإنهم صنفان ، اما أخ لك في الدين ؛
أو نظير لك في الخلق ، أعطهم من عفوك وصفحك مثل الذى تحب
أن يعطيك الله من عفوه وصفحه ، ولا تندمن بعفو ؛ ولا تبججن
بعقوبة . . . »

« ولا تدفن صلحاً دعاك اليه عدوك ولله فيه رضا ، فإن في الصلح
دعة لجنودك ، وراحة من همومك ، وأمناً لبلادك . ولكن الحذر كل
الحذر من عدوك بعد صلحه ، فإن العدو ربما يقارب ليتغفل ، فيخذ
بالحزم ، واتهم في ذلك حسن الظن ، وان عقدت بينك وبين عدوك
عقدة أو ألبسته منك ذمة ، فحط عهدك بالوفاء ، واراع ذمتك بالأمانة
واجعل نفسك جنة دون ما أعطيت ، فإنه ليس من فرائض الله شئ الناس

أشد عليه اجتماعا مع تفرق أهوائهم وتشنت آرائهم من تعظيم الوفاء بالعهود ، وقد لزم ذلك المشركون لما استوبلوا من عواقب الغدر ، فلا تغدرن بدمتك ولا تخيسن بعهديك ، ولا تختلن عدوك ، فإنه لا يجترى على الله الا جاهل شقي ، وقد جعل الله عهده وذمته أمناً أفضاه بين العباد برحمته ، وحرماً يسكنون الى منعته ، ويستفيضون الى جواره ، فلا ادغال ، ولا مدالسة ، ولا خداع فيه ، ولا تعقد عقداً تجوز فيه العلل ولا تعولن على لحن قول بعد التأكيد والثبوت ، ولا يدعونك ضيق أمر لزمك فيه عهد الله الى طلب انفساخه بغير الحق ، فإن صبرك على ضيق أمر ترجو انفراجة وفضل عاقبته خير من غدر تخاف تبعته وأن تحيط بك من الله فيه طلبه فلا تستقيل فيها دنياك ولا آخرتك .

ومن معرفة هذا العهد الرائع يتضح جلياً سر وصف النبي والأئمة عليهم السلام بصفة (ساسة العباد) ففي اللغة (ساس القوم سياسة : دبرهم وتولى أمرهم فهو سائس ، والجمع ساسة وسؤاس) وفي مجمع البحرين قال (وفي وصف الأئمة عليهم السلام ، أنتم ساسة العباد ، (وفيه) الإمام عارف بالسياسة (وفيه) : ثم فوض الى النبي صلى الله عليه وآله أمر الدين والأمة ليسوس عباده ، كل ذلك من (سست الرعية سياسة أمرتها ونهيتها ، وساس زيد العمر يسوسه دبره وقام بأمره ، وفي الخبر تسوسهم أنبيائهم أى تتولى أمرهم كالأمراء والولاة بالرعية ، من السياسة وهو القيام على الشيء بما يصلحه) وفي كتاب الحجة من أصول الكافي عن الرضا عليه السلام أنه قال : (والإمام عليه السلام عالم لا يجهل وراع لا ينكل معدن القدس والطهارة والنسك والزهادة والعلم والعبادة ، نامى العلم ملء الحلم مضطلع بالإمامة عالم بالسياسة مفروض الطاعة قائم بأمر الله عز وجل ناصح لعباد الله حافظ لدين الله الخ) .

(وفي كتاب العقل والجهل منه ، عن أبي عبد الله عليه السلام قال : كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول : (بالعقل أستخرج غور الحكمة ، وبالحكمة أستخرج غور العقل ، وبحسن السياسة يكون الأدب الصالح) .

ومن الجدير بالذكر أن السياسة الإسلامية لا تسمح بالحرب إلا إذا كانت ضرورة واجبة ، قال أمير المؤمنين عليه السلام في قتاله لمعاوية ما نصه ، :

« ولقد ضربت أنف هذا الأمر وعينه ، وقلبت ظهره وبطنه فلم أر إلا القتال أو الكفر) وأمر عليه السلام عامله على مصر بهذا القول : (وول من جنودك أنقام جيئاً) (أى أظهرهم قلباً) بمن يبطئ عن الغضب ، ويستريح الى العذر ، ويرأف الضعفاء وينبوا عن الأقوياء ، ومن لا يثيرهم العنف الخ .

وما قرر في تاريخ الأديان أن المسيح عليه السلام حاول بالإقناع المجرد أن يصل الى الأفئدة المغلقة فلم ينجح ، وقالوا له مثل ما قالوا الرسول قبله (إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لنفى شك مريب) وليستهم سكتوا عن ذلك فهاهى إلا أيام حتى وجهت إليهم ذوو السلطة بهذا الإنذار « وقال الذين كفروا الرسولهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا ، وكذلك رسول الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً بدء دعوته بالإقناع المجرد ، حتى ألجته السلطة القائمة بمكة الى الهجرة عنها ، فكان أن أسس بأمر الله تعالى دولة الإسلام الإلهية في المدينة ، فأوجب الله الجهاد على المسلمين لأجل فتح الطريق أمام نشر الدعوة الإسلامية التي شعارها (لا إكراه في الدين) ثم إستعاد ما فقدته أول أمره ، وشق الإسلام طريقه في الحياة على ركام من أجداث الشهداء فلما نهضت الدولة الإسلامية الأولى على قدميها بتوطيد الأمن الإسلامى ودين

التوحيد في جزيرة العرب كان عملها الأول أن سافت بأمر الله ورسوله ﷺ جيوش التحرير أفواجا لذلك الكسروية المتأهلة والقيصرية المتأهلة ، ولتمنح السعادة المزدوجة وحق الحياة الكريمة للجماهير الانسانية التي ترنحت طويلا تحت وطأة هذه السلطات الجائرة ، وكان من المستحيل في ظل السطوة المقررة لتلك السلطات الجائرة أن تنشر دعوة أو تستنقذ أمة بالمحاجة والافناع فكان من الواجب الضروري القيام بالتبليغ المسلح .

(مسك الختام)

أجمع العلماء والمؤرخون على أن علي بن ابي طالب عليه السلام كان أعظم شخصية دينية ، وأكبر عقلية قضائية ونظامية بعد النبي ﷺ رباه رسول الله ﷺ في حجره وعلمه جميع تعاليم الشريعة الخالدة والعلوم الالهية ثم قال ﷺ : (أنا مدينة العلم وعلي بابها) وقال ﷺ : (من كنت مولاه فعلي مولاه) . ولا شك في أنه موهوب في القضاء والحرب والسياسة الاسلامية حتى قيل (قضية ولا ابا حسن لها) ولقد إهتم المؤلفون بجمع أقضيته ، وأحكامه ، وتنظيماته ، فألف الترمذى كتاباً في مجلدين دعاه « أقضية علي ، وألف ابن قيم الجوزية كتاباً في (السياسة الشرعية) ملأته بأقضية علي عليه السلام وسياسته التي كانت على سيرة رسول الله ﷺ ومقرراته الالهية المحفوظة عند أمير المؤمنين عليه السلام ، ولقد أشار الى هذا في عهده الى الأثر النعني حيث قال : « وإعلم أن الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض ولا غنى ببعضها عن بعض (فمنها) جنود الله ، و (منها) كتاب العامة والخاصة ، و (منها) قضاة العدل و (منها) عمال الانصاف والرفق

و (منها) أهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومسلمة الناس ، و (منها) التجار وأهل الصناعات ، و (منها) الطبقة السفلى من ذوى الحاجة والمسكنة وكل قد سمي الله له سهمه ووضع على حده فريضة في كتابه ، أو سنة نبه به عليه السلام عهداً منه عندنا محفوظاً الخ .

ويظهر من هذا العهد الرائع وغيره من كلماته ومن تتبع سيرته أن أمير المؤمنين عليه السلام كان يرمى في خلافته الى أخذ الأمة الاسلامية بما شملت من الأمم المختلفة بعمل تشييدى عظيم ، وكان عملاً موفقاً جداً لأنه عليه السلام طبيب إلهي للأدواء الاجتماعية من جميع النواحي التشريعية والنظامية وغيرها ولكن الثورة الداخلية التي أثرت عليه ودارت حول شخصيته ، وتكررت حتى إستوعبت كل مدة خلافته ، أوقفت كل حركاته الإصلاحية المنبثقة من صميم روح الاسلام التي ابتدئها بحزم وشدة في نظام الحكم ونظام القضاء والادارة والسياسة ونظام الجندية والحرب والمعاهدات وغيرها على جانب العدل والزهد والتقوى ، وألجمته الى أن يهتم في أكثر خطبه وكلماته الى علاج الثورات وإخمادها ، وتوجيه العالم الاسلامي الى محور الاسلام الحقيقي الصحيح بمقدار مساعدة الظروف والأحوال ، لما لمس من حاجة المجتمع ، ومن محاسن ومساوىء المحاولات التي حاولها من تقدم عليه ، ولولا خلافته القصيرة المدة انقضى على روح الاسلام الحقيقي في مهده ، ولم يكن يبقى منه إلا اسمه وقشره ، ولم يفرغ سلام الله عليه من محاربة البدع والفتن حتى يعود ليحارب الجود والتعصب للباطل والتحرير بسائر أشكاله ومظاهره .

(المطلب الحادي عشر)

الاجتماع في الاسلام

جاء الدين الاسلامي الخفيف لهداية البشر وإيصالهم بإختيارهم المحمود الى ما هو خير بالذات ، فعمم العالم الاسلامي نفعه وشملهم إسعاده ، أبدل جهلهم علماً ، وتظالمهم عدلاً ، وتحاربهم سلماً ، وتفرقهم وحدة وإنحطاطهم نهوضاً ، حوّلهم عن خرافات واهية ، وأباطيل فاسدة ، الى حقائق ناصعة ، وأحكام رائعة ، وحكم بالغة ، ملؤها العلوم الجمة ، والمعارف المهمة ، اختط لهم فيها سبل الحياة الهائنة ، وطرق السعادة الخالدة ، فكان ذلك هو الهدف الفرد للدين ، والغرض الوحيد الذي جاء من أجله ، ولم يكن حكم من أحكامه غالياً عن مصلحة تسعدنا ، أو عظة ترشدنا أو عبرة توقظنا وتهدينا .

أجل ما تركنا الله سبحانه هملاً نتخبط دياجير الجهالة ، ونتعثر في ميادين الحياة ، حيارى هائمين ، بل وضع لنا قانوناً محكماً ، وسن لنا نظاماً قيماً أودعه لطائف الحكم ، ودقائق الأسرار التي لا يعقلها الا اولوا الألباب وأرباب البصائر ، فكان ذلك دستور معالم الحضارة العالية ، ونبراس العيش الراقى النضير ، بل الذريعة المثلى لكل خير في الدنيا والعقبى .

وذلك لأن الاسلام دين الفطرة الانسانية المتركزة على الروح والبدن والانسان مدني بالطبع واجتماعي بالفطرة ، فلم يكن غرض الاسلام من

الاجتماع والأخلاق والتربية والتعليم والاقتصاد وغيرها دنيويا وماديا محضا ولم يكن أخرويا ومعنويا محضا ، وإنما كان غرضه منها أخرويا ودنيويا معا فهو يرمى الى اعداد المرء والمجتمع لعملى الدنيا والآخرة ، كمتلازمين فى شريعة الاسلام ، وفى القرآن الكريم والسنة النبوية ﷺ ما ينبه على ذلك قال الله تعالى : « وابتغ فى ما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وقال تعالى : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، وقال رسول الله ﷺ فيما رواه عنه الامام الحسن بن على عليه السلام (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، وأعمل لآخرتك كأنك تموت غداً) وقال ﷺ أيضا : ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ولا الآخرة للدنيا ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه) وقال ﷺ : (الدنيا مزرعة الآخرة) .

(المبادئ والمناهج)

لما كان القرآن والسنة عند المسلمين كافة منبع الدين ، وأساس العلوم الاسلامية ، التى هى عناصر الفلسفة الاسلامية ، جعلوها أصلا فى علوم الاجتماع والاقتصاد والتربية والتعليم والأخلاق والحقوق والنفوس وغيرها وبذلك أصبحت الروابط الاجتماعية الاسلامية بين الآحاد فى العصور التاريخية أروع وأقوى من جميع روابط الاجتماعات التى نازعتها الحياة وكانت تلك الروابط تستمد وجودها من أعلى المبادئ الاجتماعية التى جاء بها كتاب الله المعجز الخالد ، وبها أحدث الاسلام تكافلا عاما بين الشعوب الاسلامية يقوم مقام التزاحم الحيوانى بينها ، وعلى هذا الأساس وضع علماء المسلمين الفلسفة الاسلامية ، وفيها قالوا : (فلسفة الاجتماع) فلسفة

عملية تؤدي الى معرفة مناهج العمل بكل ما يصلح أحوال الانسان في معاشه ومعااده ويوصله الى كماله الممكن) و (غايتها) المدنية الفاضلة والتمدن القائم على قانون العدل والفضيلة المؤدى الى الخير الكامل الشامل ، (ويدبره العقل السليم المجرد عن شوائب الأوهام ، باستخدامه القوى النفسية الخاضعة لسلطانه المعبر عنه بالعقل الاجتماعى ، وهو يبحث عن بواطن الأشياء وحقائق وسائل السعادة ، وتدفعه الفطرة الطبيعية وغريزة الشعور الدينى نحو التفكير فى مبدء حياة الانسان ، والبحث عن مبدئها ومصدرها وأسباب تكوّننها ووجودها ومصيرها ، والحالة التى هى عليها ، وعن شؤون سعادته الاجتماعية وأسبابها .

ومن الواضح أن الاسلام دين الاجتماع ولقد نظم بتعاليمه السامية علاقة الانسان بالخالق والخلق ، ومنزج بين مصالح الآخرة والدنيا وهذب الأخلاق وصان الحقوق ولم يترك صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها وأفاض على الناس من نور تشريعه ما لم ينزل مثله على سائر الأنبياء (ص) اذ استقصى الشئون الاجتماعية العامة على جانب الشئون الفردية وشئون الآخرة ، ولقد أوضح أن البشر انما خلق لغاية سامية هى عبادة مبدع الكائنات وحده والعبادة اما اعتقادية عقلية كالإيمان بالله وبرسوله وبالمعاد أو روحية وبدنية كالصلوة والصوم أو مالية كالزكاة والخمس أو مركبة من مالى وبدنى كالجهاد والعبادات لا تقام على وجهها الا بوسائل هى : صحة الفكر وسلامة البدن وذات اليد ولهذه الوسائل وسائل تسبقها كالزراعة والصناعة والتفقه فى الدين وبعض العلوم النظرية كالمنطق أو الكونية كالطب وليس فى استطاعة الفرد أو الرهط من الناس الاستقلال بهذه الوسائل فإحتاج الناس بمقتضى فطرتهم وما خلقوا من أجله الى التعارف والتعاون ولا تعارف ولا تعاون

الا بالاجتماع فالاجتماع هو الذى تقتضيه الفطرة وبه تنتظم العلوم وتبلغ
 المدنية الفاضلة أشدها فيتهياً للناس أن يعبدوا الله على بصيرة ويتقربوا اليه
 بضروب من الأعمال الصالحة لا تحصى ، ويظهر إيثار الإسلام للإجتماع
 على العزلة فى كثير من الأحكام والآداب ، فانظر الى ما دعى اليه على وجه
 التأكيد من إقامة الصلوات الخمس اليومية فى جماعة ، وفيها من إستعراض
 جميع المسلمين فى كل يوم خمس مرات حيث يرى الصف القصير نفسه فى
 نظام صفوف مئات ملايين المسلمين متوجهين الى القبلة وهى بقعة أشرفت
 منها شمس الهداية المحمدية ﷺ وانبثقت أنوارها فأفاضت على العالمين رشاداً
 وإسعاداً وسؤدداً ، وكذلك المنفرد يحس بالعزلة وبقوة معنوية من مشاركته
 مع مئات الملايين فى الإتجاه نحو الكعبة المعظمة ، ومن أهم فوائد الجماعة
 التعود على آداب النظام ، والتنافس بالنسابق لا بالتدافع ، والتضحية
 وإنكار الذات ، والدفاع عن المبدء الدينى والثغور ، (ثم ما فرضه) من
 الإجتماع العام لصلوة يوم من الأسبوع ، وهى صلوة الجمعة التى هى عبادة
 عظيمة ومن أجلى مظاهر الدين وشعائره ، وأوضح معالمه الإجتماعية فيجتمع
 جميع المكلفين من مسلمى البلد من كل صوب وأوب ليكون ذلك أنموذجاً
 حسناً لإجتماعات الأمة المحمدية ﷺ التى مآلها كل خير وصلاح ، ومرماها
 كل نفع عام ، فإن الاجتماع روح التآلف والتضامن ، ورأس التعاضد
 والتكاتف ، وهو إشارة مثلى بلسان العمل الجوهرى بأن قوام الإصلاح
 لشؤوننا الحيوية ، وملاك النجاة والسعادة لنا فى معترك هذه الحياة إجتماعات
 صحيحة رائدها الاخلاص ، مضافاً الى الخطبة التى أوجبها الشارع قبل
 الشروع فى صلوة الجمعة فإنها تجلى ما على القلوب من صدأ ، وتروى ما بها
 من ظلماً ، بآيات التذكير وعبارات الارشاد ، والمؤمنون جاثون على ركبتهم

مطرقون برؤسهم . منصتون هادئون ، كأن على رؤسهم الطير ، لعلمهم أن ما يلقيه إليه خطيبهم وما يحضهم به على الاستمسك بأحكام الله والجرى على سنتها والقيام بالأعمال الشريفة النافعة هو موافق لشريعة الرسول الأعظم ﷺ فإذا أقيمت الصلوة وقفت الجموع الحاشدة صفوفًا مستقيمة على الفور بكل سكونية وخشوع ووقار ، الأمير بجانب المأمور والخادم بأزاء المخدم والفقير بجزاء الغنى والضعيف بجانب القوى دون ميزة لبعضهم ولا أفضلية فيها بينهم ، وفي ذلك تعويدهم على المساواة أمام القانون الإلهي ، وفي هذا الموقف الرهيب لا يجد المرء فضلًا له على غيره إلا بالتقوى فيمزق رداء الأنفة والعظمة ، وينبذ المغالاة والكبرياء بجعله في مستوى إخوانه في الاسلام ، ويستقبلون القبلة ، وما أعظم سر إستقبال الكعبة المكرمة وما أوضح برهانها ، فقد أضحت المحور الوحيد الذي عليه مدار الجامعة الاسلامية ، بل القطب الفرد الذي تلتف شعوب الأمة الاسلامية وأجناسها عليه .

وفي طوافهم حولها بفريضة الحج اظهر لهذا الامر الخطير المعقول بمظهر المشاهد المحسوس توفيقاً واخراجاً للحكمة المنوية من حيز القوة الى حيز الفعل .

وكذلك شرع الاسلامى ليومى عيد الفطر وعيد الاضحى صلوة تؤدى في جماعة ، وتوصل بخطبة وعظ وارشاد ، ويجتمع جميع المكلفين من مسلمى البلد وضواحيه ونواحيه من كل صوب وأوب لأداء صلوة العيد وأخير أقرر الاسلام انعقاد مؤتمر سنوى عام للمسلمين في مكة المعظمة ومشاعرها ؛ بأن أوجب الحج على كل مستطيع من المسلمين ، فإذا استطاع مسلم وجب عليه أن يذهب الى حيث البيت الذى يتوجه اليه في صلواته ،

ويؤدى أعمال الحج ويعظم شعائر الله فيه ، ويقف على جبل وقف عليه من قبله خلائق من إخوانه المسلمين وهو عارى الجسم إلا من قطعتين من قماش يوارى بهما سوئته (ثوبى الإحرام) حاسر الرأس كسير القلب متوجهاً الى الله بروحه وجسمه ولسانه يلهج بالذكر والدعاء ، ليعود طاهر الروح ، نقي القلب ، قوياً على العمل والطاعة والجهاد فى سبيل الدعوة الى الله . وعين للحج وقتاً معلوماً فى السنة ، فكان فى حكمة هذا التعيين إلتقاء أمم من بلاد وأقطار مختلفة على صعيد واحد ، ليكون فى الإمكان أن يتكون هناك مؤتمر إسلامى عام عند الحاجة ؛ وبذلك يتهيأ للمسلمين كافة سبيل التشاور فى كيفية التغلب على الصعوبات الإجتماعية وتذليلها مع العناية بسائر الشؤون الإسلامية العامة ، وتزول تلك الفوارق التى قصمت ظهر الألفة فشتتها بين طوائف المسلمين وطبقاتهم .

(التشريع الاجتماعى)

شرع الإسلام إقامة الولائم فى مثل عقد النكاح ، أو البناء ويوم سابع الولادة ، وحث على إجابة الدعوة ، ودعى الى الإجتماع فى أوقات السرور كأيام الأعياد ، ودعى الى الاجتماع فى أوقات المكاره والشدائد ، كالا اجتماع لصلوة الكسوف والاجتماع لصلوة الميت وتشجيع جنازته حتى يكون الاجتماع مائلاً لمواطن السرور والحزن ، ولا يبق للعزلة الجافية مظهر فى حال ، دعى الاسلام الى الاجتماع ، وشرع للإجتماع بصورة عامة ، وللإجتماع الاقتصادى بكيفية مخصوصة أحكاماً عادلة ، وآداباً فاضلة ، وحقوقاً متبادلة متكافئة ، كالحث على القرض الحسن ، والمهادنة

وقضاء الحاجات ، والاحسان والصدقات ، مضافا الى تشريع الزكاة والخمس والكفارات ، وسائر الحقوق الشرعية التى تستهدف القضاء على الفقر وازالة الحاجة عن المجتمع الاسلامى ، ومضافا الى تحريم الربا والميسر ، ووضع كفارات وعقوبات للإعتداء على الأنفس والأموال والأعراض ، الى ما يشاكل هذا من الأحكام والنظم الأساسية والآداب التى تحمى الاجتماع من كل نقیصة ، وتجعله مصدر خير وسعادة ، وعالج بها مشكلة الفقر التى هزت الأمم والعالم فأصبح نظام الاقتصاد الاسلامى معجزة كافية لمعالجة الفقر وما يتبعه من الجهل والمرض .

ونظم الاسلام للمرء حياته من بدء تكونه الى حين وفاته . حتى لقد دخل مع الرجل بيته وحكم بينه وبين زوجته وبين ما له عليها وما لها عليه وفصل فيما عسى أن يقع بينهما من الخصومات ، بل حكم بينه وبين نفسه ، ثم لم يدعه بعد وفاته فقسم ميراثه وبين طرق تكفينه ودفنه ، الى غير ذلك مما ينتظم به شؤون الأفراد والجماعات ، ويهيء للمسلم أن يعيش عيشة راضية ، وحيث أنه تشريع الهى فالعمل به طاعة مستوجبة للثواب ، ومخالفته معصية متوعد عليها بالعقاب الأخرى زيادة على ما تقرّر فيه من عقوبات دنيوية ، ولا غرو ؛ فقد شرعه الله لعباده وهو أعلم بحاجاتهم من أنفسهم .

وفى الختام ينبغى التنبيه على ما قرره علم الاجتماع من أن للشعوب كما للأفراد جسما وروحا : فجسم الشعب هو عبارة عن هيئة الأفراد التى تطلق عليها اسمه ، وأما الروح فتتكون من وحدة المشاعر ، والمنافع المشتركة والمعتقدات العامة ؛ ومتى تم للأمة ذلك تبلغ ذروة مجدها وبالعكس فإنها تسقط وتنهار متى تحلل وتلاشى ، وإن وحدة المشاعر فى كل أمة هى اشتراك

أفرادها في مجموع الصفات التي تتكون منها الصفة العامة ، والتي يعبر عنها
(بخلق الأمة) وبعبارة أخرى ، يتكون المثال الوسط الذي يمكن اتخاذه
عنواناً لها ، إلا أن هذا الاشتراك يحتاج الى زمن طويل ، ويعتقد علماء
الاجتماع أن الخلق شبيه بالعنصر الثابت لكل نوع من أنواع الكائنات ،
فخلق كل أمة هو علة تطورها في حياتها وهو يقرر مستقبلها ، وأما التأثير
العقلي أو العليّ فضعيف على تفاوت فيه ، ولقد كان العرب المسلمون أيام
سقوطهم ذوى عقول وعلوم أرقى من عقول أجدادهم القاهرين ، ولكنهم
سقطوا لأنهم فقدوا صفاتهم الأخلاقية الإسلامية التي كانت هى السبب في
عظمة آبائهم الأولين ، فأضاعوا الجد والمثابرة ، والعزيمة الصادقة والجلد
الذى لا يعرف الوهن ، وفقدوا المقدرة على التفانى في نصرة الحق وأضاعوا
الصلوة وسائر العبادات الإسلامية التي يتجلى فيها توحيد المشاعر . ووحدة
الروح العامل في أجلى مظاهرها ، فالصلوة وحدها اذا أقيمت كما أمر الله
تعالى بها مع معرفة مزاياها والعلم بأسرارها والتنبيه للجهات الروحية والمعنوية
فيها من أكبر العوامل لهذا التوحيد وهذه الوحدة ، ولذلك صارت عمود
الدين ومعراج المؤمن ، ان قبلت قبل ما سواها وان ردت رد ما سواها .
ويؤيد هذا الموضوع ما قرر في علم الاجتماع من أن الدين أفضل
العوامل الاجتماعية في بناء الجماعات وتنظيمها ، وأنه كبطل الرواية في كل
فصل فيها ، فللدين أدوار عظيمة الشأن منذ نشوء الجماعات البشرية الى اليوم
فإن قوة الشعب أو الأمة أو المجموعة البشرية لا يمكن أن تجتمع في شكل تام
كامل ما دامت الجماعات غير تامة الاندماج ولا يحصل الاندماج المطلوب الا
بقوة ذات الحق الالهى ، وهى قوة الدين .
ومن مقررات علم الاجتماع أن الانظمة الاجتماعية التي تعد أجهزة

الجسم الإجتماعى ترجع الى سلسلتين رئيسيتين (الواحدة) واسطة ، وهى الدين ، والجندية ، والحق الأدبى فى القضاء ، (والآخرى) غاية وهى العلم ، والسياسة ، والإقتصاد . فالدين كان واسطة لنشؤ العلم فمما الفلسفة التى هى خلاصة العلم إلا الدين الإلهى مجرداً من الخرافات البشرية وقد ترفت السياسة على كتف العلم مستعيناً بالجندية ، ثم يقوم الإقتصاد على عاتق السياسة والعلم معتمداً بالقوانين ومستنصراً بالقضاء الذى هو الحق الأدبى ، ويجب إكساء هذه الأنظمة الإجتماعية الرئيسية بكساء المشورة العامة ومدلول هذه المشورة هو الإتكاء على رأى العام .

وقد إهتم التشريع الإسلامى بهاتين السلسلتين ؛ وعظم إهتمامه بالقضاء لأنه أساس نظام الإجتماع وعماد الأمن والعدل الإجتماعى وأكّد إهتمامه بالمشورة فقال الله تعالى : (وأمرهم شورى بينهم) وقال تعالى مخاطباً رسوله ﷺ : « وشاورهم فى الأمر » .

(المطلب الثاني عشر)

قال الله عز وجل : «وما كان للمؤمنين أن ينفروا كافة فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ،

أى ليس للمؤمنين أن ينفروا كلهم وهلا نفر من كل فرقة جماعة ليتفقهوا في الدين ، يعنى يتعلمون القرآن والسنن والفرائض والأحكام الشرعية لينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم أى يعلموهم القرآن والأحكام الشرعية ويخوفوهم لعلهم يحذرون فلا يعملون بخلافه .

ففي الآية الشريفة يطلب الله تعالى حذرهم أى خوفهم عن ركوب المحارم وترك الفرائض لوضوح أن الترجى المدلول عليه بكلمة لعل تمتنع في حقه تعالى لأن الرجاء متضمن للجهد والشك في حصوله فيمتنع على عالم الغيب والشهادة ، وأقرب المجازات طلب المرجو من باب المجاز بالإستعارة أو من باب المجاز المرسل تسمية للآزم بإسم المألوم بتقريب أن الترجى المتضمن للطمع يستلزم محبوبة المرجو ، والمحبوبة يستلزم المطلوبية ، فالترجى يستلزم الطلب ، وأمثال هذه العلاقة معتبرة عند أهل اللسان وإن خفي وجه اعتبارها على بعض الأعلام فالتجأ الى دقة مزعومة لا طائل تحتها فحق عليه القول المشهور : (الجواد قد يكبوا والصارم قد ينبوا) . ثم إن في المقام ونظائره قاعدة كلية وهى أن جميع الاعراض النفسانية أعنى الرحمة والفرح والسرور والغضب والحياء والغيرة والمسكر والخداع والتكبر والاستهزاء والترجى والتندم ، لها أوائل ولها غايات ومثاله الغضب فإن

أوله غليان دم القلب وغايته ارادة إيصال الضرر الى المغضوب عليه فلفظ الغضب في حقه تعالى لا يحمل على أوله الذي هو غليان دم القلب بل يحمل على غايته التي هي ارادة الاضرار ، وأيضاً الحياء له أول وهو انكسار يحصل في النفس وله غرض وهو ترك الفعل ، فلفظ الحياء في حق الله تعالى يحمل على ترك الفعل لا على انكسار النفس . وهكذا يتمشى القول في لفظ الترجى فيحمل في حقه تعالى على محبوبة المرجو وطلبه .

وبهذه القاعدة الشريفة يستغنى عن كثير مما قيل في هذا المقام .

ولأجل مثل هذا السبب قال المفسرون : ان كلمة لو لا التندمية في الآية الشريفة بمعنى هلا ، وهي للتحضيض اذا دخلت على الفعل والتحضيض هو الحث على الفعل وطلبه ، واللام في قوله تعالى : (ليتفقهوا) للغاية وكذلك اللام في قوله تعالى : (لينذروا) فتدل على أن الغاية المطلوبة من النفر الواجب انما هو التفقه والانذار فيثبت بالآية الكريمة وجوب النفر ووجوب التفقه والانذار على النافر ووجوب الحذر على المتخلف ، فإنه اذا وجب ذو الغاية وجب الغاية لكونه مقدمة لها ، وغاية الواجب لا يكون الا واجباً اذا كان من الأفعال الاختيارية ، فليست الآية مخصوصة بالجهد وان وردت في سياق آيات الجهاد ، نظير آية التطهير الواردة في سياق آيات نساء النبي ﷺ وليست منها ، بل الظاهر أن المراد من الآية بشهادة الجمع بين ما ورد في تفسيرها وبين الأخبار التي يأتي ذكرها ، بيان أن النفر الى التفقه ايضاً كالنفر الى الجهاد من الأمور المهمة الواجبة ، فكأنه تعالى قال ما كان للمؤمنين أن ينفروا بأسرهم الى الجهاد فهلا نفر من كل فرقة جماعة لتحصيل التفقه في الدين الذي هو كالجهاد في الوجوب عليهم ، والاطلاق في الآية وارد في مقام البيان فإن مقتضى الأصل في كل مطلق وارد في

الشرع حمله على كونه في مقام بيان تمام المراد حتى يثبت الدلائل على خلافه ومدركه أصالة الحقيقة في الخطابات الشرعية فإن حملها على بيان بعض المراد يوجب التجوز فيها .

وليس في مقام الإهمال كما توهم والمقصود من الآية بحسب الظاهر وجوب تعلم الأحكام الواقعية وبعث المكلفين على العمل بما علموه وفهموه من الأحكام وحيث أن الخطاب فيها موجه إلى المؤمنين ومتعلق بهم ، وهذا الاتصاف إنما يتحقق بعد علمهم بأصول الإيمان فلا وجه لاحتمال إمكان حمل التفقه فيها على التفقه في أصول الدين والإيمان التي يعتبر فيها العلم واليقين لغرض تخصيص وجوب الحذر بصورة علم المقلد بصدق المفتي في الفروع أيضاً ، ولذا شاع عند فقهاءنا التمسك بهذه الآية على وجوب الافتاء والاستفتاء والاجتهاد والتقليد ، بل صرح بعضهم بتعين حملها عليه دون مجرد نقل الأخبار ، بشهادة مادة الانذار ، وإن الغرض من الآية وأمثالها تعلم الأحكام الدينية وتحصيل ملكة استنباطها من الكتاب والسنة والأدلة المستخرجة منها ثم تبليغها بطريق الافتاء إلى غير العالمين ، ويجب عليهم القبول مع رعاية ما سنيناه في مباحث الشروط المعتمدة في المجتهد ، وتأسيس الأصل في مشكوك الحجية ليحكم في موارد الشك في وجود الطريق الشرعي أو في طريقية الموجود بما يقتضيه الأصل من عدم الحجية .

ثم إن في الآية الشريفة إشعاراً بأن خير الوسائل لاستفادة العلم وأقوم السبل إلى ذلك هو التلقي من العالم مشافهة ، ولن يكون ذلك إلا بإنتشار الرحلات العلمية وكثرتها ، ولم ينل القدماء تلك الدرجات السامية إلا بإرتحالهم وملاقاتهم أقطاب العلم في مختلف البلدان ومدارسهم لهم ومناقشتهم إياهم ، فالتلقي يفيد ما لا تفيد المطالعة المجردة ، إذ هو أفعال في شحذ

الذهن وإيقاظ الفكر ، وأقرب توصيلاً للمراد ، وأبعد عن الإبهام والإحتمال ، إذ يسهل للبتليقي الإستفسار عما يعزب عنه ولا يحتاج معه الى دراسة المبادئ والإصطلاحات التي تختلف باختلاف المؤلفين والتي يقطع الطالب في دراستها وقتاً طويلاً ، وحصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد إستحكاماً ورسوخاً ، فعلى قدر كثرة الدراسة من مهرة الأساتذة يكون حصول الملكات ورسوخها ، وتزيده آية السؤال . ويؤيده أيضاً ما رواه عبد المؤمن الأنصارى قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : إن قوماً يروون إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : (إختلاف أمتي رحمة) فقال عليه السلام : (فإجماعهم عذاب ؟) قال عليه السلام : (ليس حيث تذهب وذهبوا إنما أراد صلى الله عليه وآله قوله تعالى : فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون ، فأمرهم أن ينفروا الى رسول الله صلى الله عليه وآله فيتعلموا ثم يرجعوا الى قومهم فيعلموهم ، إنما أراد صلى الله عليه وآله إختلافهم من البلدان ، لا إختلافاً في دين الله ، إنما الدين واحد) (والحاصل) أن القرآن أسس ما عبر عنه في عرف المتشرعة بالإجتهد والتقليد . وجاء هذا التأسيس مطابقاً لناموس الفطرة والعقل والطبيعة كسائر التشريعات الإسلامية ، لما قررناه في المطالب المار ذكرها من أن الإسلام دين عام خالد متكفل لكل مصالح البشر من أخروية ودنيوية ، وقد استهدف في تشريعاته السعادة المزدوجة العامة من دون عسر أو حرج ، فلو وجب التفقه على الجميع اختلت أمور معاشهم ، والاختل أمر معادهم فأصبح توزيع الأعمال لازماً ، ووجب التفقه على جماعة من كل قبيلة لكي ينفسح المجال أمام من سوى الجماعة من القبيلة أن يشتغلوا بمصالح المعاش وبالأعمال الفردية والإجتماعية الموجبة لسعادتهم الدنيوية التي هي أيضاً

واجبات كفاية ، ووجب على الفقهاء الإفتاء والإنذار وتعليم أولئك المشتغلين بأمور المعاش وتأمين سعادتهم الآخروية أيضاً ، كما وجبت عليهم حقوق شرعية في أرباح أموالهم يدفعونها للمشتغلين بالتفقه وتحصيل العلم واسائر الفقراء لتأمين سعادتهم الدنيوية .

وهذا الأساس الذي أسسه القرآن الكريم وشيده رسول الله ﷺ أمر ضروري متفق عليه من جميع المسلمين وجميع العقلاء ولا يستدعي البحث والعناية الزائدة الا في بعض الخصوصيات والعوارض والشرائط ، فلما بعث رسول الله ﷺ معاذاً الى اليمن قال ﷺ : (كيف تصنع ان عرض لك قضاء ؟) قال : أفضى بما في كتاب الله ، قال ﷺ : (فإن لم يكن في كتاب الله ؟) قال : فبسنة رسول الله ﷺ ، قال ﷺ : (فإن لم يكن في سنة رسول الله ﷺ ؟) قال : أجتهد رأيي لا ألو قال : فضرب رسول الله ﷺ بيده على صدرى وقال ﷺ : (الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يرضى رسول الله ﷺ) فشجعه رسول الله ﷺ على الاجتهاد لأنه لا يألوا ويذل أقصى جهوده للإستنباط عن عمومات الكتاب والسنة في الحالات التي يتعذر أو يتعسر فيها الحصول على صريح الحكم الشرعى في الكتاب والسنة ، فالنبي ﷺ بإذنه في هذا الاجتهاد يضرب للناس المثل ، ويرسم لهم الطريق ليحذوا حذوه من بعده ، حتى يكون الفقه الإسلامى بتفاصيله قوياً على مسايرة الزمن ، ومتابعة نهوض الأمم ، وتقرير أحكام الحوادث والمواضيع المستجدة ، ومن المعلوم أن تعريف القرآن للأحكام أكثره كلى لا جزئى ، وإجمالى لا تفصيلى فيحتاج الوقوف على حقائقه الى الرجوع الى السنة المبينة له والمفسرة الشارحة لما خفى فيه ، وهذا مما شرف الله به هذه الأمة المكرمة إذ لم يهمل عقولها ،

ولم يلقنها تفصيلاً كما كان عليه الحال في الأمم السابقة ، وتكون الشريعة الإسلامية عامة ، وقواعدها ثابتة لا يدخل عليها بعد إستقرارها نسخ ولا يعترضها تغيير ، ولذلك كان النبي ﷺ في كثير من أقواله وقضاياه يبين لهم الأحكام مقرونة بعلمها ، فإن هذه الشريعة الإسلامية هي خاتمة الشرائع الالهية ، وإنها دين الناس أجمعين الى يوم القيامة ، فأراد الله أن يعلمهم هو ورسوله ﷺ وأوصيائه رسوله عليهم السلام طريقة الاستنباط ويمرّنهم على كيفية أخذ الأحكام وإستنباطها من أدلتها الكلية ، فإن نصوص الدين لم تعرض للتفاصيل والجزئيات ، إذ كانت الحوادث لا تقف عند حد ، فكل زمن قد يحدث لأهله من الوقائع ما لم يكن يعرفه أهل الزمان السابق ، لكن أصحاب الملكة والقوة القدسية من الفقهاء والمجتهدين يستطيعون بقوة مداركهم وملكاتهم أن ينزلوها على عمومات الكتاب والسنة على نحو يرضى الله ورسوله ﷺ ، ويمكن أن يكون هذا تفسيراً لقوله عز وجل : (ما فرطنا في الكتاب من شيء) وقوله تعالى : (ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء) .

وصفة الكلام : أنه كان لا بد لهذا الدين الالهى العام الخالد من قانون إلهى ودستور سماوى يسايره فى البقاء والدوام بنفسه ، وهو كتاب الله المعجز الخالد أعنى القرآن الكريم الذى جاء بالناموس الأعظم لكمال الحياتين ، الدنيوية ، والأخروية ، وهو كافل لكل ما يهم البشر لسمادته فى دنياه وآخرته ، وسائر ما يلزم فى الحياة الفردية والنظم الاجتماعية من علوم وأخلاق وثقافة وتشريع ، ففى التشريع الذى نظم شؤون الأمة ، والأمور المدنية والجنائية والأحوال الشخصية جاء القرآن بالآيات القانونية وهى : آيات الأحكام ، التى هى الأساس الأول فى التشريع الإسلامى ،

وهذه الآيات على قلتها تعرضت لجميع ما يصدر عن المكلف من أفعال وأعمال ، فتعرضت الى العبادات من صوم وصلوة وخمس وزكاة وحج وجهاد ، والى الأمور المدنية كبيع وإجارة وهبة وصلح ومزارعة ومساقاة ووكالة وحوالة وربا ونحوها ، والى الأمور الجنائية من قتل وسرقة وزنا وقطع طريق ونحو ذلك ، والى نظام الأسرة وعوامل التربية والأحوال الشخصية من زواج وطلاق وميراث ونحوها ، والى الأمور الدولية كالجهاد وعلاقة المسلمين بالمحاربين وما بينهم من عهود وغنائم الحرب وما الى ذلك ، والقرآن بهذه الآيات القانونية وسائر آياته الواردة فى الآداب والأخلاق والاجتماع ، قرر القوانين الكلية والأصول الأولية حتى تكون فى نص القانون سعة بحيث يمكن أن يطبق على ما يجد من حاجات ويحدث من جزئيات ، مفوضاً بيانها الى رسول الله ﷺ بقوله تعالى : « ونزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم » ، فسنة رسول الله ﷺ وخلفائه الأئمة المعصومين عليهم السلام نور مقتبس من نور كتاب الله الكريم ظهرت بها تفاصيل ما جاء فى القرآن الكريم ؛ من ناحية محكمه ومتشابهه ، وبجملة ومبينه ، وعمومه وخصوصه ، ومطلقه ومقيده ، وناسخه ومنسوخه ، وتاركا تخريج أحكام الجزئيات فى زمن الغيبة لاجتهاد المجتهدين المستجمعين لشرائط الافتاء يستنبطونها من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وخلفائه الأئمة الطاهرين عليهم الصلوة والسلام ، وما يلحق بهما من أدلة الأحكام الشرعية فيجب أن يكون باب الاجتهاد فى الفقه الاسلامى مفتوحاً دائماً لمن تتوفر فيهم شروطه من المجتهدين وعلماء الدين الحائزين للملكة الاستنباط ، وذلك لأن الفقه الاسلامى قانون عام وضع للناس كافة فى كل زمان ومكان ، فلا بد أن تتقبل نصوصه المصالح المختلفة ، ويكون لولاية الأمور من المجتهدين

الذين يتولون في عصر الغيبة تعيين الأحكام الشرعية والوظائف العملية بالاستنباط عنها سعة ، وذلك هو المثل الأعلى للتشريع الذي يراد به أن يكون شرعه لجميع الأمم في مختلف العصور الى آخر الدنيا .

فإنضح أن الاجتهاد في الفقه الاسلامي من لوازم هذا الدين ، وسد بابَه مناقض لأغراض الاسلام الجوهرية في زمن الغيبة الذي لم يبق فيه طريق لمعرفة أحكام الله تعالى سوى الرجوع الى كتاب الله المجيد والسنة الشريفة ، وحيث لا يمكن أن يكلف به جميع المكلفين لكي لا يختل النظام في المعاش والمعاد ، لا جرم صار الناس على صنفين ، فصنف على عهده تعيين الأحكام الشرعية وإستنباطها من الأدلة الدينية ، وصنف على عهده سائر الأمور التي تتوقف عليها إستقامة النظام الديوى ، والثاني يرجع الى الاول في أخذ الأحكام المتعلقة به ، فالأول ، هو المجتهد ، والثاني هو المقلد ، وهذه سنة الله تعالى في عباده وبلاده ، هذا مضافا الى إستقلال العقل به ، وهذا لا يختص به أهل ملة بل هو جار في جميع الملل والاديان وذلك لأن تقليد الجاهل في كل أمر من العالم أمر فطرى وطبعى مرتكز في نفوس العقلاء حتى صار من سيرتهم رجوع الجاهل الى العالم في جميع الأمور والإسلام كما أقر المعاملات المتعارفة عند البشر فأحل البيع والتجارة ، ولأجل المنع من إرتكاز الثروة حرّم الربا ، وعدل نظام المعاوضات بإعادتها الى حقائقها المنحرفة بالتسامح العرفي خلال الأزمنة المتكاثرة ، وبذلك نشطت الحركات الإقتصادية والعمرانية ، كذلك أقر الأحكام العقلية والعرفية التي جرت سيرة البشر على طبقها ، كقاعدة رجوع الجاهل بأشياء الى العالم به ، ومن مصاديقه تقليد العاى من المجتهد فيما لا يعلمه من الأحكام الشرعية . وعدل نظام التقليد بإعتباره الاجتهاد الحقيقي المرتكز

على الملكة الراسخة وقوة الاستنباط في مرجع التقليد ، وإشراطه حياة ذلك المجتهد في حين إبتداء التقليد كما يستفاد من مادة السؤال في قوله تعالى (فاسئلوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون) ومن الواضح أن الالتزام بتقليد الحى في كل عصر يبعث نشاطاً عاماً وإهتماماً تاماً بالدين في كل جيل ولا ينطبق أهل الذكر إلا على أصحاب الملكة الراسخة وقوة الاستنباط القدسية فلا ينبغي الريب في إنقسام المكلف الى قسمين : مجتهد ، ومقلد ، ووجوب رجوع الثانى فى معرفة أحكامه الى الاول ، ومن أنكر ذلك بلسانه فهو مذعن به فى جناحه ، ومن جحدته فى قوله فهو مصدق له فى فعله . نعم هنا قسم ثالث وهو تارك الطريقين والعامل بالاحتياط ، وهذا وان كان الحق صحة أعماله وصحة عباداته حتى اذا استلزم التكرار ، ولكن ذلك لا يستغنى به عن الاجتهاد والتقليد لمعرفة موارد الاحتياط ، فقد يكون الاحتياط فى ترك الاحتياط ، وقد يتعارض الاحتياطان فلا بد من الترجيح هذا مضافا الى ما فيه من العسر التام والخرج الشديد على المكلفين ، كما لا يخفى على الخبير والله سبحانه ولى التوفيق .

(فائدة مهمة في بيان الولاية)

اعلم أن من البدهى الواضح أن سلطان الخالق المتعال (جلّت قدرته) على مخلوقاته أسمى أنواع السلطنة ، وأعلى أقسام الولاية . وقد اشتقت من هذه الولاية الالهية والسلطنة الربوبية ولاية النبي ﷺ وهى المنوّه بها فى قوله تعالى : (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) ثم اشتقت من هذه الولاية النبوية ، ولاية الامام عليه السلام واليهما أشار النبي ﷺ فى حديث الغدير المروى

بالطرق الصحيحة المتواترة في كتب الفريقين ، فلقد مهد رسول الله ﷺ لولاية الامام المنصوب من الله تعالى بقوله : (أأست أولى بكم من أنفسكم ؟) قالوا : بلى ، فقال ﷺ : (من كنت مولاه فهذا علي مولاه الخ) لكي يكون هذا التمهيد قرينة قطعية على أنه ﷺ أراد معنى الأولى بالتصرف من كلمة المولى ، وبذلك أظهر أن ولاية الامام علي عليه السلام فرع لولاية النبي ﷺ ومرتبة من مراتبها ، وهذه الولاية أصل المذهب ودعامته التي بنى عليها ، قال الله تعالى : (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) .

فظهر أن الولاية من جانب الله عز وجل على عباده ثابتة لرسوله ﷺ وخلفائه الاوصياء المعصومين عليهم السلام ، وأنهم سلاطين الأنام ، وهم الملوك والولاة والاولياء والحكام ، ويبدئهم أزمة الامور ، وسائر الناس رعاياهم والمولى عليهم ، وأما غير الرسول ﷺ وأوصيائه (ع) فلا شك في أن الأصل عدم ثبوت ولاية أحد على أحد الا من ولاه الله تعالى أو رسوله ﷺ أو أحد من أوصيائه على أحد في أمر ، وحينئذ يكون هو ولياً على المولى عليه فيما ولاه فيه ، والاولياء كثيرون كالفقهاء المجتهدين العدول ، والآباء والاجداد ، والاوصياء ، والاخوان ، والموالي ، فإنهم الاولياء على العوام ، والاولاد ، والموصى له ، والزوجات والمماليك ولكن ولايتهم محدودة ومقصورة على ما ثبت من ولاية الامر ، والمقصود في هذا البحث هو ولاية الفقيه المجتهد الجامع لشرائط الافتاء والقضاء التي هي فرع مشتق من ولاية الامام علي عليه السلام المشتقة من ولاية النبي ﷺ المشتقة من الولاية الإلهية والسلطة الربوبية لقوله ﷺ : (فإنهم حجتي عليكم وأنا حجة الله) .

وللفقيه المجتهد الجامع للشرائط ولاية الافتاء ، وولاية القضاء ،
والحكم ، وولاية التصرف في أموال يتسامى والمجانين والغائبين ، وولاية
اجراء الحدود والتعزيرات في زمن الغيبة .

بلا خلاف فيها عدى الاخير ، فقد نقل عن الحلّي منعها ، وظاهر
الشرائع والنافع التردد ، وبعد الإحاطة بما بيناه من المطالب المتقدمة في
هذه المقدمة يظهر أن الحق ثبوتها للفقيه المستجمع للشرائط ، ووجوبها
على مبسوط اليد من الفقهاء ، وقد نسب القول به الى المشهور ، بل ادعى
بعضهم عليه الاجماع في مسألة عمل الحاكم بعلمه في حقوق الله ، وفي رواية
حفص بن غياث قال : سألت ابا عبد الله عليه السلام من يقيم الحدود السلطان
أو القاضي ؟ فقال عليه السلام : (اقامة الحدود الى من اليه الحكم) ويظهر منها
أن ولاية اقامة الحدود لمن له ولاية القضاء . وفي رواية ميثم الطويلة التي
رواها المشايخ الثلاثة الواردة في حد الزنا عن امير المؤمنين عليه السلام أنه قال :
(وإنك قد قلت لنبيك (ص) فيما اخبرته به من دينك يا محمد (ص) من
عطل حداً من حدودي فقد عاندني وطلب بذلك مضادتي ، وأنا غير معطل
حدودك ولا طالب مضادتك ولا مضيع أحكامك الخ) ويمكن الاستدلال
بعمومها على ثبوت هذه الولاية ايضاً للفقهاء في زمن الغيبة ، وإستدلوا
على وجوبها عليهم مع بسط اليد بإطلاقات الأوامر ، وبإفضاء ترك إجراء
الحدود الى المفاسد ، وصرحوا بوجوب مساعدة الناس لهم ، ثم ان
ما ذكر وإن كان مختصاً بالحدود ، ولكن يتعدى إلى التعزيرات بالاجماع
المركب ، مضافاً الى أن الظاهر دخول التعزيرات في الحدود .

واما ولاية الإفتاء وولاية القضاء فيدل عليهما مقبولة عمر ابن حنظلة
الذي ورد توثيقه في الحديث الوارد في مواقيت الصلوة ، حيث سنّه عليه السلام

رجل : أن عمر ابن حنظلة قد أتانا بوقت فقال عليه السلام : إذا لا يكذب علينا ، . وفيها ، أنظروا الى من كان منكم قد روى حديثنا ، ونظر في حلالنا وحرامنا ، وعرف أحكامنا ، فليرضوا به حكماً فإني قد جعلته عليكم حاكماً ، فاذا حكم بحكمنا فلم يقبل منه فإنما استخف بحكم الله ، وعلينا رد ، والراد علينا كالراد على الله ، وهو على حد الشرك بالله ،) والاستدلال بها عليهما واضح لكل من أوتي ملكة الاستنباط والفهم الصائب لأساليب العربية وأحاديث الأئمة عليهم السلام ، فلقد بدء بيان أوصاف الولي المنصوب للإفتاء والقضاء ، بمن كان راوياً لحديثهم للتنبيه على أن السنة الشارحة لكتاب الله تعالى يجب أن تكون أساساً للنظر في حلالهم وحرامهم لا القياس والاستحسان ، وهذا الوصف الثاني أى النظر فى الأحكام هو عبارة عن استنباط الأحكام الشرعية عن أدلتها التفصيلية ، أى الاجتهاد المؤدى الى الوصف الثالث وهو معرفة الأحكام الآلهية لمكان ملكة الاجتهاد وقوة الاستنباط ، وليس المراد بالحكم خصوص مايقع بعد الترافع لأعميته لغة وعرفاً ، وعدم ثبوت الحقيقة الشرعية فيه ، وعلى تقدير التسليم فدلالته على التقليد اما من باب الأولوية واما لعدم القول بالفصل واما بتوقف رفع الخصومة على قبول فتواه ويتم بالاجماع المركب ، . ومنه يظهر امكان الاستدلال بروايتى ابى خديجه لأن القضاء أيضا بمعنى الحكم ، ويدل عليه ايضا أمر الأئمة عليهم السلام بعض اصحابهم بالافتاء ، وأمرهم الناس بالرجوع اليهم ، قال الصادق عليه السلام لابن ابي تغلب (اجلس فى مسجد المدينة وافت فى الناس فإني أحب أن يرى فى شيعتى مثلك) ، ويدل عليه ايضا مفاهيم الاخبار المستفيضة الناهية عن الافتاء بغير علم ومن غير العلم بالناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه ، والمدينة لصفات المفتى ،

والأخبار المتكثرة المتضمنة لأن الله سبحانه لا يدع الأرض خالية عن عالم يعرف الناس حلالهم وحرامهم ، ولئلا يلتبس عليهم أمورهم ، والصريح في جواز التقليد رواية الاحتجاج عن تفسير الامام عليه السلام .

فظهر أن ولاية الفقيه الجامع للشرائط فرع من فروع ولاية الامام عليه السلام ويؤيد الأدلة الشرعية المذكورة أن بعد الايمان بالله تعالى وبرسوله ﷺ وبالقرآن الذي أنزل عليه وبما دعى الناس كافة اليه من الشريعة الكاملة الخالدة والعلم إجمالاً بثبوت تكاليف في الشريعة الاسلامية ، وأن الشارع نصب طريقاً للوصول الى أحكامه وتكاليفه (فإنه كما يجب عليه تشريعها كذلك يجب عليه بيانها وتبليغها ولو كان بنصب طريق موصل اليه) ، تنجزت تلك الأحكام على المكلف وان لم يعرف آحادها مفصلة ، فوجب عليه أن يعرفها بالاجتهاد أو بالتقليد ، وكذلك يجب عليه أن يفحص عن الطريق الشرعى الى أحكامه الدينية ، وليس له أن يعمل بالرواية قبل الفحص عن المعارض ، ولا يجوز له اجراء أصل حكى قبل الفحص عن الدليل لكي لا يلزم افحام الشارع ، وذلك فإنه أحب أن يرى في شيعتى مثلك .

لأن الحاكم بوجوب امتثال أحكام الشارع هو العقل ، ضرورة امتناع كون وجوبه شرعياً للزوم التسلسل ، وما ورد في ذلك مما يظن منه ايجاب الشارع للإمتثال فإنما هو ارشادى صرف ، ورد لتأكيد حكم العقل كما هو واضح ، وكون العلم بالأحكام مأخوذاً في حكم العقل بوجوب الامتثال ، على تقدير تسليمه أعم من التفصيل والاجمالى بالحكم أو بطريقه فإن العقل يستقل في الحكم بعدم الفرق بين خصوصيات العلم وبأن المدار على مطلق الانكشاف من غير تفصيل ، ويحكم حينئذ بوجوب الفحص على

العلماء والعوام فكل منهم بالفحص مأمور وفي تركه غير معذور ، والأدلة المذكورة كما تدل على ثبوت ولاية الافتاء للفقهاء الجامع للشرائط ووجوب الافتاء عليه كذلك تدل على وجوب التقليد على العامى . ولما كان لا يجوز للعامى أن يقلد المجتهد فى هذه المسئلة ، للزوم الدور . ولأن جواز التقليد أو وجوبه ليس من المسائل الفرعية بل من مسائل علم الكلام ، بل يجب عليه أن يجتهد فيها بنفسه ويبدل أقصى جهوده فى سبيل تحصيل القطع بوجوب التقليد عليه فى الأحكام الشرعية من دليل عقلى أو سمعى ثم يعمل بقطعه ببدل الجهد التام فى تعيين الفقيه الذى يقلده من بين الفقهاء وتحصيل العلم واليقين بأهليته لذلك ، فإن تشخيص المرجع من منازل الأقدام .

ومورد الافتاء والتقليد المسائل الشرعية الفرعية ، والموضوعات الاستنباطية من حيث ترتب حكم فرعى عليها ، وأما الحكومة الشرعية فلفقيه الجامع لشرائط الفتوى والقضاء ، الحكم بما يراه حقاً فى المرافعات وغيرها وعلى المسلمين قبول أحكامهم ، قال الشهيد قدس سره فى القواعد (قاعدة) فى ضبط ما يحتاج الى الحاكم ؛ كل قضية وقع النزاع فيها فى اثبات شىء أو نفيه أو كيفيته وكل أمر فيه اختلاف بين العلماء كثبوت الشفعة مع الكثرة ؛ أو احتياج فيه الى التوقييم كالأرش وتقدير النفقات ، أو الى ضرب المدة كالإيلاء والظهار ، وبما يحتاج الى القصاص نفساً أو طرفاً والحدود والتعزيرات ، وحفظ مال الغياب ؛ كالودائع واللقطات (انتهى) .

وأما ولاية التصرف استقلالاً فى الأموال والأنفس فلم يثبت للفقهاء بدليل عام ، ولا يكفى فى اثباتها لهم ما ورد فى مقبولة عمر بن حنظلة ؛

ومشهوره أبى خديجة والأحاديث المستنيرة في شأن العلماء والفقهاء فإنها
واردة في مقام بيان وظيفتهم من حيث الأحكام الشرعية ، لا كونهم
كالنبي ﷺ والأئمة صلوات الله عليهم أولى بالناس في أهوالهم ، فلا دليل
للقول بأن كل ما كان للنبي والإمام عليهم الصلوة والسلام فيه الولاية فللفقيه
أيضاً ذلك إلا ما أخرجه الدليل ، وفاقاً لما حققه شيخنا الأکبر الأنصارى
قدس سره ، ولكن لا يمكن الموافقة على كل ما إختاره قدس سره حيث
قال : (فقد ظهر بما ذكرنا أن ما دل عليه هذه الأدلة هو ثبوت الولاية
للفقيه في الأمور التي يكون مشروعيتها إيجادها في الخارج مفروغا عنها بحيث
لو فرض عدم الفقيه كان على الناس القيام بها كفاية ، وأما ما يشك في
مشروعيتها كالأحدود لغير الإمام ، وتزويج الصغيرة لغير الأب والجد ،
وولاية المعاملة على مال الغائب بالعقد عليه وفسخ العقد الخيارى عنه وغير
ذلك فلا يثبت من تلك الأدلة مشروعيتها للفقيه بل لا بد للفقيه من إستنباط
مشروعيتها من دليل آخر ، نعم الولاية على هذه وغيرها ثابتة للإمام عليه السلام
بالأدلة المتقدمة المختصة به ، مثل آية أولى بالناس من أنفسهم ، وقد تقدم
أن إثبات نيابة الفقيه عنه عليه السلام في هذا النحو من الولاية على الناس ليقتصر
في الخروج عنه على ما خرج بالدليل دونه خرط القتاد (إنتهى) .

وبعد الإحاطة بما أثبتناه في ضمن المطالب المذكورة في هذه المقدمة من
أن الإسلام دين عام خالد متكفل لكل ما يحتاج إليه نوع الإنسان لسعادته
في الدنيا والآخرة ، ثم التدقيق في الأدلة الواردة في شأن العلماء والفقهاء
مع رعاية ما يتطلبه عصر الغيبة من الأنظمة والأحكام لتحقيق أغراض
الإسلام ، يحصل الإطمئنان بأن كل فعل متعلق بأمور العباد في دنياهم وآخرتهم
إذا كان بحيث لا بد من إيجاده في الخارج ولا مناص منه (إما عقلاً وعادة)

من جهة توقف أمور المعاد أو المعاش لواحد أو جماعة أو أمة عليه، وإناطة
انتظام أمور الدين أو الدنيا به (أو شرعا) من جهة ورود أمر به أو اجماع
أو نفي ضرر أو اضرار، أو عسر أو حرج أو فساد على مسلم أو دليل
آخر، أو ورد الإذن به من الشارع وثبتت مشروعية إيجادها في الخارج
ولم يجعل وظيفة لمعين واحد أو جماعة أو لواحد لا على التعيين، بل علم
لابدية الإتيان به أو الإذن فيه ولم يعلم المأمور به ولا المأذون فيه، فهو وظيفة
الفقيه وله التصرف فيه، والإتيان به أو الإذن فيه، والله العالم
بحقائق أحكامه.

هذا ختام المقدمة أفردناها في هذا الجزء من بقية أجزاء الكتاب
ليعم نفعها مختلف طبقات المسلمين، ويتلوه الجزء الثاني حافلا بشرح
مباحث التقليد ومسائل الطهارة ان شاء الله تعالى.

فرغ من كتابته مؤلفه الفاني عبد الكريم الزنجاني ابن الحجة الشيخ
محمد الرضا في النجف الأشرف يوم الغدير سنة الإحدى والثلاثين بعد الألف
والثلاثمائة من الهجرة النبوية المقدسة. والحمد لله رب العالمين. ١٣٣١

« فهرس الجزء الاول »

(من كتاب الفقه الأرقى في شرح العروة الوثقى)

صفحة	
٣	كلمة ناشر الطبعة الثانية .
٧	كلمة ناشر الطبعة الأولى .
١١	صورة زنگورافية عن اجازة مؤلف العروة الوثقى .
١٣	صورة زنگورافية من سند التصديق لآية الله الفيروز آبادى .
١٦	سبب التأليف .
١٧	مقدمة في بيان مقصد أساسى أهم .
٢٢	(المطلب الأول) في بيان أن الفقه الإسلامى جامع لمناهج علوم الحياة .
٢٧	القرآن الكريم هو المصدر الأعلى للأحكام ؛ والسنة مفتاح القرآن
٢٩	بيان الصحيفة الجامعة لتعاليم الإسلام بخط أمير المؤمنين عليه السلام عن
	املاء رسول الله ﷺ .
٣٢	نتيجة الجمع بين أحاديث نبوية متواترة في تشخيص أصح طرق اثبات السنة .
٣٥	مراتب التوحيد وتحليل الشهادات وتوضيح الشهادة الثالثة .
٣٧	(المطلب الثانى) المثل العليا ، والإسلام هو المثل الأعلى للدين .
٤٠	استلهاهم الطبيعة فى العناوين الثانوية ، وتحقيق الشيخ فى المكاسب .
٤١	توضيح الفرق بين أسرار التشريع الإسلامى وبين علل الأحكام وحكمة التشريع .

- ٤٣ (المطلب الثالث) في بيان الفطرة الانسانية التي يسايرها التشريع الاسلامى .
- ٤٦ وجوه امتياز التشريع الاسلامى عن تشريعات الاديان السماوية ومن البحث العلمى .
- ٤٨ (المطلب الرابع) في أن الاسلام فى أصول الدين مذهب واحد .
- ٤٩ فروع الاسلام ما ورد فى الكتاب والسنة ، والهدف تربية الفطرة واقامتها على طريق التكامل .
- ٥٠ استنكار علم الخلاف وبيان الاجتهاد وفوائده .
- ٥٣ (المطلب الخامس) فى بيان تاريخ الفقه الاسلامى وصحيفة أمير المؤمنين عليه السلام .
- ٥٦ بيان الفقه الاكبر وعلم الكلام والفلسفة وعلوم التمدن الاسلامى .
- ٥٩ (المطلب السادس) التربية الاسلامية ومراحلها (المرحلة الاولى) قانون الوراثة .
- ٦٤ (المرحلة الثانية) التربية البيتية وواجب الابوين فى التعليم والتربية فى بيان وجوب تعليم أصول الدين الاسلامى فى السن العاشرة .
- ٦٨ (المرحلة الثالثة) وبيان أنها أصعب مراحل التربية .
- ٧٢ (نبذة من الآداب الشرعية) ولزوم رعايتها فى التربية ، وآداب التيقظ .
- ٧٤ من آداب الوضوء والغسل والتيمم .
- ٧٦ من آداب المسجد .
- ٧٩ من آداب الصلوة وبيان حقيقة النية ولزوم الاخلاص فيها .
- ٨٣ من آداب صلاة الجماعة والتعقيب .

من أسرار تشريع صلوة الجماعة .	٨٥
من آداب الاكل والشرب .	٨٧
من آداب طلب الرزق .	٨٩
بيان التوكل وأنه لا ينافي تحصيل الاسباب .	٩٢
من آداب القيلولة وناقلة الزوال .	٩٣
من آداب النوم .	٩٦
من آداب يوم الجمعة وصلوة الجمعة .	٩٧
من آداب الصحبة والمعاشرة .	١٠١
من آداب الولد مع والديه .	١٠٤
من آداب الصوم وأسرار تشريعه .	١٠٥
(المطلب السابع) التعليم في الاسلام .	١٠٨
برنامج نبوى كامل لمناهج التعليم والتعلم في الاسلام .	١١٠
من آداب المتعلم مع العالم .	١١٣
مناهج التعليم وأساليبه والترتيب اللازم في دراسة العلوم .	١١٤
(المطلب الثامن) الاخلاق الاسلامية ثلاثة أنواع (النوع الاول)	١٢١
المكدارم الحاصلة بالطبع والغريزة .	
(النوع الثانى) طلب الفضائل بالجهد والسعى والرغبة والاختيار .	١٢٦
(النوع الثالث) الفضائل الحاصلة بالتأديب والاجبار على تطهير	١٢٧
الباطن من جرائم الجوارح أو ذمائم القلب أو الشغل بما سوى الله	
بيان العدالة وأقسامها ، ونسبة المساواة وأنواعها .	١٣٢
(المطلب التاسع) الاقتصاد الاسلامى وامتيازاه عن الاقتصاد العلمى	١٣٥
ملخص مناهج الاقتصاد الاسلامى .	١٤٥

- ١٥١ الشيعة من لا يدفع أخاه المؤمن أن أدخل يده في كيسه ليأخذ حاجته .
- ١٥٢ مظاهر التعاون الحقيقي في التشريعات الإسلامية .
- ١٥٤ الاقتصاد الإسلامي يعم جميع شؤون الإنسان حتى العبادة .
- ١٥٦ (المطلب العاشر) السياسة في الإسلام هي السلطة الزمنية عن نبعة الدين على سيرة رسول الله ﷺ .
- ١٥٧ وضع رسول الله أساس التوظيف على كفاءة الموظف .
- ١٥٩ سياسة الخداع والكذب محرمة في الإسلام .
- ١٦٢ مسك الختام .
- ١٦٤ (المطلب الحادي عشر) الاجتماع في الإسلام والمبادئ والمناهج .
- ١٨١ فائدة مهمة في بيان الولاية التي هي أصل المذهب ودعامته .
- ١٨٣ بيان ما للفقيه من ولاية الافتاء وولاية الحكم وولاية التصرف في بعض الاموال وولاية اجراء الحدود والتعزيرات .
- ١٨٤ توثيق عمر بن حنظلة وتحقيق دقيق في مضمون مقبولته .
- ١٨٥ دليل وجوب الفحص على العلماء والعوام .
- ١٨٦ الضابط فيما يحتاج الى الحاكم .
- ١٨٧ حدود ولاية التصرف الثابتة للفقهاء .

مطبعة الغري الحديثة : النجف ت ٦٨٢



LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library



32101 072239724